أبو زكريا الفَرَّاء

وآفاق البحث اللغوي

أبو زكريا الفَرَّاء

وآفاق البحث اللغوي

د. موفق السراج

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٢١م

مُقَدِّمَة

«أبو زكريا الفراء وآفاق البحث اللغوي» دراسة تستجلي آفاق البحث اللغوي عند عَلَم كبير من أعلام الدراسات اللغوية في تراثنا العربي المشرق هو يحيى ابن زياد بن عبد الله... المشهور بلقب (الفرَّاء)، وذلك من خلال سبر المنهج الذي سلكه هذا الرجل في تأليف أهم كتاب عنده ألا وهو كتاب (معاني القرآن).

واختيار تلك الدراسة إنما هو اختيار دقيق ومقصود يكتسب أهميته بين الدراسات اللغوية لثلاثة أمور هي التالية:

أولاً: لأن الفرَّاء – وإن لم يكن رأس المدرسة الكوفية – يُعَدّ الإمام الحقيقي لتلك المدرسة، لما بذله من جهود عظيمة في محاولات جادة لإرساء قواعد المذهب الكوفي، وتوطيد مصطلحاته، ليكون متميزاً عن المذهب البصري، ومستقلاً متفرداً ذا هوية خاصة به، يقف أمام المذهب البصري على قدم المساواة، وقد أعانه في تحقيق مطمحه قوة شخصيته، وخصب عقله، وبعد غور ذهنه، مما لم يكن لأحد من أقطاب المذهب الكوفي، ومؤسسي هذا المذهب بمن فيهم أستاذه الكسائي.

ثانياً: لأن كتاب «معاني القرآن» من أهم كتب الفرَّاء، بل من أهم الكتب المؤلفة في موضوعه، وذلك لأنه يحتوي معظم المذهب الكوفي، ويكشف عن

مذاهب القُرَّاء الكوفيين في الاحتجاج في الحقبة التي سبقت عصر أبي بكر بن مجاهد المتوفى سنة (٣٢٤ هـ) الذي يُعَدُّ أول من حَدَّد القراءات السبعة المتواترة، إلى جانب ما يكشف عنه من خصائص نحاتهم، والسمات العامة لمنهجهم.. وسوى هذا فهو كتاب أهل الكوفة، مثل كتاب سيبويه الذي أجمع العلماء على أنه كتاب أهل البصرة.

ثالثاً: لأن دراسة منهج المؤلفين في مؤلفاتهم - في رأيي المتواضع - أهم جانب في الأعمال التراثية يمكن أن يتناوله الدارسون، ويقولوا فيه كلمتهم، لأن المنهج يتخطى حدود الزمان والمكان، والبحث فيه يكشف عن التوجه الفكري الذي يقف وراء العمل، ويبين الطرق التي كان يلجأ إليها المؤلف في حشد المعلومات وتقليب الآراء، ومن ثَمَّ يجلو مذهبه من خلال أثره المدروس، فتبين للقارىء خصائص آفاق البحث اللغوي عنده، وعلاج واحدة للفراء ليس بالأمر اليسير كما يقول الأستاذ إبراهيم الأبياري في مقدمته لكتابه «الأيام والليالي والشهور».

وقد جعلت الدراسة في بابين، وكل باب في خمسة فصول.

أما الباب الأول فكان في: (معاني القرآن).. وقد رأيت من الضرورة أن أترجم لصاحب الكتاب لمعرفة شيء عن حياته، وآثاره، ومنزلته العلمية وبعض أخلاقه، فخصصت لذلك الفصل الأول، واقتضبت فيه مقتصراً على ما يعطي فكرة عن الرجل في هذه الجوانب المذكورة، ويجعل البحث مستكملاً شروطه، وغير مبتور.

وأما الفصل الثاني فعرضت فيه لمحتوى كتاب الفراء وتصنيفه بين الدراسات القرآنية، فتبين أنه ينتمي - والكتب التي معه - إلى كتب التفاسير

القرآنية التي تنحو منحى لغوياً في تفسير مشكل القرآن، كما بيّنت ما أُلف من كتب في « معاني القرآن » وما أبقاه الزمن منها، متتبعاً تسلسلها التاريخي.

ثم عرضت في الفصل الثالث لما سبق كتاب الفراء في هذا الموضوع من كتب وهما كتابان: « مجاز القرآن » لأبي عبيدة معمر بن المثنى، و « معاني القرآن » للأخفش الأوسط، موضحاً مضمون كل منهما، ومنهج صاحبه فيه.

وفي الفصل الرابع تناولت كتابين أُلفا بعد كتاب الفـراء في «معاني القرآن» هما: «معاني القرآن» لأبي إسحاق الزجاج، و«ومعاني القرآن» لأبي جعفر النحاس، فبيّنت مضمونهما، ومنهج صاحبيهما فيهما.

وأما الفصل الخامس من هذا الباب فعقدته لموقع كتاب الفراء بين كتب المعاني المذكورة، ما تقدم عليه منها وما تأخر عنه، وذلك من خلال موازنة أجريتها بينه وبين كل كتاب من هذه الكتب، فكشفت عن مدى التأثير والتأثر الحاصلين بين كتابه والكتب الأخرى، وحددت الأسباب التي فضل بها كتاب الفراء تلك الكتب.

وأما الباب الثاني فجعلته لمنهج الفراء في كتاب المعاني، وقسمته كذلك خمسة فصول، تناولت في الفصل الأول منهجه في التفسير والقراءات فبينت ثقافته وعدته التي استخدمها في التفسير، وأثر ميله إلى الاعتزال في كونه متحرراً أخذ بالمنقول والمعقول، ولجأ إلى التأويل في قضيتي العدل والتوحيد بما يتناسب وفكر المعتزلة، كما بينت أن القراءات مظهر من مظاهر الاحتجاج عند الفراء، وأن ملاكه العام الأخذ بالقراءات المتواترة والشاذة، ومراعاة الرسم القرآني ما لم يتعارض هذا الأخذ مع التفسير، أو مذهب الفراء النحوي واللغوي، أو يخالف كلام العرب ومذاهبها.

ثم وقفت في الفصل الثاني على منهج الفراء في اللغة والصرف من خـلال ما ورد منهما في كتاب المعاني، فوضح طول باعـه اللغوي، كما تجلت مسائل صرفية كثيرة اتخذ من الخفة والثقل علة لها في أغلب الأحيان.

وأما الفصل الثالث فكان للجوانب البلاغية، التي وردت عند الفراء في أثناء التفسير، فبدا تقدمه على أبي عبيدة حيث فصَّل الكثير مما أجمله، وأضاف الكثير مما أغفله، وكان في ذلك ذا مزية بين معاصريه ومتقدميه فخطا بالبلاغة خطوة إلى الأمام وهذا ما يجب عدم إغفاله عند التأريخ للبلاغة العربية.

ثم جعلت الفصل الرابع لدراسة منهجه في النحو، فوقفت على أصوله من سماع، وقياس، وعوامل، وعلل، وبينت دوره في تأصيل الأصول، كما وقفت على منهجه في الاحتجاج بالشواهد لتقرير القواعد وصوغ الأحكام، ووجدت أن الفراء كان يولي المعنى أهمية أولى، ويرى أن النحو يخضع للمعنى، ولكن المتكلم يتخذ من العوامل آلات للتعبير عمّا في نفسه، وهذا الرأي بالعامل - والذي ينسب إلى ابن جني المتوفى سنة (٣٩٢ هـ) حري بأن ينسب إلى الفراء المتوفى قبل ابن جني بنحو قرنين من الزمان.

كما عرضت في هذا الفصل لمذهب الفراء النحوي، ودللت على أنه كوفي المذهب من غير أدنى شك، وأن الادعاء بأنه بغدادي المذهب لا أساس له من الصحة، ذاكراً الحجة والرد عليها في موضعها من هذا الفصل، ثم ذكرت قوة شخصية الفراء في استخدام مصطلح جديد يخالف ما عبر به البصريون عن مسمياتهم النحوية ليميز الفراء مذهبه الكوفي عن مذهب البصريين، وهو ما اشتهر على أنه مصطلح نحو كوفي. أضف إلى ذلك أن قوة شخصيته تبدت كذلك في موقفه من النحاة ومخالفتهم في كثير من المسائل، ورد حججهم بحجج

استقل بها الفراء، ولم يسلم منه حتى أستاذه الكسائي، إذ ردّ عليه كثيراً من آرائه في مواضع كثيرة من الكتاب.

ومما ميز مذهبه النحوي اعتماده على المعنى في تقدير الإعراب، وإدراكه الفارق بين المواقع النحوية والمواقع الدلالية للكلام، مما يعالجه علم اللغة الحديث في بعض جوانبه.

وأما الفصل الخامس فأفردته لبحث طريقته في عرض الحجج والآراء والمعلومات التي شكلت في النهاية كتاب المعاني، كما تحدثت في هذا الفصل عن أهم ميزات أسلوب الفراء وخصائصه.

وقد اعتمدت في إعداد هـذا البحث، على مصادر متنوعة، ومراجع مختلفة. أما المصادر فشملت كتب التراجم العامة كـ: وفيات الأعيان، والفهرست، وتاريخ بغداد، ومعجم الأدباء، وشذرات الذهب، وكشف الظنون، وكتب التراجم الخاصة بالنحويين واللغويين، كمراتب النحويين، وطبقات النحويين واللغويين، وإنباه الرواة، والبلغة في تاريخ أئمة اللغة، ونزهة الألباء، وبغية الوعاة. كما شملت المصادر بعض كتب التاريخ، كتاريخ الطبري، والكامل في التاريخ، وتاريخ الخلفاء، وبعض كتب التفسير والمعاجم، كتفسير الطبري، ولسان العرب، والقامـوس المحيط، وبعض الكتب المتصلة بعلوم القرآن، كالإتقان للسيوطي... وبعض كتب أخرى تتصل بأمور النحـو واللغة، ككتاب سيبويه، وشرح المفصل، والمزهر، والإنصاف في مسائل الخلاف... وغيرها.

وأما المراجع فكانت عديدة أيضاً، منها مـا يتصل بالتراجم، ككتاب بروكلمان تارخ الأدب العربي، والأعلام للزركلي، ومنها ما يتصل بتاريخ

النحو، كالمدارس النحوية، أو بالتاريخ العام، كضحى الإسلام، كما شملت هذه المراجع الدراسات النحوية واللغوية المختصة، وبعض الكتب المؤلفة في التفسير وتاريخه ومناهجه، وبعض البحوث في بعض المجلات.

وسوى ذلك فقد لجأت إلى المنهج الوصفي والتحليلي في دراسة منهج الفراء في كتابه «معاني القرآن» فرحت أستنبط الأحكام من نصوص الكتاب، كما اعتمدت على المنهج المعياري في تقويم كتاب الفراء، ووضعه في الموضع الذي يستحق بين كتب المعاني الأخرى في الفصل الخامس من الباب الأول.

وبعد فلا أستطيع أن أدعي أني بلغت الغاية ووصلت في هذا البحث درجة الكمال، فالكمال لله وحده، وحسبي أنني بذلت قصارى جهدي ليكون ما قدمت أقرب إلى الرضا، وأدنى من الكمال. وعليه فلا يَسَعُني إلا أن أقر مع العماد الأصفهاني بأنه: «لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده: لو غُيِّر هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل، ولو تُرِك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر».

المؤلف

الباب الأول

معاني القرآن

الفصل الأول:

- **صاحب الكتاب**
- **حياتــه وآثـاره**
- **منزلته العلمية**

الفصل الأول

ليست الغاية من هذا البحث ترجمة حياة الفراء أو الاستفاضة في دقائقها كما يفعل بعض الدارسين، الذين يقصرون دراستهم على سير بعض الأعلام، فيتتبعون التفاصيل، ويبحثون عن كل صغيرة وكبيرة لها صلة بمن يدرسون، وذلك لأمرين:

الأول: لأن غاية هذه الدراسة الأولى هي استجلاء آفاق البحث اللغوي عند أبي زكريا الفـراء من خلال البحث فـي منهج تأليفـه كتاب **(**معاني القـرآن**)**، والموازنـة بين كتابه والكتب التي تخوض في الموضوع نفسه، سواء منها ما تقدم كتابه أو تأخر عنه.

الثاني: لأن كتب التراجم تناولت أخبار الفراء، وترجمت سيرته وآثاره وما يتعلق بشخصيته ومكانته العلمية، كما تناولته بالترجمة دراسات معاصرة، وفي طليعتها كتاب الدكتور أحمد مكي الأنصاري: **(**أبو زكريا الفراء ومذهبه في النحو واللغة**)**.

ومع ذلك فإن إثبات بعض الجوانب المتعلقة بشخصية الفراء وحياته، وآثاره، ومنزلته في هذا البحث أمر لا مندوحة عنه، لأنـه يوضح أهميـة الرجل بين أقرانه وبين الخلفـاء والأمراء، ويكشف عن حقيقته، ويمهد

للبحث فيجعله أقرب إلى الاستواء، وفي الوقت نفسه يكفي القارئ مؤونة الرجوع إلى مواضع ترجمة الفراء، ولهذا فسوف أكتفي من ترجمته بقدر يحقق هذا الهدف، ويصل إلى تلك الغاية.

آ – اسمه ولقبه ونسبته:

هو أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منصور الديلمي الفراء[١] الباهلي[٢]، قيل له الفراء لأنه كان يفري الكلام[٣] ولم يكن يعمل بالفِراء ولا يبيعها[٤] وهو فارسي الأصل مثل الكسائي [٥]، وقد رجح الدكتور الأنصاري أن يكـون لقب (الفراء) قد انحدر إليه من أحـد الأجداد[٦] وأن سلسلة النسب تتحلى بالأسماء العربية هكذا: (يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور)، وهذه الأسماء تدل على أن آباء الفراء دخلوا الإسلام مع السابقين الأولين من أبناء الديلم والفرس، ولما كان مولد الفراء سنة ١٤٤ هـ وأن كل جيل يمثل من الأعوام أربعين كانت ولادة منظور - فيما نقدر - سنة أربع وعشرين للهجرة، ومن هنا يتبين لنا أن هذا الجد ولد في كنف العروبة والإسلام، فسـمي باسم عربي وهـو منصور أو منظـور علـى اختلاف الروايات [٧].

---

(١) طبقات النحويين واللغويين: /١٤٣/.

(٢) وفيات الأعيان: ٢/ ٣٣٨.

(٣) بغية الوعاة: ٢/ ٣٣٣.

(٤) وفيات الأعيان: ٢/ ٣٣٨.

(٥) بروكلمان: ٢/ ١٩٩.

(٦) أبو زكريا الفراء ومذهبه في النحو واللغة د. أحمد مكي الأنصاري: ٣٤.

(٧) المرجع السابق، ص: ٤٥.

ب – مولده ونشأته ورحلاته:

إن معظم من ترجموا حياة أبي زكريا الفراء ذكروا أنه توفي في طريق مكة سنة ٢٠٧ هـ[١] وقد بلغ من العمر ثلاثاً وستين سنة[٢] فيكون مولده سنة ١٤٤هـ بالكوفة، «ويبدو أنه نشأ بها نشأته الأولى كذلك، وظل بها حتى ظهرت مواهبه، وبز أقرانه فلقبوه بالفراء... وآية ذلك أن شيوخه في بواكير حياته العلمية كانوا جميعاً من أهل الكوفة، ولما شب عن الطوق رحل إلى بغداد، وكانت مقر الخلافة ومطمح الأنظار... وذلك حينما استحثه شيخه الرؤاسي قائلاً له: قد خرج الكسائي إلى بغداد وأنت أميز منه»[٣].

«وأما رحلته إلى البصرة فيدل عليها ما روي من أنه أخذ عن يونس بن حبيب البصري واستكثر منه... ومما يدل عليها أنه لقي سيبويه في داره بالبصرة على ما يرويه بعض المؤرخين»[٤]، «وأما رحلته إلى مكة والمدينة فيدلنا عليها أنه يروي كثيراً في كتابه معاني القرآن، عن قراء مكة والمدينة، وربَّ قائل يقول: إن الرواية لا تعني أنه رحل إلى تلك البقاع، وأقول: إنه كذلك، ولكن ماذا

---

(١) انظر: الفهرست، ص: ٩٩، وتاريخ بغداد: ١٤/١٥٥، ومعجم الأدباء: ٢٠/١٣، وبغية الوعاة: ٢/٣٣٣، والكامل في التاريخ: ٥/٢٠٥-٢٠٦، والنجوم الزاهرة: ٢/١٨٥، وتاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس: ٢/٣٣٥ والعيون والحدائق في أخبار الحقائق: ٢٦٨، وضحى الإسلام: ٢/٣٨.

(٢) انظر: تاريخ بغداد: ١٤/١٥٥، ومعجم الأدباء: ٢٠/١٣، وتاريخ ابن الوردي: ١/٣٢٥، وبروكلمان: ٢/١٩٩-٢٠٠.

(٣) أبو زكريا الفراء ومذهبه في النحو واللغة، ص: ٥٠.

(٤) انظر: المزهر: ١/٢٠٢ نقلاً عن كتاب (أبو زكريا الفراء ومذهبه في النحو واللغة) ص: ٥١.

نقول في قول الفراء نفسه في تفسير معاني القرآن: سمعت أعرابياً يقول لبزاز ونحن بطريق مكة: أعطني كِسفة أي قطعة»[1] ولم تذكر المصادر والمراجع نصاً يشير صراحة إلى رحيل الفراء إلى الشام، ولكن الدكتور الأنصاري لا يستبعد أن يكون الفراء قد رحل إلى الشام، بدليل قوله في كتابه معاني القرآن: «وسمعت رجلاً من أهل الشام، وكان صاحب تفسير»[2].

جـ - ثقافته ومنزلته العلمية:

إن حياة يقضيها المرء سعياً وراء علم يحصِّله، وغاية نبيلة يرنو إليها، خليقة بأن تحقق لصاحبها مأربه، وتجعل له منزلة رفيعة في مجتمعه، وقدراً كبيراً بين الناس.

ومنذ وعى الفراء نفسه حزم أمره، ووقف حياته على هدف جليل يسعى إليه هو العلم، فرحل خلفه من مكان إلى آخر، وأخذ يختلف إلى حلقات الشيوخ لينهل من زادهم ومعارفهم ما يتوق إليه، وأشهر هؤلاء الشيوخ قيس بن الربيع، ومندل بن علي، وأبو الأحوص سلام بن سليم، وأبو بكر بن عياش، وسفيان بن عيينة، وخازم بن الحسين البصري، ومحمد بن حفص الحنفي، وأبو جعفر الرؤاسي، وعلي بن حمزة الكسائي، ويونس بن حبيب البصري، وحيان بن علي، والحسن بن عياش، ومحمد بن الفضل المروزي، ومحمد بن مروان، وعلي بن غراب، ويحيى بن سلمة بن كهيل، وإسماعيل بن جعفر المديني، وشريك بن عبد الله، ومحمد بن عبد العزيز التيمي، والفضيل بن عياض، وأبو ليلى السجستاني، وعبد الله بن المبارك، وروى عن القاسم بن معن، والمفضل الضبي... وكذلك

---

(١) أبو زكريا الفراء ومذهبه في النحو واللغة، ص: ٥٣.

(٢) المرجع السابق، ص: ٥٤.

أخذ عن أعراب وثق بهم، مثل: أبي الجراح، وأبي زياد الكلابي... كما أخذ عن أبي ثروان العكلي وغيرهم من الأعراب[1]، على أن أكثر هؤلاء الشيوخ أثرا في الفراء اثنان هما: الكسائي الكوفي، ويونس بن حبيب البصري، ولن أتحدث عنهما لخروج ذلك عن إطار هذا البحث[2].

وبعد مرحلة الأخذ تكون مرحلة العطاء، إذ تتلمذ على الفراء عدد كبير منهم: أبو جعفر محمد بن قادم، وسلمة بن عاصم، وأبو عبد الله الطوال، وأحمد بن يحيى ثعلب، وأبو عبيد القاسم بن سلام[3] ومحمد بن سعدان، ومحمد بن حبيب[4] ومحمد بن الجهم السمري[5] وغيرهم ممن لم تُعرف أسماؤهم، فقد ورد أن الفراء خرج إلى الناس وابتدأ بكتاب المعاني. قال الراوي: أردنا أن نعد الناس الذين اجتمعوا لإملاء الكتاب فلم نضبطهم، فعددنا القضاة فكانوا ثمانين قاضياً[6].

وقد تنوعت ثقافة الفراء لِما عُرف عنه من ميل إلى الاعتزال، ذلك أن المعتزلة عرفوا بسعة معارفهم ودأبهم المستمر للإحاطة بمختلف العلوم النقلية والعقلية. قال ثمامة بن الأشرس المعتزلي: «ذاكرت الفراء فوجدته في النحو نسيج وحده، وفي اللغة بحراً، وفي الفقه عارفاً باختلاف القوم، وفي الطب خبيراً، وبأيام العرب وأشعارها حاذقاً»[7]، كما أنه: «ماهر في علم

---

(١) أبو زكريا الفراء ومذهبه في النحو واللغة، ١٢٤ – ١٢٦.

(٢) ينظر في الحديث عنهما المرجع السابق: ١٢٧-١٣٧، والمدارس النحوية: ٢٨-٢٩، ١٧١-١٨٥.

(٣) الفهرست: ١٠١-١٠٦.

(٤) طبقات النحويين واللغويين: ١٥٣.

(٥) تاريخ بغداد: ١٤/ ١٤٩.

(٦) وفيات الأعيان: ٢/ ٣٣٨-٣٣٩.

(٧) شذرات الذهب: ٢/ ١٩.

النجـوم... وهو إلى ذلك متكلم»[1]، «وكان يتفلسف في تأليفاته ومصنفاته يعني يسلك في ألفاظه كلام الفلاسفة[2].

على أن شهرته ومقدرته كانتا في النحو[3] حتى وصف بأنه: أبرع الكوفيين في علمهم»[4]، «وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب»[5]. وكان يقال: «النحو الفراء، والفراء أمير المؤمنين في النحو»[6]، «ولولا الفراء ما كانت عربية ـ لأنه حملها وضبطها، ولولا الفراء لسقطت العربية، لأنها كانت تنازع ويدعيها كل من أراد، ويتكلم الناس فيها على مقادير عقولهم وقرائحهم فتذهب»[7]. وظل النحو هاجسه الأكبر فخصه بجل اهتمامه حتى اللحظات الأخيرة من حياته. قال سلمة بن عاصم: «دخلت عليه في مرضه، وقد زال عقله، وهو يقول: إن نصباً فنصباً، وإن رفعاً فرفعاً»[8].

وجاء في تاريخ بغداد[9]: «حدثنا سعدون، قال: قلت للكسائي: الفراء أعلم أم الأحمر؟ فقال: الأحمر أكثر حفظاً والفراء أحسن عقلاً وأبعد فكراً، وأعلم بما يخرج من رأسه... حدثنا سلمة قال: خرجت من منزلي فرأيت أبا عمر الجرمي واقفاً على بابي فقال لي: يا أبا محمد امضِ بي إلى فرائكم هذا. فقلت لـه: امضِ، فانتهينا إلى الفراء وهو جالس على بابـه يخاطب قومـاً من أصحابه في النحو، فلما

---

(١) ضحى الإسلام: ٢/ ٣٠٧.
(٢) الفهرست: ٩٩.
(٣) تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ: ٢/ ١٧٥.
(٤) طبقات النحويين واللغويين: ١٤٣.
(٥) وفيات الأعيان: ٢/ ٣٣٨.
(٦) تاريخ بغداد: ١٤/ ١٥٢.
(٧) طبقات النحويين واللغويين: ١٤٤.
(٨) بغية الوعاة: ٢/ ٣٣٣.
(٩) بغية الوعاة: ١٤/ ١٥٣.

عزم على النهوض قلت له: يا أبا زكريا هذا أبو عمر صاحب البصريين يحب أن تكلمه في شيء، فقال: نعم، ما يقول أصحابك في كذا وكذا، قال: كذا وكذا. قال: يلزمهم كذا وكذا ويفسد هذا من جهة كذا وكذا. قال: فألقى عليه مسائل وعرَّفه الإلزامات فيها، فنهض وهو يقول: يا أبا محمد، ما هذا الرجل إلا شيطان». وقال سلمة: «طال تعجبي كيف كان يحيى يعظم الكسائي، وهو أعلم بالنحو منه»[1].

وروي أيضاً أن الفراء قال لابن خالته محمد بن الحسن الفقيه: «قَلَّ رجل أنعم النظر في باب من العلم فأراد غيره إلا سهل عليه، فقال له محمد: يا أبا زكريا قد أنعمت النظر في العربية فأسألك عن باب من الفقه، فقال: هات على بركة الله، قال: ما تقول في رجل صلى فسها فسجد سجدتين للسهو فسها فيهما؟ ففكر الفراء... ثم قال: لا شيء عليه، فقال له محمد: ولم؟ قال: لأن التصغير عندنا لا تصغير له، وإنما السجدتان تمام الصلاة فليس للتمام تمام، فقال: ما ظننت آدمياً يلد مثلك»[2].

ومهما يكن نصيب هذه الروايات من الدقة فإنها تدل على ما كان قد وصل إليه الفراء من سمو المرتبة العلمية، وما أصابه من العلوم السائدة في عصره، ولعل الموضوعية تقتضي أن نصف الفراء بالتمكن من علوم اللغة، والإحاطة بالتفسير والفقه والقراءات والحديث والأدب والأخبار... وإذا كان يعرض شيئاً من علم النجوم والطب وغير ذلك فلا أظنه بلغ مقدار ما أتقنه من علوم العربية والدين، فكان في ذلك مثال المختص الذي يثقف نفسه فيحيط من كل علم بطرف، وآية ذلك أن المؤلفات التي ذكرت له تنضوي تحت علوم اللغة والدين وليس فيها مؤلف في الطب أو الفلك، وما اشتهر به أنه إمام كبير من أئمة العربية، استطاع أن

---

(١) إنباه الرواة: ٤/ ٨.

(٢) وفيات الأعيان: ٢/ ٣٣٩.

ينال الحظوة لدى الخلفاء والأمراء بين علماء عصره، فإذا به في مجلس الرشيد[1] ومن بعده في مجلس الخليفة المأمون ليكون مؤدباً لولدي الخليفة، وقيل: «لما تصدى أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء للاتصال بالمأمون كان يتردد إلى الباب، فلما كان ذات يوم بالباب جاء ثمامة بن الأشرس المتكلم المشهور قال: فرأيت صورة أديب وأبهة أدب، فجلست إليه وفاتشته عن اللغة فوجدته بحراً، وعن النحو فشاهدته نسيج وحده، وعن الفقه فوجدته فقيها عارفاً باختلاف القوم... فقلت له: من تكون؟ وما أظنك إلا الفراء، فقال: أنا هو، قال: فدخلت فأعلمت أمير المؤمنين بمكانته فاستحضره وكان سبب اتصاله به»[2].

«وقال أبو بريدة الوضاحي: أمر أمير المؤمنين المأمون الفراء أن يؤلف ما يجمع به أصول النحو وما سمع من العرب، فأمر أن تفرد له حجرة من حجر الدار، ووكل بها جواري وخدماً للقيام بما يحتاج إليه حتى لا يتعلق قلبه ولا تتشوف نفسه إلى شيء، حتى إنهم كانوا يؤذنونه بأوقات الصلاة، وصير له الوراقين وألزمه الأمناء والمنفقين، فكان الوراقون يكتبون حتى صنف كتاب الحدود، وأمر المأمون بكتبه في الخزائن»[3].

ثم جعل الخليفة المأمون الفراء مؤدباً لابنيه ومعلماً النحو لهما، «فلما كان يوماً أراد الفراء أن ينهض إلى بعض حوائجه فابتدرا إلى نعل الفراء يقدمانها له فتنازعا أيهما يقدمها، فاصطلحا على أن يقدم كل واحد منهما فردة فقدماها، وكان المأمون له على كل شيء صاحب خبر، فرفع ذلك الخبر إليه، فوجه إلى الفراء فاستدعاه، فلما دخل عليه قال: من أعز الناس؟ قال: ما أعرف أعز من أمير المؤمنين، قال: بلى، من إذا

---

(١) طبقات النحويين: ١٤٣، وشذرات الذهب: ٢/١٩.

(٢) معجم الأدباء: ٢٠/١١.

(٣) معجم الأدباء: ٢٠/١١.

نهض يقاتل على تقديم نعليه، وليا عهد المسلمين حتى رضي كل واحد منهما أن يقدم له فردة. قال: يا أمير المؤمنين لقد أردت منعهما عن ذلك ولكن خشيت أن أدفعهما عن مكرمة سبقا إليها أو أكسر نفوسهما عن شريفة حرصا عليها.

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه أمسك للحسن والحسين رضي الله عنهما ركابيهما حين خرجا من عنده، فقال له بعض من حضر: أتمسك لهذين الحدثين وأنت أسن منهما، فقال له: اسكت يا جاهل لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذوو الفضل. فقال له المأمون: لو منعتهما عن ذلك لأوجعتك لوماً وعتباً... وما وضع ما فعلاه من شرفهما، بل رفع من قدرهما، وبين عن جوهرهما... فليس يكبر الرجل، وإن كبر عن ثلاث: عن تواضعه لسلطانه، ووالده، ومعلم العلم، وقد عوضتهما بما فعلاه عشرين ألف دينار ولك عشرة آلاف درهم على حسن أدبك لهما»[1].

إن هذه الرواية تدل دلالة قاطعة على الشأو العظيم الذي بلغه الفراء، والمرتبة العلمية الرفيعة التي حظي بها فأنزلته منازل سموق يتطلع إليها الكثيرون ويتشوفون إليها، ويحلمون بها طمعاً في العز والشرف والتقدير.

كما روي كذلك، أن الفراء اتصل بالأمير عبد الله بن طاهر وألف له كتاب (البهي)[2].

ومما روي في أخلاق الفراء أنه: «كان متديناً ورعاً، على تيه وعجب وتعظم، وكان زائد العصبية على سيبويه... وكان أكثر مقامه ببغداد، فإذا كان آخر السنة أتى الكوفة فأقام بها أربعين يوماً يفرق في أهله ما جمعه، وكان شديد طلب المعاش، لا يأكل حتى يمسه الجوع، وجمع مالاً خلفه لابن له...»[3].

---

(١) وفيات الأعيان: ٢/ ٣٣٩، وشذرات الذهب: ٢/ ١٩.

(٢) معجم الأدباء: ٢٠/ ١٣.

(٣) بغية الوعاة: ٢/ ٣٣٣.

ويبدو أنه كان حاد المزاج، لا يملك نفسه أمام ما يراه مجافياً للحقيقة والصواب، ومن أقوى الأدلة على ذلك موقفه من أبي عبيدة معمر بن المثنى في كتابه **(مجاز القرآن)**، إذ روي عنه أنه قال لرجل: «لو حمل إليّ أبو عبيدة لضربته عشرين في كتاب المجاز»[1]. وكثيراً ما عنف أبا عبيدة في رده عليه في **(معاني القرآن)** كأن يقول مثلاً: «وقد قال بعض من لا يعرف العربية»[2]، قاصداً أبا عبيدة.

د – آثاره:[3]

قال ابن الجهم السمري: ما رأيت مع الفراء كتاباً قط إلا كتاب **(يافع ويفعة)**. وقال سلمة: أملى الفراء كتبه كلها حفظاً، لم يأخذ بيده نسخة إلا في كتابين: كتاب **(ملازم)** وكتاب **(يافع ويافعة)**. قال أبو بكر بن الأنباري: ومقدار الكتاب خمسون ورقة، ومقدار كتب الفراء نحو ثلاثة آلاف ورقة[4].

والكتب التي ذكرها المترجمون لأبي زكريا الفراء هي:

١ - كتاب اختلاف أهل الكوفة والبصرة والشام في المصاحف.

٢ - معاني القرآن.

٣ - البهي أو البهاء **(فيما تلحن فيه العامة)**.

٤ - المصادر في القرآن.

---

(١) تاريخ بغداد: ١٣/ ٢٥٥، ومعجم الأدباء: ١٩/ ١٥٩.

(٢) معاني القرآن: ١/ ٨، ومجاز القرآن: ١/ ٢٥.

(٣) انظر: تفصيل الحديث في آثار الفراء كتاب **(أبو زكريا الفراء ومذهبه في النحو واللغة)**: ١٦٩ – ٢٠٤.

(٤) انظر: الفهرست: ٩٩-١٠٠، ومعجم الأدباء: ٢٠/ ١٢-١٣-١٤، وشذرات الذهب: ٢/ ١٩، وبغية الوعاة: ٢/ ٣٣٣، وبروكلمان: ٢/ ٢٠٠ وتاريخ الأدب العربي لعمر فروخ: ٢/ ١٧٥-١٧٦.

٥ - لغات القرآن.

٦ - الوقف والابتداء.

٧ - الجمع والتثنيه في القرآن.

٨ - آلة الكتاب.

٩ - الفاخر (في الأمثال).

١٠ - النوادر.

١١ - فعل وأفعل.

١٢ - المقصور والممدود.

١٣ - المذكر والمؤنث.

١٤ - يافع ويافعة.

١٥ - ملازم.

١٦ - الحدود: وهذا الكتاب ستون حداً كما يذكر محمد بن الجهم السمري في قصيدة يمدح بها الفراء[١]، ولكن ابن النديم يعدد خمسة وأربعين حداً فقط[٢].

١٧ - مشكل اللغة الكبير.

١٨ - مشكل اللغة الصغير.

١٩ - الواو.

٢٠ - حروف المعجم (ذكره ابن رشيق في العمدة: ١ / ١٠٠)[٣]

٢١ - الأيام والليالي والشهور.

---

(١) تاريخ بغداد: ١٤ / ١٥٤.

(٢) الفهرست: ١٠٠.

(٣) بروكلمان: ٢ / ٢٠٠.

٢٢ - الهاء.

٢٣ - التصريف.

٢٤ - التحويل.

والكتابان الأخيران لم يذكرهما المترجمون ولكنهما وردا في شعر محمد بن الجهم السمري في مدح الفراء[١].

ومن سوء الحظ أن تصير معظم هذه المؤلفات في ضمير الغيب، فلا يبقى منها إلا كتب قليلة هي:

١ - معاني القرآن، وقد طبع عام ١٩٥٥م في ثلاثة أجزاء بتحقيق: محمد علي النجار، وأحمد يوسف نجاتي، و د. عبد الفتاح شلبي.

٢ - الأيام والليالي والشهور، وهو جزء واحد، طبع في القاهرة عام ١٩٥٦، بتحقيق: إبراهيم الأبياري.

٣ - المذكر والمؤنث: وقد نشره مصطفى الزرقا ضمن مجموعة لغوية في بيروت – حلب سنة ١٣٤٥ هـ.

٤ - المنقوص والممدود (المقصور والممدود)، وطبع في دار المعارف المصرية عام ١٩٦٧ م، بتحقيق: عبد العزيز الميمني الراجكوتي.

٥ - الفاخر (في الأمثال)، لم يطبع وهو في (فاتح ٤٠٠٩)[٢].

---

(١) تاريخ بغداد: ١٤/ ١٥٤.

(٢) انظر: بروكلمان: ٢/ ٢٠٠.

الفصل الثاني

محتوى الكتاب وتصنيفه

بين الدراسات القرآنية

لقد أجمعت روايات المترجمين على سبب تأليف الفراء لمعاني القرآن، ولعل أول من ذكر ذلك السبب الزبيدي ٣٧٩هـ في قوله: «قال: وقال أبو العباس: وكان السبب في إملاء الفراء كتابه في القرآن، وهو كتاب لم يُعمل قبله ولا بعده مثله، ولم يتهيأ لأحد من الناس جميعاً أن يزيد عليه شيئاً، أن عمر بن بكير وكان من أصحابه، وكان مع الحسن بن سهل، فكتب إليه: إن الأمير الحسن لا يزال يسألني عن أشياء من القرآن لا يحضرني جواب عنها، فإن رأيت أن تجمع لي أصولاً أو تجعل في ذلك كتاباً نرجع إليه فعلت.

فلما قرأ الكتاب قال لأصحابه: اجتمعوا حتى أمل عليكم كتاباً في القرآن، وجعل لهم يوماً، فلما حضروا خرج إليهم، وكان في المسجد رجل يؤذن فيه، وكان من القراء، فقال له: اقرأ، فبدأ بفاتحة الكتاب ففسرها، ثم مر في الكتاب كله على ذلك، يقرأ الرجل، ويفسر الفراء وكتابه في القرآن نحو من ألف ورقة»[1].

---

(١) انظر: طبقات النحويين واللغويين، ص: ١٤٥، وفهرست ابن النديم ص: ٩٨، ووفيات الأعيان: ٢/ ٣٣٩، وضحى الإسلام: ٢/ ١٤٠.

فسبب تأليف الفراء كتابه (معاني القرآن) إذاً هو عمر بن بكير - صاحب الفراء - الذي طلب منه أن يجمع له في كتابٍ ما يشكل من القرآن، ليفزع إليه وقت الحاجة. و«عمر بن بكير صاحب الحسن بن سهل.. كان نحوياً إخبارياً، راوية ناسباً، عمل له الفراء معاني القرآن وصنف كتاب الأيام في الغزوات»[1].

وقد وصلنا الكتاب عن طريق الرواية، كما جرى عليه العرف، بادئاً بقول أحد الرواة: «حدثنا أبو منصور نصر مولى أحمد بن رستة، قال: حدثنا أبو الفضل يعقوب بن يوسف بن معقل النيسابوري، سنة إحدى وسبعين ومائتين، قال: سمعت أبا عبد الله محمد بن الجهم بن هارون السمري[2]، سنة ثمان وستين ومائتين، قال: الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وبارك وسلم على محمد خاتم النبيين، وعلى آله، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، وإياه نسأل التوفيق والصواب، وحسن الثواب، والعصمة من الخطايا والزلل، في القول والعمل. قال: هذا كتاب فيه معاني القرآن، أملاه علينا أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء - يرحمه الله - عن حفظه من غير نسخة، في مجالسه أول النهار من أيام الثلاثاوات والجمع في شهر رمضان وما بعده من سنة اثنتين، وفي شهور سنة ثلاث وشهور من سنة أربع ومائتين قال[3]: حدثنا محمد بن الجهم، قال: حدثنا الفراء، قال...»[4].

ولا يُعرف راوي هذا الإسناد القائل: حدثنا، وهو من تلاميذ أبي منصور، فأما أبو منصور فلم نقف له على ترجمة. وفي تاج العروس تحدث عن مولاه فقال: «أبو حامد أحمد بن محمد بن رستة الصوفي الأصبهاني، يعرف بالحمال، روى عنه

---

(١) انظر: بغية الوعاة، ص: ٣٦٠، والفهرست، ص: ١٥٦.

(٢) السمرى: نسبة إلى (سمر) بكسر أوله وتشديد ثانيه وفتحه، بلد بين واسط والبصرة.

(٣) القائل هو الراوي عن محمد بن الجهم، وهو أبو الفضل يعقوب بن يوسف.

(٤) معاني القرآن: ١/ ١.

أبو بكر بن مردويه». وأبو الفضل يعقوب بن يوسف بن معقل ذكره الخطيب في تاريخ بغداد[1]، وقال فيه: ورد بغداد وحدّث بها عن إسحاق بن راهويه[2].

وأما راوي المعاني الأول فهو أبو عبد الله محمد بن الجهم بن هارون السمري الكاتب، وقد ولد السمري في حدود سنة ١٨٨ هـ وكانت وفاته سنة ٢٧٧هـ وله تسع وثمانون سنة... وقد أخذ عن الفراء وهو لا يزال حدثاً، فقد مات الفراء وله تسع عشرة سنة، إذ كانت وفاة الفراء سنة ٢٠٧ هـ[3].

وقد أغنانا السمري هذا - كما يقول الدكتور أحمد مكي الأنصاري[4] - عن عناء البحث طويلاً عن تاريخ تأليف الفراء لمعاني القرآن حينما حدده في صدر الكتاب تحديداً دقيقاً كما رأينا.

وعلى هذا يكون الفراء قد أملى كتاب المعاني في يومي الثلاثاء والجمعة من كل أسبوع ما بين (٢٠٢-٢٠٤ هـ) قبل أن يرد المأمون بغداد من خراسان - ذلك أنه دخل بغداد سنة ٢٠٤ هـ - وإذا كان الفراء ألّف كتاب (الحدود) والمأمون في بغداد، فإن تأليف (المعاني) سابق لتأليف الحدود[5]، وبذا فإن المعاني لا يكون آخر آثار الرجل، وإن كان يمثل نضجه الفكري وعصارة آرائه الكوفية في النحو واللغة، بل مجمل المذهب الكوفي.

---

(١) معاني القرآن: ١٤/ ٢٨٦.

(٢) مقدمة معاني القرآن، ص: ١٥ للأستاذين المحققين محمد علي النجار، وأحمد يوسف نجاتي.

(٣) مقدمة المعاني ص: ١٤ - ١٥، وينظر: معجم الشعراء (للمرزباني) ص: ٤٥٠، وتاريخ بغداد: ١٤/ ١٥٤، ففيهما أبيات للسمَّري يمدح بها الفراء.

(٤) أبو زكريا الفراء ومذهبه في النحو واللغة، ص: ٢٧٠.

(٥) مقدمة المعاني، ص: ١٤

وقد وهم الدكتور عمر فروخ عندما زعم أن الفراء قد أملى كتاب المعاني بعد كتاب الحدود، وكيف تسنى له ذلك وهو الذي قال: «كتاب الحدود ألفه بأمر المأمون وجمع فيه اصول النحو... وانتهى في إملائه على الوراقين في سنتين، وكان المأمون قد أمر بأن تفرد للفراء حجرة في القصر يكون فيها كل ما يحتاج إليه حتى لا تتعلق نفسه بغير تأليف هذا الكتاب»[1].

والثابت أن المأمون دخل بغداد سنة ٢٠٤ هـ[2]، وأن الفراء توفي سنة ٢٠٧ هـ ، فإذا كان كل من المعاني والحدود قد استغرق سنتين منذ دخول المأمون بغداد يكون الفراء قد مات قبل إنهائهما، أو قبل إنهاء المعاني - على هذا الافتراض - وروايته التي بين أيدينا كاملة قطعاً، وبما لا يدع أي مجال للشك.

إن هذا الوهم – كما أرجح – أتاه من رواية غير دقيقة تفرد بها الخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد)، إذ جاء في كلامه عن الحدود: «فبعد أن فرغ من ذلك –أي الحدود –خرج إلى الناس وابتدأ يملي كتاب المعاني»[3].

وأما قول المترجمين إن الفراء، بعد أن طلب منه عمر بن بكير تأليف كتاب في القرآن، أمر على الفور رجلاً يؤذن بقراءة فاتحة الكتاب ثم شرع يفسر[4] حتى أتى على ما أشكل من القرآن في أيام الجمع والثلاثاوات على مدى سنتين تقريباً من غير أن يشهده أحد يحمل نسخة في يده أو يثبت سوداء في بيضاء[5] فقول يدل على أن أبا

---

(١) تاريخ الأدب العربي: ٢/ ١٧٥-١٧٦.
(٢) ينظر: تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص: ٢٠٤.
(٣) تاريخ بغداد: ١٤/ ١٥٠.
(٤) انظر: طبقات النحويين واللغويين: ١٤٥، والفهرست: ٩٨، ووفيات الأعيان: ٢/ ٣٣٩، وضحى الإسلام: ٢/ ١٤٠.
(٥) إنباه الرواة: ٤/ ١٤.

زكريا صاحب ذاكرة قوية وفكر حصيف من جهة، كما يدل من جهة أخرى على أن المعلومات التي أملاها والمسائل النحوية واللغوية، ووجوه القراءات التي وجهها لم تهبط عليه فجأة لو لم يكن في ذهنه تصور سابق لهذا المشروع، وإن كان عمر بن بكير السبب المباشر في إبراز ذلك المشروع إلى حيز الوجود، ويثبت لنا هذا إذا عرفنا أن الفراء لم يكن أول من ألف كتاباً في معاني القرآن، وإنما سبقه إلى ذلك غير واحد من علماء العربية، وسوف أبين هذا الأمر في حينه.

وقد ضمن الفراء كتاب المعاني، في الدرجة الأولى، مسائل نحوية ولغوية مشكلة في القرآن الكريم، ووجوه قراءات مختلفة لكثير من مفردات آي الذكر الحكيم، يتبعها في الأهمية تفسير لمعاني بعض الآيات، مع ذكر أسباب النزول والناسخ والمنسوخ وما يتصل بالفقه في بعض الأحيان، مروراً ببعض القضايا البلاغية إيضاحاً للمعنى، على أن هذه القضايا البلاغية التي وقف عليها الفراء وإن لم تصل إلى ما وصلت إليه عند الجاحظ، أو عبد القاهر الجرجاني، فقد كانت خطوة متقدمة عمّا كانت عليه عند معاصريه أو متقدميه على أية حال... وليس هذا موضع الحديث عن البلاغة عند الفراء، وما يعنيني بيانه أن معاني القرآن كتاب نحو ولغة وبلاغة وقراءة وتفسير.

ثم هو بعد هذا وذاك أكبر كتاب وصل إلينا من الفراء، وقد أودعه جميع معارفه فكان أشبه ما يكون بدائرة معارف الرجل[1].

«والدارسون الأولون، وإن كانوا يميزون بين موضوعات الدراسات المختلفة، لغوية وغير لغوية، إلا أنهم لم يكونوا يميزون بين موضوعات الدراسات اللغوية، التي اختلطت عندهم في الدراسات النحوية الخالصة... وهي دراسة

(١) أبو زكريا الفراء ومذهبه في النحو واللغة: ٢٧٨.

النحو بمعناه الخاص، فنحو الكوفة إذاً مجموعة من البحوث اختلطت فيها الدراسات المختلفة، كما اختلطت في كتاب معاني القرآن للفراء»[1].

هذا.. «ولو رجعنا إلى ما وصل إلينا من مصنفات الكوفيين لوجدناها أبعد ما تكون عن الخلوص للنحو بمعناه الاصطلاحي، ففيها روايات في القراءات، ومعاني القرآن، ونوادر أدبية، وغرائب ألفاظ، وأقوال نحوية منثورة لا يربط موضوعاتها رابط، وخير مثال لهذا كتاب معاني القرآن للفراء»[2].

وقد بدأ الفراء كتابه بسورة الفاتحة... ثم البقرة... فالنساء وهكذا حتى آخر سورة في القرآن، شارحاً ومفسراً ما أشكل من الألفاظ وهو «يقف كلما استدعاه الأمر للوقوف لقراءة يصححها أو ينفيها أو يضعفها، ثم يفسرها تفسيراً نحوياً، ويوجه ما يحتاج منها إلى التوجيه النحوي واللغوي، ويأتي بالأمثلة والشواهد، ثم يدرج المسألة تحت قاعدة عامة»[3].

وأما ما ذكره الدكتور محمد زغلول سلام من أن الفراء: «يتعرض لآيات كل سورة آية آية بالترتيب»[4] فكلام مخالف للحقيقة، لأن الفراء كثيراً ما قدم آية على آية ضمن السورة الواحدة، كما تجاوز أيضاً كثيراً من الآيات التي لم ير فيها إشكالاً، وسوف أوضح هذا عند الحديث عن منهج المؤلف في المعاني، وطريقته في عرض الكتاب.

---

(١) مدرسة الكوفة: ١٦٤.

(٢) المصدر السابق: ١٦٣.

(٣) أثر القرآن في تطور النقد العربي، د. محمد زغلول سلام ص:٤٩.

(٤) المصدر السابق: ٤٩.

ولعل من نافلة القول أن أُذكِّر بأن لوناً من ألوان التراث العربي لم يحظ بالعناية والدراسة والشرح والتمحيص مثل ما حظي به القرآن الكريم خاصة، والعلوم الشرعية عامة، منذ نزل القرآن على النبي الكريم ليكون مفسره الأول إلى الصحابة والتابعين والعلماء والدارسين في أصقاع متنوعة من عالم واسع عريض امتد من الصين والهند في أقصى المشرق، إلى مراكش والأندلس في أقصى المغرب، وحتى عصرنا هذا الذي ظهرت فيه – ولا تزال – دراسات وشروح وتفاسير مختلفة.

والناظر إلى المكتبة القرآنية يدرك مدى غناها بكتب التفسير، كما يلحظ ألواناً شتى من التفاسير، وذلك بسبب العصبيات المذهبية والسياسية والفكرية التي ينتمي إليها المفسرون، فكان ما يسمى بـ **(التفسير بالمأثور)** أو التفسير النقلي الذي اعتمد فيه أصحابه على ما ورد في القرآن وما جاء في الحديث الشريف وأثر عن الصحابة والتابعين من تفسير للآيات. ثم **(التفسير بالرأي)** أو التفسير العقلي الذي اتخذ من الرأي أو العقل والتفكير الحر والاجتهاد طريقاً له في الكشف عن غامض التنزيل.

«وقد بدأ المعتزلة بدراسة القرآن دراسة بيانية، وقد مثل هذه الدراسة كتاب **(نظم القرآن)** للجاحظ، ولكن أهل السنة لم يتركوا المجال للمعتزلة وحدهم، بل شاركوا بجهودهم في التفسير، فبرز في الميدان كتاب **(مشكل القرآن)** لابن قتيبة»[1].

---

(٢) أثر القرآن في تطور النقد العربي: ٣٦.

«ويقرب من تفاسير المتصوفة ما يسمى بالتفسير الإشاري، وهو الذي تؤوّل به الآيات على غير ظاهرها مع محاولة الجمع بين الظاهر والخفي»[1].

إلا أن من كُتب التفسير ما أظهر عناية خاصة في جانب من جوانب القرآن، كالتوجيه الإعرابي أو البلاغي أو النظر في مفردات القرآن أو مجازه، أو في أقسامه أو نظمه، وأذكر من ذلك على سبيل المثال كتاب (مجاز القرآن) لأبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي (ت٢١٠ هـ) وكتب (معاني القرآن) للأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة (ت ٢١٥ هـ) والفراء (ت ٢٠٧ هـ) والزجاج (ت ٣١٠ هـ) وأبي جعفر النحاس (ت٣٣٧هـ) وكتاب (أحكام القرآن) لأبي بكر الجصاص (ت٣٧٠ هـ)، و(إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم) لابن خالويه (ت ٣٧٠ هـ) و(إعجاز القرآن) للقاضي الباقلاني (ت ٤٠٣ هـ) و(دلائل الإعجاز) للإمام عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧هـ) وكتاب (مفردات القرآن) للراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ) وكتاب أبي البقاء العكبري (ت ٦١٦ هـ) في (وجوه الإعراب والقراءات)... الخ.

ولعل من دواعي كثرة الدراسات والتفاسير القرآنية أن هذا الكتاب العظيم قد بهر أرباب الفصاحة والبيان، وجعلهم عاجزين عن مجاراته بَلْهَ الإتيانَ بآية من آياته، مما دفع علماء العربية إلى البحث عن أسباب اعجازه من جهة، واستنباط قواعد العربية النحوية واللغوية من خلال القراءات التي لم تعْدُ أن تكون وجوهاً صحيحة فصيحة لكلام العرب ولهجاتهم من جهة أخرى، فظهرت عن ذلك التفاسير اللغوية التي يلجأ فيها المفسر إلى اللغة، يستعين بها في تطبيق المنهاج الذي ارتضاه لنفسه والمذهب الذي إليه يميل، بيد أن الاعتماد على اللغة يختلف مقداره من مفسر إلى آخر، فمنهم من جعل كل اعتماده أو جلّه على اللغة، فقدموا إلينا كتب (معاني القرآن) أو التفاسير اللغوية التي تدخل في صميم هذه الدراسة.

---

(١) المصدر السابق: ٢٩٦.

وقد يبدو أن ما قدمته من ألوان التفاسير في هذا الفصل فضلة لا علاقة له بالبحث، ولكنني رأيت ذكره ضرورة لمعرفة اللون الذي تنتمي إليه كتب (معاني القرآن) عامة، والصنف الذي يصنف فيه كتاب الفراء خاصة، وما يقال فيه أنه تفسير لغوي للقرآن جمع بين المنقول والمعقول سواء في وجوه النحو واللغة أو في تفسير معاني الآيات، فهو ليس تفسيراً عقلياً صرفاً ولا نقلياً بحتاً وإنما هو مزيج من كلا اللونين، ولهذا الأمر أسبابه التي سأقف عليها وأجلوها في موضعها.

ولا يفوتني أن أشير هنا إلى أن الحركة اللغوية عامة والنحوية خاصة بدأت، أول ما بدأت، بدافع من الحرص على حفظ ألسن العرب من اللحن، وتعليم الأعاجم الذين دخلوا الإسلام أفواجاً، حسن قراءة القرآن، وكان القائمون على ذلك من قراء القرآن والمقرئين الذين «ورثوا طائفة من وجوه القراءات هي سابقة ولا شك على الاشتغال باللغة والنحو، فمن الطبيعي، والحالة هذه، أن يورثوها بدورهم تلاميذهم وأن يحاول هؤلاء التلاميذ مع الزمن تأويلها وتعليلها حين بدأت تتكون مقومات البحث المنهجي العلمي»[1].

ومن ذلك فإن الملاحظات التي تنبه إليها القراء من تعدد وجوه القراءات إنما شكلت نواة علم النحو... وهي على ما فيها من تأويلات وتخريجات «ليست من نوع التأويلات المنطقية التي امتلأت بها بطون كتب النحو المتأخرة، وإنما كانت ترتدي طابع البساطة»[2].

ولئلا أشعب القول وأظل في التعميم، نلقي المرساة في أواخر القرن الثاني الهجري فنرى أن «أول ما يطالعنا من دراسات القرآن الدراسات اللغوية

---

(١) أثر القراءات القرآنية في تطور الدرس النحوي د. عفيف دمشقية ص: ٤٥.

(٢) أثر القراءات القرآنية في تطور الدرس النحوي د. عفيف دمشقية ص:٤٦.

والنحوية لأسلوب القرآن، أما اللغوية فيضطلع بها أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢١٠هـ) في كتابه (مجاز القرآن)، وأما النحوية فيضطلع بها أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت ٢٠٧ هـ) في كتابه (معاني القرآن)»[١].

ولعله من المفيد أن أذكِّر هنا بأن كتاب المعاني الذي تدور عليه هذه الدراسة ليس الوحيد الذي أملاه الفراء متصلاً بالدراسات القرآنية، فقد ألف أيضاً في هذا الموضوع كتباً أخرى كالمصادر في القرآن، والجمع والتثنية في القرآن، واختلاف أهل الكوفة والبصرة والشام في المصاحف [٢]...«ولعل من الأسباب التي دعت إلى اشتغال الفراء بهذه الدراسات القرآنية أنه كان مولى لبني أسد من أهل الكوفة، وبنو أسد وأهل الكوفة لهم سبق مذكور في القراءة والإقراء...»[٣].

على أن الفراء لم يكن له فضل السبق في تأليف كتاب المعاني، كما لم يكن نسيج وحده في هذا الميدان، لأن كتباً كثيرة تحمل عنوان (معاني القرآن) قد أُلفت قبله وبعده، فمما ذكره صاحب كشف الظنون أن: «معاني القرآن لجماعة منهم: محمد بن المستنير المعروف بقطرب النحوي (ت ٢٠٦ هـ)، وأبو جعفر أحمد بن محمد النحاس (ت ٣٢٨هـ)، وأبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ)، وأبو العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب (ت ٢٩١ هـ)، ولابن الخياط أبي عبد الله محمد بن أحمد النحوي (٣٢٠ هـ)، ولمحمد بن حسن الرؤاسي (ت ١٨٧ هـ)، ولأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت ٢٠٧ هـ) ولأبي عبيدة معمر بن المثنى اللغوي (ت ٢١٠ هـ)، ولأبي الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش البلخي (ت ٢٢١ هـ)، ولابن درستويه عبد الله بن جعفر النحوي (٣٤٧ هـ)، ولابن كيسان محمد بن أحمد النحوي (ت ٢٩٩ هـ)، ولأبي محمد

---

(١) أثر القرآن في تطور النقد العربي، ص: ٣٦.

(٢) ينظر (آثاره) في هذا الكتاب.

(٣) أبو علي الفارسي، ص: ٢٥٧.

سلمة بن عاصم النحوي (ت٣١٠ هـ)، ولأبي الحسن عبد الله بن محمد النحوي (ت ٣٢٥ هـ)، ولأبي اسحق ابراهيم السري المعروف بالزجاج (ت ٣١١ هـ)، ولأبي الحسن علي بن حمزة الكسائي (ت ١٨٩ هـ)»[١].

إلا أن أقدم من ذكرته كُتب التراجم من أصحاب (معاني القرآن) هو المعتزلي واصل بن عطاء (ت ١٣١ هـ) كما في فهرست ابن النديم[٢]، فيكون ابن درستويه عبد الله بن جعفر النحوي (ت ٣٤٧ هـ) آخر من ألف بهذا العنوان حسب رواية صاحب كشف الظنون.

وبـذا يكون العلماء قد توارثوا هذه التسمية (معاني القرآن) ما ينوف على القرنين من الزمان، وهم يطلقونها على «ما يشكل من القرآن ويحتاج إلى معالجة أسوة بما كان يدور في معاني الشعر»[٣].

بيد أن هذه الكتب لا تزال في صدر الغيب، وإنما ذكرتها استكمالاً للصورة وما بقي منها - فيما أعلم - كتاب الفراء[٤] وهو أهمها، وكتاب الأخفش الأوسط أبي الحسن سعيد بن مسعدة[٥]، وكتاب الزجاج[٦]، وكتاب أبي جعفر النحاس[٧]... فضلاً

---

(١) كشف الظنون: ٢/ ١٧٣٠، وينظر ذلك ايضاً في طبقات النحويين واللغويين، ص: ١٦، والفهرست: ٢٥١، وانباه الرواة: ٣/ ١٤-١٥.

(٢) ص: ٢٥١.

(٣) أبو زكريا الفراء ومذهبه في النحو واللغة: ٢٦٨.

(٤) مطبوع في ثلاثة أجزاء من القطع الكبير بتحقيق محمد علي النجار، وأحمد يوسف نجاتي، و د. عبد الفتاح شلبي.

(٥) مطبوع في جزأين، بتحقيق د. فائز فارس.

(٦) مطبوع بتحقيق عبد الجليل شلبي. عالم الكتب – القاهرة ١٩٨٨.

(٧) مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٣٨٥ تفسير. وحققه محمد علي الصابوني – جامعة أم القرى ١٩٨٨.

عن كتاب مجاز القرآن[1] لأبي عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة (٢١٠هـ) الذي يندرج فيما ألف في معاني القرآن، وإن اختلف عن هذه الكتب في التسمية وتفرد بها.. وهو أول كتاب وصل إلينا بعنوان (مجاز القرآن)، تلته كتب معاني القرآن للأخفش الأوسط (٢١٥ هـ) فالفراء (٢٠٧ هـ) فأبي اسحاق إبراهيم بن السري الزجاج (ت ٣١٠هـ) فتلميذ هذا الأخير أبي جعفر النحاس (٣٣٧هـ).

ولكن كتاب الفراء أهم الكتب المتصلة بالدراسات القرآنية ليس بين مؤلفات أبي زكريا الفراء وحسب، بل بين كتب المعاني جميعاً، وذلك يعود إلى «أن كتاب المعاني أملي على الناس والفراء يدرج نحو الستين، اي بعد استقراره الذهني والمذهبي، ولهذا الاستنتاج أهميته في تقويم الآراء التي صدرت عنه ما كان منها متصلاً باتجاهاته اللغوية والنحوية، وما كان متصلاً بالبحوث القرآنية»[2]، يضاف إلى ذلك أن «معاني القرآن كتاب للفراء يكشف عن مذاهب القراء الكوفيين في الاحتجاج في تلك الحقبة التي سبقت عصر ابن مجاهد أولاً، إلى جانب ما يكشف عنه ثانياً من خصائص نحاتهم، والسمات العامة لمنهجهم»[3].

وفيما يلي سأقف عند ما وصلنا من كتب معاني القرآن لنتعرف إليها، ومن ثم لنعرف منزلة كتاب معاني الفراء فيما بينها.

---

(١) مطبوع في جزأين من القطع المتوسط بتحقيق الدكتور محمد فؤاد سزكين.

(٢) أبو علي الفارسي: ٢٥٨.

(٣) أبو علي الفارسي: ٢٥٨.

الفصل الثالث

ما ألف في معاني القرآن قبل معاني الفراء

من الثابت أن الاهتمام بتفسير المشكل من القرآن قد بدأ منذ عهد الصحابة والتابعين، وأن مجاهداً (ت ١٠٤هـ) كان يسأل ابن عباس عن التفسير ومعه ألواحه، وكان يكتب ما يقول له، حتى سأله عن التفسير كله، ولهذا قال مجاهد: «عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات، من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية منه، وأسأله عنها»[١].

كما حدّث معمر بن المثنى قال: «حدثنا سليمان بن داوود عن شعبة، عن عبد الملك بن ميسرة، قال: لم يلق الضحاكُ ابنَ عباس، وإنما لقي سعيد بن جبير بالري، وأخذ عنه التفسير»[٢].

ولابن جريج (ت ١٥٠هـ) ثلاثة أجزاء كبار في التفسير[٣]، وقد نقل عن عكرمة مولى ابن عباس قوله: «لقد فسرت ما بين اللوحين»[٤]. وعرف

---

(١) الطبري: ١/ ٤٠.

(٢) المصدر السابق: ١/ ٤٠ ط٢ -١٩٥٤.

(٣) الإتقان في علوم القرآن: ٢/ ١٨٨.

(٤) المصدر السابق: ٢/ ١٨٩.

مفسرون كثيرون كالحسن البصري، وعطاء بن أبي رباح، وعطاء بن أبي سلمة الخراساني، ومحمد بن كعب القرظي، وغالب أقوالهم تلقوها عن الصحابة [1].

وقد ضاع أكثر هذه التفاسير ولكن (عندنا الآن بعض التفاسير التي ترجع إلى القرن الأول الهجري، ولكنها غير معروفة للباحثين المعاصرين في تفسير القرآن. وهذه التفاسير دليل واضح على حقيقة أن الأسانيد المكررة في الكتب المتأخرة علامة على أن كل بقيـة تظهر في هذه التفاسير ترجع إلى مصدر معين مستخدم بالفعل. ولقد وصلنا من هذه الفترة تفسير (مجاهد)، و (الناسخ والمنسوخ) لقتادة (ت ١١٨هـ)، وتفسير عطاء الخراساني (ت ١٣٣ هـ)[2].

ومن التفاسير التي بقيت منها أجزاء قليلة، وأُخذت مباشرة عن التفاسير القديمة التي ترجع إلى النصف الأول من القرن الثاني الهجري، تفسير محمد بن السائب الكلبي، وتفسير معمر عبد الرازق، وتفسير سفيان الثوري، وتفسير مقاتل بن سليمان المعنون بـ(الأشباه والنظائر)[3].

وهذه التفاسير التي بقيت لن أتعرض لها، لأنها لا تمت بصلة إلى هذا البحث الذي يدور حول ما أُلف من كتب في (معاني القرآن) التي تنحو منحى نحوياً ولغوياً وبلاغياً في التفسير.

---

(١) المصدر السابق: ٢/١٨٩ – ١٩٠.

(٢) تاريخ التراث العربي، د. محمد فؤاد سزكين: ١٧٣ – ١٧٤.

(٣) المصـدر السـابق: ١٧٥، وينظـر: تاريخ القـرآن والتفسير، د. عبد الله محمود شحاته ص: ٩٨.

والكتاب الأول الذي يظهر في هذا المجال ويستأهل الحديث، هو كتاب مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى[1] المتوفى سنة ٢١٠هـ.

- **أولاً – مجاز القرآن:**

وهنا لابد من الإشارة، قبل الحديث عن هذا الكتاب، إلى أنه ينضوي تحت ما أُلف من كتب في **(معاني القرآن)** وإن اختلف عنها في التسمية، لأنه ينطلق – كما انطلقت هذه الكتب – في غاية واحدة هي الرجوع إلى أساليب العربية المستعملة، ومعرفة الطرق التي تسلكها في التعبير، ومن ثم فهم آي التنزيل التي نزلت على طريقة العرب.

«وإذا كان كتاب الفراء **(معاني القرآن)** يمثل المذهب الكوفي النحوي واللغوي فإن **(مجاز القرآن)** لا يكاد يمثل مذهباً سوى الرأي المتحرر من القيود التي كانت المدرستان البصرية والكوفية، تضعانها لفهم النصوص»[2]، على أن صاحبه يعد من علماء البصرة.

وإذا كان الكتاب قد وجدت فيه بعض آثار البحث البلاغي فإن الطابع اللغوي يكاد يطغى عليه، حتى يوشك أن يكون كتاب لغة قبل أن يكون كتاب تفسير.

---

(١) أبو عبيدة هو معمر بن المثنى التيمي، تيم قريش، وهو مولى لهم. وقد ذكر أن أباه كان يهودياً بباجُروان، وكان من أعلم الناس بأنساب العرب وبأيامهم كما كان عالماً بالشعر والغريب والأخبار، ويقال إنه مات سنة ٢٠٨ هـ، وقيل سنة ٢٠٩ هـ أو ٢١٠ هـ. أخذ في شبيبته عن أبي عمرو بن العلاء، ويونس بن حبيب. وقيل إن أبا عبيدة كتب ما يربي على مائتي مؤلف. انظر ترجمته في: أخبار النحويين البصريين: ٥٢-٥٥، وطبقات النحويين واللغويين: ٩٧، ونزهة الألباء: ١٣٧ – ١٥٠، وشذرات الذهب: ٢/٢٤ وضحى الإسلام: ٢/٣٠٤-٣٠٥، وبروكلمان: ٢/١٤٢-١٤٣.

(١) مقدمة مجاز القرآن لمحققه د. محمد فؤاد سزكين، ص: ١٩.

«ويُعَدُّ معاني القرآن للفراء دراسة مكملة –من الناحية اللغوية –لكتاب مجاز القرآن، لأنه يبحث في التراكيب والإعراب، والمجاز يبحث في الغريب والمجاز، وكلتا الدراستين متعلقتان بالأسلوب، واختلفت دراسة الفراء هنا عن دراسة أبي عبيدة، وكان لهذا الخلاف أسبابه»[1]. ولكن ما الدافع الذي جعل أبا عبيدة يؤلف كتاب المجاز ويطلق عليه هذا الاسم؟ وفي أي وقت كان ذلك؟.

لقد ذكرت كتب التراجم سبب التأليف وزمنه من غير تحديد دقيق للسنة التي تم فيها ذلك، سوى ياقوت الحموي الذي حدد زمن تأليفه بسنة ١٨٨ هـ قائلاً: «... قال أبو عبيدة: أرسل إليّ الفضل بن الربيع إلى البصرة في الخروج إليه سنة ١٨٨ هـ، فقدمت إلى بغداد واستأذنت عليه فأذن لي، ودخلت وهو في مجلس له، طويل عريض في بساط واحد قد ملأه، وفي صدره فرش عالية لا يرتقى إليها إلا على كرسي وهو جالس عليه... ثم دخل رجل في زي الكتَّاب، له هيئة، فأجلسه إلى جانبي، وقال له: أتعرف هذا؟ قال: لا. قال: هذا أبو عبيدة علاّمة أهل البصرة، أقدمناه لنستفيد من علمه، فدعا له الرجل وقرَّظه لفعله هذا. قال لي: إني كنت إليك مشتاقاً وقد سئلت عن مسألة، أفتأذن لي أن أعرِّفك إياها؟ قلت هات. قال: قال الله تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾[2]، وإنما يقع الوعد والإيعاد بما قد عرف مثله، وهذا لم يعرف. فقلت: إنما كلم الله العرب على قدر كلامهم، أما سمعت قول امرئ القيس:

أيقتلني والمشرَفِيُّ مُضاجِعي ومسنونةٍ زُرْقٍ كأنياب أغوال

---

(١) أثر القرآن في تطور النقد العربي، ص: ٤٨.

(٢) سورة الصافات: ٦٥

وهم لم يروا الغول قط، ولكنه لما كان أمر الغول يهولهم أُوعِدوا به، فاستحسن الفضل ذلك، واستحسنه السائل، واعتقدت من ذلك اليوم أن أضع كتاباً في القرآن لمثل هذا وأشباهه، ولما يحتاج إليه من علم. فلما رجعت إلى البصرة عملت كتابي الذي سميته المجاز، وسألت عن الرجل فقيل لي: هو من كُتَّاب الوزير وجلسائه، يقال له ابراهيم بن إسماعيل بن داوود الكاتب»[1].

وهذا الذي حكاه أبو عبيدة يلفتنا إلى أمور نرى من الفائدة ذكرها وهي التالية:

١ – إن أبا عبيدة ألف كتاب المجاز سنة ١٨٨هـ وهذا يعني أنه سابق لكتاب الفراء الذي تقدم أنه ألف ما بين (٢٠٢ - ٢٠٤هـ).

٢ – إن الدافع لتأليفه هو سؤال إبراهيم بن إسماعيل بن داوود أحد كتاب الوزير الفضل بن الربيع، ولم يكن هذا الكاتب ممن عرفوا بالفصاحة والحذق وسعة الاطلاع على العربية ومذاهبها من أفواه أصحابها الذين ارتحل إليهم علماء العربية، فدرسوا اللغة عليهم في مواطنها، وإنما كان ممن تعلم العربية تعلماً مدرسياً كما كانت تُعلّم في المدن، فعرف القواعد الدقيقة التي تنسرب اللغة فيها، من غير أن يدرك الأوجه المختلفة التي تستعمل فيها مفردات العربية التي تتمرد على كل القواعد الصارمة التي يجب أن تخضع لأحوال استعمال المفردات لا أن تخضع هذه المفردات لتلك القواعد[2] التي كانت تدرس في مجالس النحاة واللغويين.

---

(١) معجم الأدباء: ٧/١٦٦، وانظر: طبقات النحويين واللغويين، ص: ٩٧، وتاريخ بغداد: ١٣/٢٥٤، وبغية الوعاة، ص: ٣٩٥، وضحى الإسلام: ٢/٣٠٤-٣٠٥، وبروكلمان: ٢/١٤٣.

(٢) انظر: الاتجاه العقلي في التفسير، د. نصر حامد أبو زيد، ص: ١٠٠–١٠١.

«وغني عن البيان أن أي قاعدة نحوية أو لغوية تضيق دائماً عن إمكانات الواقع الحي للغة وثرائه، ويظل من يتعلم اللغة ولفترة طويلة جداً في حدود القواعد والحدود، دون أن يتجاوز ذلك إلى رحابة الأساليب الفنية للغة»[1].

«فالفكرة التي تراود أبا عبيدة وهو يؤلف كتابه كانت فكرة مدرسية، يحاول أن يضع أمام طبقة المستعربين صوراً من التعبير في القرآن، وما يقابله من التعبير في الأدب العربي شعراً ونثراً ويبين ما فيها من التجاوز أو الانتقال من المعنى القريب أوالتركيب المعهود للألفاظ والعبارات إلى معان وتراكيب أخرى اقتضاها الكلام... والمجازة الطريق، والمادة ومشتقاتها تعني الانتقال بوجه عام، ومنه التجوز في الشيء، الترخص فيه»[2].

وفي كتاب المجاز هذا «يتكلم في معاني القرآن، ويفسر غريبه، وفي أثناء هذا يعرض لإعرابه، ويشرح أوجه تعبيره، وذلك ما عبّر عنه أبو عبيدة بمجاز القرآن... ومهما كان الأمر فإن أبا عبيدة يستعمل في تفسيره للآيات هذه الكلمات: مجازه كذا – تفسيره كذا – معناه كذا – غريبه – تقديره – تأويله، على أن معانيها واحدة أو تكاد، ومعنى هذا أن كلمة (المجاز) عنده عبارة عن الطرق التي يسلكها القرآن في تعبيراته، وهذا المعنى أعم بطبيعة الحال من المعنى الذي حدده علماء البلاغة لكلمة (المجاز) فيما بعد»[3].

ولكن عنوان الكتاب وإكثار أبي عبيدة من كلمة المجاز فيه قد أوهم بعض الباحثين وأوقعهم في اللبس حين فهموا من المجاز، المجاز البلاغي الذي يقابل

---

(١) المصدر السابق: ١٠١

(٢) أثر القرآن في تطور النقد العربي، ص: ٤٣ – ٤٤.

(٣) مقدمة المجاز، ص: ١٨ - ١٩

الحقيقة، ومن هؤلاء «المرحوم الأستاذ عبد العزيز البشري، فقد ذهب إلى أن كتاب (مجاز القرآن) لأبي عبيدة يدور حول بيان الحقيقة من المجاز في القرآن.

وردّ الأستاذ أمين الخولي على الأستاذ البشري هذا الظن، وبيّن أن الحق الذي قاله القدماء من أن هذا الكتاب في تفسير القرآن. كما أن الدكتور حفني شرف وقع في هذه الشبهة، ولم يتنبه إلى أن المجاز ليس هو ما يقابل الحقيقة[1].

ولعل الأخذ بمعنى الكلمة المعجمي هو الذي أدى إلى ذلك، إذ جاء في القاموس: « جاز الموضع جوزاً، ومجازاً، سار فيه وخلفه، والمجاز الطريق إذا قطع من أحد جانبيه إلى الآخر، وخلاف الحقيقة»[2].

ومنذ الصفحة الأولى وما تلاها وضّح لنا أبو عبيدة مراده من المجاز، حيث شرح معنى كلمة قرآن ولماذا سمي القرآن بهذا الاسم فقال: «القرآن: اسم كتاب الله خاصة، ولا يسمى به شيء من سائر الكتب غيره، وإنما سمي قرآنا لأنه يجمع السور فيضمها، وتفسير ذلك في آية من القرآن، قال الله جل ثناؤه: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾[3]، مجازه: تأليف بعضه إلى بعض، ثم قال: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾[4]، مجازه: فإذا ألقينا منه شيئاً فضممناه إليك فخذ به واعمل به وضمه إليك، وقال عمرو بن كلثوم في هذا المعنى:

ذراعَيْ حُرَّةٍ أدماءَ بكرٍ هِجانِ اللونِ لم تقْرأ جَنِينا

---

(١) القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية، ص: ٢٤٥.

(٢) القاموس المحيط. مادة: جاز.

(٣) سورة القيامة: ١٧.

(٤) سورة القيامة: ١٨.

أي لم تضم في رحمها ولداً قط. وفي آية أخرى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾[1].

مجازه: إذا تلوت بعضه في إثر بعض، حتى يجتمع وينضم بعضه إلى بعض، ومعناه يصير إلى معنى التأليف والجمع»[2]. ثم يأتي على معنى الفرقان ومجاز السورة فالآية[3] مما يتصل بمعارف عامة في القرآن، ثم يصرح بالدافع الذي جعله يؤلف كتابه فيبين أنه لم يضعه للعرب الفصحاء، وإنما لعامة الناس - بمن فيهم الأعاجم - الذين شعر أبوعبيدة بحاجتهم إلى فهم القرآن وإدراك معانيه والإلمام بأساليبه الجارية على خصائص الكلام العربي من زيادة وإضمار وحذف واختصار وتقديم وتأخير، وما جاءت مخاطبته مخاطبة الغائب ومعناه مخاطبة الشاهد، وما جاءت مخاطبته مخاطبة الشاهد، ثم تركت وحولت مخاطبته هذه إلى مخاطبة الغائب. «فلم يحتج السلف ولا الذين أدركوا وحيه إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن يسألوا عن معانيه لأنهم كانوا عرب الألسن، فاستغنوا بعلمهم به عن المسألة عن معانيه وعما فيه مما في كلام العرب مثله من الوجوه والتلخيص»[4]. «ثم يضرب أمثلة مختلفة من القرآن على أنواع المجاز التي ذكرنا[5] ثم يشرع بتفسير آيات من كل سورة بحسب ورودها في القرآن حتى يأتي على جميع السور»[6].

ولعل هذا ما حدا أحد الباحثين على أن يعد أبا عبيدة في كتابه المجاز نحوياً رائداً تجاوز وقوف النحاة على حركات الإعراب وانشغالهم بها زمناً طويلاً ليتناول

---

(١) سورة النحل: ٩٨

(٢) المجاز: ١/ ١ -٢-٣

(٣) المصدر السابق: ١/ ٣ – ٤-٥

(٤) المصدر السابق: ١/ ٨

(٥) المجاز: ١/ ٨ - ١٦

(٦) كلام الأستاذ إبراهيم مصطفى غير دقيق، حيث ذكر أن أبا عبيدة أخذ في تفسير القرآن الكريم كله، لأنه أغفل كثيراً من الآيات. انظر: إحياء النحو، ص: ١٢.

بحسه طرق التعبير ويكشف من سر العربية ونظم تأليفها مـا يتجاوز آخر الكلمة وحكم إعرابه، بيد أنه لم يكثر ما أكثر سيبويه وجماعته، ولم يتعمق ما تعمقوا، ولا أحاط إحاطتهم، ولكنه دل على سبيل تبصرة انصرف الناس عنها غافلين[1].

٣ – وأما الأمـر الثالث الذي يلفتنا إليه جواب أبي عبيدة فهو أنه يرد المثال القرآني الذي سئل عنه إلى طريقة العرب التي نزل القرآن عليها، فيجعل من ذلك منهجاً له في الكتاب، ودليل ذلك أنه يقول: «نزل القرآن بلسان عربي مبين، فمن زعم أن فيه غيرَ العربية فقد أعظم القول، ومن زعم أن (طه) بالنبطية فقد أكبر، وإن لم يعلم ما هو، فهو افتتاح كلام وهو اسم للسورة وشعار لها... وقد يوافق اللفظُ اللفظَ ويقاربه ومعناهما واحد وأحدهما بالعربيـة والآخر بالفارسـية أو غيرها، فمـن ذلك الاستبرق بالعربية، وهو الغليظ من الديباج، والفِرِنْد، وهو بالفارسية استبرَهْ، وكَوْز وهـو بالعربية جَوْز، وأشـباه هذا كثير»[2].

وفي ذلك طرف من القضية اللغوية الهامة التي أثارها القرآن على أقلام علماء العربية الذين انقسموا في ألفاظه بين فريق رافض لفكرة وجود أية ألفاظ غيرعربية في القرآن معتمداً على تفسير لظاهر الآيات التي تعرضت للسان الذي جاء به التنزيل من مثل قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ**﴾[3]. وفريق آخر رأى أن العرب خالطوا سائر الألسنة فعلقت من لغاتهم ألفاظ غَيَّرت بعضها

---

(١) إحياء النحو، ص: ١١-١٦.

(٢) المجاز: ١/ ١٧-١٨.

(٣) سورة فصلت: ٤٤. وانظر: الإتقان: ١/ ١٣٥، والمزهر: ١/ ١٢٩-١٣٠

بالنقص من حروفها واستعملتها في أشعارها ومحاوراتها حتى جرت مجرى العربي الفصيح، وعلى هذا الحد نزل بها القرآن[1]. وبين الرأيين رأي ثالث اتخذ منحى توفيقياً، فقال: بوجود كلمات يسيرة غير عربية دون أن تخرج القرآن عن عربيته[2] وعلى هذا يكون أبو عبيدة من أصحاب الرأي الأول، وعليه بنى منهجه في الكتاب كله، بمعنى أنه يحاول شرح لفظ أو تركيب، ثم يستشهد على صحته بآية أو حديث في المعنى نفسه أو كلام العرب الفصيح، كالخطب والأمثال والأقوال المأثورة، وفي أغلب الأحيان بأبيات من الشعر القديم وخاصة الرجز منها، ويحرص دائماً على أن يؤكد صلة أسلوب القرآن بأساليب العرب، فيذكر في ختام كلامه أن (العرب تفعل هذا).

وبعد، فمجاز القرآن كتاب تمتزج فيه اللغة والبلاغة والنحو، وكذلك كان الأمر في تراثنا القديم، فقد كانت الدراسة البلاغية متداخلة مع الدراسة اللغوية في كتب النحاة الأوائل أمثال سيبويه حتى عده بعض الباحثين واضع علمي المعاني والبيان[3] ورأى أن أبا عبيدة في كتابه (مجاز القرآن) لم يفعل أكثر من أنه سلك مسلك سابقيه من اللغويين من ربط النحو بالأساليب والتراكيب، على عكس ما فعل المتأخرون الذين قصروه على أنه علم يعرف به أحوال أواخر الكلم إعراباً وبناءً[4] وقد بيّنا ذلك حين تحدثنا عن المقصود بكلمة (مجاز).

---

(١) الإتقان: ١/١٣٦.

(٢) المصدر السابق: ١/١٣٦.

(٣) تاريخ علوم البلاغة العربية، أحمد مصطفى المراغي، ص: ٤٣. وينظر: البلاغة تطور وتاريخ، ص: ٢٩. والاتجاه العقلي في التفسير، ص: ١٠٠.

(٤) تاريخ علوم البلاغة العربية، ص: ٤٩. والاتجاه العقلي في التفسير، ص: ١٠٠.

على أن ذلك لا يمنع أن نرى في أبي عبيدة، نظرياً، رجل لغة أولاً، وبلاغة ثانياً، ونحو ثالثاً.

١ – أبو عبيدة اللغوي:

لا يخفى على كل ذي نظر متأمل في كتاب (المجاز) أن صاحبه لغوي في المقام الأول، عليم بلغات العرب وغريبها، يوجه اهتمامه الأول عند التفسير إلى شرح ما يراه يستحق الشرح من مفردات القرآن، مستعيناً ببعض الآيات المماثلة أو فصيح الكلام، من غير أن يغفل الاستشهاد بالشعر القديم، وخاصة الرجز الممتلئ بأوابد اللغة وشواردها[١]، وقد يحدد نوع الكلمة ووزنها[٢]، وكثيراً ما يبدو ذا حس لغوي مرهف، ومثال ذلك إدراكه فرق المعنى بين كسر العين وفتحها في كلمة (عِوَج) من قوله تعالى: ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾[٣]، إذ يقول: «مكسورة الأول، لأنه في الدين، وكذلك في الكلام والعمل، فإذا كان في شيء قائم نحو الحائط، والجذع: فهو عَوَج مفتوح الأول[٤]. ويستطرد في شرح مفردة لا علاقة لها بالآية، كأن يشرح اسم صاحب الشاهد الشعري[٥]. أو مفردة من الشاهد [٦] أو من كلامه ويأتي لها بالشاهد مما يدل على تبحره باللغة، فمن ذلك مثلاً شرحه الآية ﴿قَاتَلَهُمُ اللهُ﴾[٧]: قتلهم الله، وقلما يوجد فاعَلَ إلا أن يكون العمل من اثنين، وقد جاء هذا ونظيره ونِظْره: عافاك الله، والمعنى: أعفاك الله، وهو من الله وحده. والنِّظْر والنظير سواء مثل نِدّ ونَدِيد، وقال:

---

(١) ينظر مثلاً: كتاب المجاز: ١/ ٤٣ – ٤٤ – ٦٨ – ٨٢ – ٨٣ – ١٠٥ – ١٦٤ – ١٦٥ – ٢٣٤.
(٢) ينظر مثلاً: كتاب المجاز: ١/ ٨٨ – ٩٣ – ١١٧ – ١٤٠.
(٣) سورة آل عمران: ٩٩.
(٤) المجاز: ١/ ٩٨.
(٥) ينظر مثلاً المجاز: ١/ ١٤٩.
(٦) المجاز: ٢/ ٥٦ – ٧٢ – ٢٦٣.
(٧) سورة التوبة، من الآية: ٣٠.

«ألا هل أتى نِظْري مُلَيكَةَ أنني»[1]، وقد أشادَ الطبري بهذا التفسير[2]، كما أقر في مواضع كثيرة من تفسيره ببصر أبي عبيدة بكلام العرب ونقل عنه[3]، وبعد ذلك يحق له أن يسن القواعد اللغوية[4] وأن يكون له تفرده فيخالف غيره من العلماء في بعض أمور اللغة كالفراء والكسائي[5] ويكون له مذهب في التفسير[6].

وربما مرّ بتعليل حركة كلمة، فقال: «زعم النحويون»[7]، وكأنه يقرّ أنه لغوي أولاً واهتمامه بالنحو محدود لأنه يذكر رأيهم فلا يعلق عليه، ومما يؤكد ما نذهب إليه قول صاحب اللسان: «وقال الأزهري: أبو عبيدة صاحب بالغريب وأيام العرب وهو بليد النظر في باب النحو ومقاييسه»[8].

٢- أبو عبيدة البلاغي:

لقد ذكرت من قبل أن تأليف كتاب المجاز كان بسبب مسألة بلاغية في القرآن، تتعلق بالتشبيه ﴿**طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ**﴾[9] وعليه فلا غرابة أن نجد أبا عبيدة يهتم بإيضاح المسائل البيانية الموجودة في القرآن، ويجد لها

---

(١) المجاز: ١/ ٢٥٦ – ٢٥٧. وانظر: ١/ ٣٠١. يقول: (نظيره ونِظْرَه) معناهما واحد، مثل: (قاتلهم وقتلهم):

ألا هل أتى نظرَيْ مُلَيكةَ أنني أنا الليث معدياً عليه وعاديا

(٢) تفسير الطبري: ١٠/ ١١٠. وانظر: اللسان: نظر.

(٣) الطبري: ١٢/ ٥٤.

(٤) المجاز: ١/ ٣٥١.

(٥) المصدر السابق : ٢/ ٩٩.

(٦) المصدر السابق: ٢/ ١٨٨.

(٧) المصدر السابق: ٢/ ١٥٠ – ١٥٢ – ١٥٥.

(٨) اللسان: عشا.

(٩) سورة الصافات: ٦٥.

ما يماثلها في كلام العرب وأساليبهم في التعبير، وقد صارت هذه المسائل فيما بعد مسائل في البيان العربي[1] حتى وصل الأمر بالأستاذ المرحوم ابراهيم مصطفى إلى أن وجده أسبق من الإمام عبد القاهر الجرجاني **(ت ٤٧١هـ)** في وضع أسس علم المعاني الذي فصله النحاة فيما بعد عن معاني النحو فأزهقوا روح الفكرة[2]، كما عَده آخرُ أولَ من كتب في علم البيان[3].

ولا بد من التدليل على هذا الكلام فنحدد ما جاء في الكتاب من أمور بلاغية، لأن كل كلام يفتقر إلى الدليل القاطع يبقى في حيز الافتراض، فإليك البيان:

آ – **المجاز العقلي:** حيث قال في قوله تعالى: ﴿**وَالنَّهَارَ مُبْصِراً**﴾[4] له مجازان، أحدهما: أن العرب وضعوا أشياء من كلامهم في موضع الفاعل، والمعنى أنه مفعول، لأنه ظرف يفعل فيه غيره لأنه لا يُبصِر ولكنه يُبصِرُ فيه الذي يَنظر، وفي القرآن: ﴿**فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ**﴾[5]، وإنما يرضى بها الذي يعيش فيها، قال جرير:

لقد لمتنِا يـا أم غَـيْلانَ في الـسُّرى ونمـتِ ومـا ليـل المَطِـيِّ بنـائم

والليل لا ينام وإنما يُنَام فيه، وقال رؤبة: «فنام ليلي وتجلَّى همي»[6].

---

(١) ينظر: المعاني في ضوء أساليب القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، ص: ١٤.

(٢) إحياء النحو، ص: ١٦ وما بعدها.

(٣) علوم البلاغة العربية، ص: ٧ و ٢١٥.

(٤) سورة يونس: ٦٧.

(٥) سورة الحاقة: ٢١.

(٦) المجاز: ١/ ٢٧٩ و ٢/ ٩٦.

ب – **الكناية والتشبيه** المصرح بهما مـن غير تفصيل في مثل قوله:

﴿**نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ**﴾[1]، كناية وتشبيه، قال: ﴿**فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ**﴾[2]، وفي بعض الأماكن يريد الكناية من غـير أن يصرح باسمها[3]، أما مجاز التمثيل فيعني عنده التشبيه أو تشبيه التمثيل كما في تفسير قوله تعالى: ﴿**عَلَىَ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ**﴾[4].

جـ - **الاستعارة:** وإليها يشير إشارة تفهم من خلالها[5] وقد يخلط بينها وبين التشبيه[6].

د - **الالتفات:** تنبه أبو عبيدة إلى هذا الأسلوب، وإن لم يسمه، كأن يقول: «ومن مجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الشاهد، ثم تركت، وحولت

---

(١) سورة البقرة: ٢٢٣. المجاز: ١/٧٣، وانظره: ١/١٥٥ و ٢/١٢٧.

(٢) سورة البقرة: ٢٢٣.

(٣) المجاز: ١/٧٥، (ولكن لا تواعدوهن سراً)، السر: الإفضاء بالنكاح. وانظر: المجاز ١/١٧٠، (يد الله مغلولة) أي: خيرُ الله مُمسَك. والمجاز ١/١٧٧، (كلما أوقدوا ناراً للحرب)، أي: كلما نصبوا حرباً. والمجاز: ١/٢٦٣ (ويقبضون أيديهم)، أي يمسكون أيديهم عن الصدقة، والخير.

(٤) سورة التوبة، من الآية: ١٠٩. وانظر: المجاز: ١/٢٦٩. وأثر القرآن في تطور النقد العربي: ٤٦ – ٤٧.

(٥) المجاز: ١/٤١٠ – ٢/٨٢ – ١٩٦. يشير أبو عبيدة إشارة إلى الاستعارة فتفهم من كلامه: (يريد أن ينقضّ): المجاز: ١/١٨٤. يقول: وليس للحائط إرادة ولا للموات، ولكنه إذا كان في هذه الحال من ربه فهو إرادته. وقد يخلط بين الاستعارة والتشبيه [فمنهم من يمشي على بطنه] فهذا من التشبيه لأن المشي لا يكون على البطن، إنما يكون لمن له قوائم، فإذا خلطوا ما له قوائم بما لا قوائم له جاز ذلك: ٢/٦٨.

(٦) المجاز: ٢/٦٨.

مخاطبته هذه إلى مخاطبة الغائب، قول الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾[1]: أي بكم.

هـ - **الحذف والاختصار** عند أمن اللبس للإيجاز، والإيجاز صفة محمودة من صفات الكلام عند العرب، والقرآن خير ممثل لهذه الصفة في أسلوبه وقد أشار أبو عبيدة إلى كثير من مواضع الحذف في آياته فلنسمعه يقول في هذه الآية: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾[2]. العرب تختصر لعلم المخاطب بما أريد به، فكأنه خرج مخرج قولك: فأما الذين كفروا فيقول لهم: أكفرتم، فحذف واختصر الكلام، وقال الأَسَدِيّ:

كذبتم وبيتِ اللهِ لا تُنْكِحُونها بَنِي شابَ قَرْناها تَصُرُّ وتَحْلُب

أراد: بني التي شاب قرناها، وقال النابغة الذبياني:

كأنك من جمال بني أُقَيْشٍ يُقَعْقَعُ خلف رجليه بشَنِّ

(بني أقيش): حي من الجن، أراد: كأنك جمل يقعقع خلف الجمل بشن، فألقى الجمل، ففهم عنه ما أراد[3].

و – **إدراك الفارق بين الخبر والإنشاء** ففي قوله تعالى: ﴿لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا﴾[4]. يقول: رَفْعٌ، خَبَرٌ، ومن قال: (لا تضارَّ) بالنصب، فإنما أراد (لا تضارِرْ)، نهي[5] ومعلوم أن النهي غرض من أغراض الإنشاء.

---

(١) سورة يونس، من الآية: ٢٢. وانظر المجاز: ١/ ١١. و ١/ ٢٣ – ٢٥٣.

(٢) سورة آل عمران، من الآية: ١٠٦.

(٣) المجاز: ١/ ١٠٠-١٠١. وانظره: ١/ ١٢٦ – ٢٥٧ – ٢٩٧ – ٣٤٢.

(٤) سورة البقرة، من الآية: ٢٣٣.

(٥) المجاز: ١/ ٧٥.

ز– **خروج الإنشاء** عن حقيقة معناه ليعبر عن معنى آخر يفهم من السياق كخروج الاستفهام إلى تقرير أمر ما، وهو ما يسمى بالاستفهام التقريري[1]، أو خروجه إلى معنى التحذير[2] أو الإنكار[3]، وكذا الحال في الأمر الذي يخرج معناه إلى الوعيد[4].

ح – **الإطناب:** مثلما أحب العرب الإيجاز فحذفوا عند أمن اللبس، لم يستنكروا الإطناب حين تدعو الحاجة إليه، كتوكيد بعض الكلام. وقد أشار أبو عبيدة إلى مكان الإطناب من غير تسمية، فقال: «ومن مجاز المكرر للتوكيد قوله تعالى: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾[5] أعاد الرؤية، وقال: ﴿أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾[6] أعاد اللفظ»[7].

ط – **التقديم والتأخير:** يحدث في الجملة أن تتقدم كلمة على أخرى لغرض بلاغي، مما يكسب الكلام جمالاً وتأثيراً، ويجعل للتقديم والتأخير مكانة سامية في علم المعاني، وقد أشار أبو عبيدة إلى أماكنه في القرآن وتنبه إليها ولكنه لم يكن يذكر السبب البلاغي الذي حصل من أجله التقديم والتأخير[8].

---

(١) المصدر السابق: ١/ ٣٥ – ٢٨٧ و ٢/ ١١٨ – ١٣٣.

(٢) المصدر السابق: ١/ ٢٨٨.

(٣) المصدر السابق: ١/ ١٣٠.

(٤) المصدر السابق: ٢/ ١٩٧ – ٢٧٠.

(٥) سورة يوسف، من الآية: ٤.

(٦) سورة القيامة، من الآية: ٣٤.

(٧) المجاز: ١/ ١٢

(٨) المصدر السابق: ١/ ١٧٣ – ١٨٥ – ٣٦٤.

ي – **الكلام بالواحد على لفظ الجمع بغرض التفخيم:** وكثيراً ما ردد أبو عبيدة أن العرب تتكلم بهذا أو تفعله[1].

ولكن يجدر بنا بعد هذا البيان أن نشير إلى أن فهم أبي عبيدة للصورة البيانية بوجه عام لا يتعدى الفهم اللغوي، فهو يتعرض للفنون البيانية المتعلقة بالأسلوب، ويعدها من المجاز اللغوي، وكثير من الاستعارات والتشبيهات في القرآن تدخل نطاق الحرج لأنها تتعلق بالذات الإلهية أو بالعقيدة، أو بصور البعث. وموقف أبي عبيدة من هذه جميعاً موقف اللغويين، يأخذ بظاهر القول إلى أمد محدود غايته المعنى المجازي القريب، وهو المذهب الذي عرفوا به[2] ولكن استعماله للكناية في الدلالة على فن من فنون الأسلوب قريب من استعمال البلاغيين للدلالة على الاصطلاح البلاغي المعروف (الكناية)[3].

٣ – أبو عبيدة النحوي:

بان لنا أن أبا عبيدة يوجه جلّ اهتمامه إلى اللغة ثم البلاغة ليكون الجانب النحوي عنده أضعف الجوانب، واحتفاؤه به قليلاً. ولا بأس علينا أن نتلمس شخصيته النحوية من خلال هذا القليل فنجده:

أ – لا يحتفي بإيراد وجوه القراءات احتفاء الفراء بها، وإن أورد منها شيئاً فأحياناً يكتفي بوجه واحد[4] وحيناً بوجهين[5] ونادراً بثلاثة وجوه[6].

---

(١) المصدر السابق: ١/ ٣٨ – ١٠٨ – ١٣١.
(٢) أثر القرآن في تطور النقد العربي: ٤٧.
(٣) المصدر السابق: ٤٧ – ٤٨.
(٤) المجاز: ١/ ٩١:
(٥) نفسه: ١/ ٣٥٥.
(٦) نفسه: ١/ ٣٠٣.

ب – إذا مرّ ببعض وجوه الإعراب مسها مساً خفيفاً من غير أن يقف عليها أو يتأملها بعمق نظر النحاة[1]، ويكاد النصب على المصدرية يشكل قاعدة لديه فكثيراً ما ذكر المصدر سبباً للنصب[2].

ج – يقول بالإعمال[3] ويذكر العامل المحذوف أحياناً ليعلل حركة كلمة[4] ولكن دون أن يبالغ في ذلك أو يتزيَّد أو يتَمَحَّل فعل متأخري النحاة.

د – له شخصية مستقلة ورأي حر فلا يتقيد – وهو البصري – بمذهب أهل البصرة، فيستعمل أحياناً مصطلحاً كوفياً كالكناية التي يعبر بها الكوفيون عن الضمير[5] وقد يعمم عليه قاعدة نحوية[6].

وبعد ذلك فإنني أعجب من قول د. عبد العال سالم مكرم: «وإذا رجعنا إلى كتاب مجاز القرآن لأبي عبيدة وجدنا فيه كثيراً من المسائل النحوية التي دارت حول الكثير من الآيات القرآنية، ومن ثم فإننا نعتبر أن مجاز القرآن مصدر من مصادر النحو القرآني!»[7] إذ كيف سوغ لنفسه أن يجعل من الكتاب مصدراً من مصادر النحو القرآني، وصاحبه – كما عرف عنه – ضعيف البصر بالنحو، وقد قال فيه أبو العباس المبرد: «كان أبو عبيدة عالماً بالشعر والغريب والأخبار

---

(١) المجاز: ١/ ٢١١.

(٢) ينظر مثلاً المجاز: ٢/ ٢١٤ - ٢٢٣.

(٣) المجاز: ١/ ٣٥ – ١٠٧ – ٢/ ١٦٠.

(٤) نفسه: ١/ ٥٧ – ٢/ ١٤٣.

(٥) نفسه: ١/ ١٧٤، وينظر: ٢/ ١٠٩.

(٦) نفسه: ١/ ٢٤.

(٧) القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية، ص: ٢٤٣.

والنسب، وكان الأصمعي يَشْرَكُه في الغريب والشعر والمعاني، وكان الأصمعي أعلم بالنحو منه»[1].

فهل يكون أبو عبيدة مصدراً من مصادر النحو القرآني والأصمعي أنحى منه، وهو الذي لم يشتهر في شيء من النحو بين النحويين؟!.

ثانياً: معاني القرآن للأخفش الأوسط[2] (ت ٢١٥ أو ٢٢١ هـ)

قبل الحديث عن هذا الكتاب أود أن أحقق في سنة وفاة علي بن حمزة الكسائي، لأنني رأيت التثبت من سنة وفاته ضرورة ملحة لما لها من علاقة في تحديد الزمن الذي ألف فيه أبو الحسن الأخفش كتابه (معاني القرآن) من ناحية، ولأن شطراً من هذه الدراسة إنما يقوم على الدراسة التاريخية المقارنة لما ألف من كتب في معاني القرآن من ناحية أخرى، والكسائي كما مرّ معنا، واحد ممن ألفوا في هذه الكتب، فلا مندوحة لنا من وضع اليد على مدى التأثير والتأثر بين هذه الكتب، وتبيان فضل السالف على الخالف، ومن ثمة تقدير القيمة التي يستحقها كل منها فأقول:

---

(١) أخبار النحويين البصريين، ص: ٥٣.

(٢) هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة، مولى لبني مجاشع بن دارم، فهو من مشهوري نحويي البصرة، وهو أحذق أصحاب سيبويه، وهو أسن منه... ولقي من لقيه سيبويه من العلماء. والطريق إلى كتاب سيبويه الأخفش، وممن قرأ عليه الكتاب الكسائي. له كتب كثيرة في النحو والعروض والقوافي. مات بعد الفراء. انظر: أخبار النحويين البصريين ٣٩-٤٠ . وتنظر ترجمة الأخفش الأوسط في: طبقات النحويين واللغويين: ٧٤، والفهرست: ٥٢، ونزهة الألباء: ١٨٤ – ١٨٨، ومعجم الأدباء: ١١/ ٢٢٤ – ٢٣٠، والبلغة في تاريخ أئمة اللغة: ٨٧، وبغية الوعاة: ٢٥٨، وبروكلمان: ٢/ ١٥١، ١٥٢.

مثلما اختلف المترجمون في تاريخ وفاة سيبويه فقالوا توفي سنة (١٦١، ١٧٧، ١٨٠، ١٨٨، ١٩٤هـ)[١] اختلفوا أيضاً في تاريخ وفاة الكسائي فذكروا أنه مات بقرية من قرى الري يقال لها رَنْبَوَيْه سنة تسع وسبعين ومئة[٢] أو سنة تسع وثمانين ومئة في صحبة هارون الرشيد وقيل سنة اثنتين أو ثلاث وثمانين ومئة[٣]، ومنهم من قال بأنه توفي سنة ثلاث وتسعين ومئة[٤]، كما اختلفوا كذلك في مكان الوفاة، ففريق أورد أنه توفي في الري[٥]، وفريق آخر جعل في (طوس) مثواه الأخير[٦]، غير أنهم أجمعوا جميعاً على أنه توفي في صحبة الرشيد.

وكما رجح الدارسون سنة ١٨٠هـ تاريخاً لوفاة سيبويه[٧] فإنني أرجح أن يكون عام ١٩٣هـ الذي توفي فيه الرشيد [٨]هو العام الذي توفي فيه الكسائي، لأن الأخفش الأوسط صنف كتابه في (معاني القرآن) بعد المناظرة الشهيرة التي حدثت في بغداد بين الكسائي وسيبويه، وهي التي عرفت بـ(المسألة الزنبورية)[٩] وذلك بتكليف من الكسائي. وقد روى القصة أبو الحسن الأخفش نفسه قائلاً:

---

(١) سيبويه إمام النحاة. علي النجدي ناصف: ١١٦.

(٢) الفهرست: ٤٤.

(٣) مراتب النحويين، ص: ٧٥. وطبقات النحويين واللغويين: ١٤٢. وتاريخ بغداد: ١١/ ٤١٤. ووفيات الأعيان: ١/ ٣٣١.

(٤) طبقات النحويين واللغويين: ١٤٢.

(٥) مراتب النحويين: ٧٥، وطبقات النحويين واللغويين: ١٤٢، وتاريخ بغداد: ١١/ ٤١٤، ووفيات الأعيان: ١/ ٣٣١.

(٦) وفيات الأعيان: ١/ ٣٣١.

(٧) سيبويه إمام النحاة: ١١٧.

(٨) انظر: تاريخ الطبري: ٨/ ٣٤٢، وتاريخ الخلفاء للسيوطي: ١٩٢.

(٩) ينظر في هذه المسألة: الإنصاف في مسائل الخلاف المسألة: ٩٩.

«ولما ناظر سيبويه الكسائي ورجع وجه إلي فعرَّفني خبره ومضى إلى الأهواز وودعني فوردت بغداد فرأيت الكسائي فصليت خلفه الغداة، فلما انفتل من صلاته وقعد وبين يديه الفراء والأحمر وابن سعدان سلمت عليه وسألته عن مئة مسألة فأجاب بجوابات خطأته في جميعها فأراد أصحابه الوثوب علي فمنعهم عني ولم يقطعني ما رأيتهم عليه مما كنت فيه... فلما اتصلت الأيام بالاجتماع سألني أن أؤلف له كتاباً في معاني القرآن، فألفت كتاباً في المعاني فجعله إمامه وعمل عليه كتاباً في المعاني، وعمل الفراء كتاباً في ذلك عليهما»[1].

إن هذه الرواية قد حددت زمن تأليف الأخفش لمعانيه بُعَيْد مناظرة الكسائي لسيبويه «ولا نعرف متى كانت هذه المناظرة على التعيين، ولكن المعروف أنها وقعت في خلافة الرشيد وفي وزارة يحيى بن خالد، أي سنة ١٧٠ هـ أو بعدها»[2].

وأياً كان الأمر فإن الأخفش الأوسط، حسب هذه الرواية، لم يؤلف كتابه بعد المناظرة مباشرة، بل حدثت قطيعة على إثْرِها، بينه وبين الكسائي وأصحابه، واستمرت فترة من الزمن لا ندري مقدارها، إلى أن اجتمع الشمل وطلب الكسائي من الأخفش تأليف كتاب في معاني القرآن ففعل، فمتى كان ذلك على وجه الدقة؟.

لقد هون علينا الزبيدي، في رواية له، ذلك الأمر عندما حدد فيها تاريخ تأليف الأخفش لمعانيه بعدما ألف أبو عبيدة كتاب (مجاز القرآن) وقد اعترف

---

(١) بغية الوعاة: ٢٥٨، وينظر: طبقات النحويين واللغويين: ٧٠، ومعجم الأدباء: ١١/٢٢٩.

(٢) سيبويه إمام النحاة: ١٠٣.

الأخفش نفسه بهذا.. جاء في هذه الرواية قوله: «... حدثنا أحمد قال: حدثنا مروان قال: قال أبو حاتم: كان الأخفش قد أخذ كتاب أبي عبيدة في القرآن فأسقط منه شيئاً وزاد شيئاً، وأبدل منه شيئاً. قال أبو حاتم: فقلت له: أي شيء هـذا الذي تصنع؟ من أعرف بالغريب أنت أو أبو عبيدة؟ فقال: أبو عبيدة، فقلت: هذا الذي تصنع ليس بشيء، فقال: الكتاب لمن أصلحه وليس لمن أفسده...»[1].

ونحن نعلم أن أبا عبيدة ألف كتابه المجاز عام ١٨٨ هـ، فإذا صحت هذه الرواية، يكون الأخفش ألف كتابه بعد كتاب أبي عبيدة الذي كان قد اطلع عليه وتأثر به، أي بعد سنة ١٨٨هـ على وجه التحديد... وبذلك نرى في تحديد محقق كتاب معاني القرآن للأخفش لفترة تأليفه فيما بين سنة وفاة سيبويه ١٨٠هـ، وسنة وفـاة الكسائي ١٨٩هـ أو١٩٣هـ[2] تحديداً مجافياً للحقيقة لأنه يتعارض وما حدده الزبيدي في روايته السابقة من جهة، كما أنه من غير الممكن أن يكون الكسائي قد عمل كتابه (معاني القرآن) على معاني الأخفش وهـو في الدار الآخـرة من جهة ثانية؟!!.

وهذا مـا جعلني أرجح أن يكون الكسـائي متوفى عـام ١٩٣هـ إذ ليس معقولاً أن يكون قد توفي سنة ١٨٢هـ أو ١٨٣هـ أو ١٨٩هـ وقد عمل كتابه (معاني القرآن) على كتاب الأخفش الأوسط الذي ثبت لنا أنه أُلف بعد عام ١٨٨هـ.

وبعد هذا البيان الذي حددت فيه سنة وفاة الكسائي، وسبب تأليف الأخفش الأوسط لـ (معاني القرآن) والزمن الذي تم فيه ذلك، أقف عند هذا الكتاب، فأعرض مضمونه، وأبيّن مصادره، ومنهج صاحبه في تأليفه،

---

(١) طبقات النحويين واللغويين: ٧٤ – ٧٥.

(٢) مقدمة محقق كتاب معاني القرآن للأخفش الأوسط ص: ٥٦.

معتمداً على الدراسة التي قدمها محقق المعاني الدكتور فائز فارس لهذا الكتاب، فهي دراسة وافية وإن كان عليها بعض الملاحظات.

لقد ضمن الأخفش كتابه تفسيراً لسور القرآن، «كما وردت مرتبة في المصحف، ابتداء بالفاتحة وانتهاء بسورة الناس، ما عدا سورة العلق، فقد ورد تفسيرها بعد تفسير سورة القدر، وقد كان يطيل ويفسر في السور الأولى، وتظهر الإطالة في سورة البقرة جلية، ثم يوجز في دراساته التالية، لأن السور تقصر تدريجاً، ولأنه قدم كثيراً مما يود قوله في السور السابقة»[1].

وبعد الانتهاء من تفسير سور القرآن، فسر الأخفش دعاءَي الاستفتاح والقنوت، وبعد الدعاءين فسر كلمة آمين، وكان لا يتعرض لدراسة الآيات السهلة الواضحة، فقد مرت آيات كثيرة لم يتناولها الأخفش بدراسته[2].

ولا يظهر في كتاب الأخفش ترتيب دقيق لآيات السور المختلفة، إنها تتوالى ثم يختلف أمرها بين تقديم وتأخير[3].

وأما مصادر أبي الحسن الأخفش في كتابه فهي الشواهد التي احتج بها ليعضد آراءه ويقويها، وتنوعت بين الآيات القرآنية، والقراءات، وأقوال العرب شعراً ونثراً ولغات القبائل العربية، وآراء العلماء.

فهو يستعين بالآيات القرآنية ليفسر بها آيات أخرى... وتملأ الآيات القرآنية كتاب الأخفش شاهدة على تفسيره في كل جوانب دراسته اللغوية. ينهج هذا من

---

(١) مقدمة معاني القرآن: ٥٩.

(٢) المرجع السابق: ٦١.

(٣) المرجع السابق: ٦٢.

أول الكتاب إلى آخره، ففي قولـه تعالى: ﴿وَاللَّـهُ عِنْدَهُ حُسْـنُ الْـمَآبِ﴾[1]. يقول: مهموز منها موضع الفاء، لأنه من آب يؤوب، وهي معتلة العين مثل: قلت تقول، والمفعل مقال، تقول: آب يؤوب إياباً. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾[2]، وهو الرجوع، وأمّا الأوَّاب فهو الرجوع إلى الحق، وهو من آبَ يؤوب. وأما قوله تعالى: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾[3]، فهو فيما يذكرون التسبيح، وهو –والله أعلم– مثل الأول، يقول: ارجعي إلى الحق، والأواب: الراجع إلى الحق[4].

لقد درس الأخفش تصريف الفعل (آب) من خلال آيات القرآن الكريم، وقد رأيناه يأتي بآية من سورة سبأ وبأخرى من سورة الغاشية لتوضيح تصريف لفظ في آية من آيات سورة آل عمران. وفي دراسته النحوية يكثر من إيراد الآيات للاستدلال بها على مواطن نظره في آيات أخرى[5].

كما يستعين بالقراءات المختلفة لدعم ما يذهب إليه، فنراه قد عرض في كتابـه قراءات شتى، وبأساليب مختلفة، وفي مرات كثيرة كان يذكر القراءات من غير تعليل، وفـي أخرى كان يعلل القراءات ويقيم حولها الدراسات الصرفية أو الصوتية أو النحوية... ومما جاء في كتاب الأخفش في الدراسة الصوتية لبعض القراءات القرآنية قوله: «وأما قوله: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾[6] جعل البقر مذكراً مثل: التمر والبُسْر، كما تقول: إن زيداً تكلم يا فتى.. وإن

---

(١) سورة آل عمران، من الآية: ١٤.
(٢) سورة الغاشية، من الآية: ٢٥.
(٣) سورة سبأ، من الآية: ١٠.
(٤) معاني القرآن: ١٩٧ - ١٩٨.
(٥) مقدمة المعاني: ٧١.
(٦) سورة البقرة، من الآية: ٧٠.

شئت قلت: (يشَّابه)، وهي قراءة مجاهد، ذكَّر البقر، يريد (يتشابه) ثم أدغم التاء في الشين، ومن أنث البقر، فقال: (تشَّابه) فأدغم، وإن شاء حذف التاء الآخرة، ورفع كما تقول: إن هذه تكلم يا فتى، لأنها في (تتشابه) إحداهما تاء (تَفْعَلُ) والأخرى التي كانت في (تشابَهَتْ)»[1].

وقد يتناول الأخفش القراءات بدراسته الصرفية، فيبين أوجه القراءات في ضوء الاشتقاق الأصغر، ومن ذلك ما نقرأ له: «وقال: ﴿وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا﴾[2] من (نَشَزْتُ) التي هي ضد (طويت)، وقال بعضهم: (نُنْشِرُها) لأنه قد تجمع (فَعَلْتُ) و (أَفْعَلْتُ) كثيراً في معنى واحد، تقول: صَدَدْتُ وأَصْدَدْتُ، وقد قال: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾[3]. وقال بعضهم: (نُنْشِزُها) أي نرفعها، تقول: نَشَزَ هذا وأنشَزْتُه[4].

«وللجوانب النحوية في القراءات القرآنية حظ من دراسة الأخفش، يكشف بها علة القراءة. فمن ذلك قوله عند تفسير: ﴿الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾[5]. قال الله تعالى: ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ منصوبة أي: اتقوا الأرحام. وقال بعضهم: (والأرحامِ)، جر، والأول أحسن، لأنك لا تجري الظاهر المجرور على المضمر المجرور»[6].

---

(١) معاني القرآن: ١٠٤ – ١٠٥ – ومقدمة المعاني: ٧٢ – ٧٣.

(٢) سورة البقرة، من الآية: ٢٥٩.

(٣) سورة عبس، من الآية: ٢٢.

(٤) معاني القرآن: ١٨٢ – ١٨٣، ومقدمة المعاني: ٧٤.

(٥) سورة النساء، من الآية: ١.

(٦) معاني القرآن: ٢٢٤.

لقد قدم القاعدة النحويـة في ختام تفضيله قراءة على أخرى، وله نظرات مختلفة في دراسته النحوية للقراءات القرآنية نجدها في ثنايا كتابه[1]. ولو نظرنا إلى موقفه من القراءات من حيث المفاضلة وتعليل الاختيار لرأينا أنه قد يورد القراءتين ولا يفضل إحداهما على الأخرى، لأنهما تستويان في نظره في الحسن والصواب.. يقول: «وقال: ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾[2]، إذ جعل القبس بدلاً من الشهاب، وإن أضاف الشهاب إلى القبس لم ينون الشهاب، وكل حسن»[3].

والقراءات القرآنية لا تستوي دائماً عند الأخفش، فهو ذو قراءة يفضلها ويختارها ليقرأ بها، وقد صرح باختياره لقراءة ما، وبإعراضه عن قراءة أخرى في مواطن عديدة من كتابه، من غير تعليل لاختياره وما يختـار. فمن ذلك: «وأما قوله: ﴿فَأَزَلَّـهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾[4]، فإنما يعني الزلل، تقول: زل فلان وأَزْلَلْتُه وزال فلان وأزالـه فلان، والتضعـيف القراءة الجيدة وبها نقرأ»[5].

وقد يورد أبو الحسن الأخفش العوامل التي جعلته يقدم قراءة على أخرى، فما يقوي القراءة عنده السماع[6]، والجودة في العربية[7]، وموافقة قراءة آية أخرى[8]، وموافقة الرسم القرآني[9].

---

(١) مقدمة المعاني: ٧٥.
(٢) سورة النمل، من الآية: ٧.
(٣) معاني القرآن: ٤٢٨.
(٤) سورة البقرة، من الآية: ٣٦.
(٥) مقدمة المعاني: ٨١ – ٨٢.
(٦) نفسه: ٨٣ – ٨٤.
(٧) نفسه: ٨١ – ٨٥.
(٨) نفسه: ٨٦.
(٩) نفسه: ٨٢.

وأما الشواهد الشعرية فهي كثيرة في الكتاب، وكان لها الحظ الأوفى من شواهده جميعاً لما له من اهتمام كبير بالشعر، ولا غرو فقد اشتهر بأنه صاحب طريقة في ذلك بين النحاة.. وقد نال كثير منها (الشواهد) شهرة واسعة، وتردد في كتب النحو واللغة معدوداً من شواهد أبي الحسن الأخفش[1] وهو في ذلك يلجأ إلى تيسير الشاهد الشعري فيشرح غريبه[2].

ولأقوال العرب أيضاً نصيب من شواهده وهي مصدر من مصادر كتابه لأنه يصغي باهتمام إلى أقوال العرب، ويجعل من القدر الكبير الذي سمعه منهم مادة يقيس عليها كثيراً في دراسته اللغوية... يسوقها في دراسته الصوتية، إذ يقول: «ومن العرب من يقول (هِيّاك) بالهاء، يجعل الألف من (إياك) هاء، فيقول (هِيّاك) نعبد، كما يقول: اِيَه وهِيَه، وكما تقول: هَرقت وأرقت»[3].

واعتمد كذلك على لغات القبائل في الاحتجاج فسلك «مسلك اللغويين الآخرين، فقد تناول لغات قبائل شتى، ولم يكتف بلغة قبيلة معينة في بيئة جغرافية محددة... وتبرز الاختلافات اللغوية في دراسة الأخفش بين بني تميم وأهل الحجاز، ويتناول هذه الاختلافات بالوصف، من غير تفضيل لغة على أخرى. والخلافات النحوية بين المِصْرَين، البصرة والكوفة، لا أثر لها في كتاب الأخفش، لكننا نلحظ فيها إشارات خفيفة إلى ما بين قراءات المدينة والكوفة والبصرة من تباين، ونرى في ذلك نواة للمذاهب النحوية التي نمت وترعرعت في ظلال القرآن»[4].

---

(١) نفسه: ٨٧.

(٢) نفسه: ٩٢.

(٣) معاني القرآن: ١٨، ومقدمة المعاني: ٩٢.

(٤) مقدمة المعاني: ٩٨.

يضاف إلى تلك المصادر التي اعتمدها الأخفش، آراء العلماء الذين أورد ذكراً لهم في كتابه، إذ كانت آراؤهم مصدراً من مصادر هذا الكتاب... أما الحديث الشريف والأمثال فلا نجد لهما أثراً في (معاني القرآن) فهو ممن يعرضون عن الاستشهاد بهما واعتمادهما مصدرين من مصادر الاستشهاد[1].

• منهج الأخفش في المعاني :

إن كتاب الأخفش الذي نحن بصدده هو «تفسير للقرآن الكريم وشرح لآياته... عني فيه الأخفش بدراسة هذا النص المقدس، وسعى إلى تقريب ما فيه من المعاني، محاولاً تيسيره، مقيماً تفسيره على أساس لغوي»[2].

وفيه وفَّى أبو الحسن الأصوات حقها من الدراسة: لقد وصف مخارج الحروف[3] وعرف الصوامت ذات المخارج المتقاربة وذات المخارج المتباعدة[4]، وقد أهمته الهمزة فتناولها في مواقف كثيرة شارحاً أحوالها، مفصلاً في تحقيقها وفي تخفيفها، وفي إبدالها حرفاً آخر[5]، كما بين المجهور والمهموس وفرق بين المطبق وغير المطبق[6]، وقد عني بالصوائت ودرس المغايرة من خلال استثقال الضمتين وتحويل الثانية إلى فتحة[7]، ودرس

---

(١) نفسه: ٩٩، وينظر: حول الاستشهاد بالحديث: خزانة الأدب: ١/٢٣ - ٢٨ وكتاب محمد الخضر حسين (دراسات في العربية وتاريخها) ص: ١٦٦ - ١٨٠

(٢) مقدمة المعاني: ١٠٤.

(٣) معاني القرآن: ٢٣ و ١٠٧.

(٤) نفسه: ٢٣ و ١٦٩.

(٥) نفسه: ١٨، ٤١، ٤٥.

(٦) نفسه: ٣٦٦ – ٣٦٧.

(٧) نفسه: ١٦٩، ١٧٠.

المماثلة في الصوائت في إتباعِ الكسرةِ الكسرةَ[1]، وفي الصوامت تحت ما يسمى بالإدغام[2].

«وتناول في بحثه الوصل[3] والروم[4] والإشمام[5] والإخفاء[6] والإمالة[7] والوقف[8]. وعندما فسر الأخفش القرآن الكريم، نظر في مسائله الصرفية، لقد درس بناء الكلمة[9] وأوزان الأسماء[10] وبين المفرد والجمع[11] وصيغة جمع الجمع[12] وتناول التذكير والتأنيث[13] وتصغير الأسماء[14] وعني بالأفعال فبين أبنيتها[15] وصرف ما صعب منها[16] ونظر في أوزانها[17] وفي

---

(١) نفسه: ٤ – ٥.

(٢) نفسه: ٥٠، ٦٩، ٩٥، ١٠٥، نقلاً عن المقدمة، ص: ١٠٥.

(٣) معاني القرآن: ١، ٨، ١٢، ١٣.

(٤) نفسه: ٤١.

(٥) نفسه: ١٥٠، ١٥١، ٢٥٢.

(٦) نفسه: ١٥٠، ١٥١، ٢٥٢.

(٧) نفسه: ٣٩، ٤٠، ٢١١.

(٨) نفسه: ١١، ١٢، ١٦٣.

(٩) نفسه: ١٨٤، ١٩٩، ٢٢٦.

(١٠) نفسه: ١٢٧، ٢١٥.

(١١) نفسه: ٥١، ٩٥، ٩٦.

(١٢) نفسه: ١٩١.

(١٣) نفسه: ١٤١، ١٨٠، ٢٥٩.

(١٤) نفسه: ٣، ٥، ٩.

(١٥) نفسه: ٦٢.

(١٦) نفسه: ٩٩، ١٠٢، ١٠٣.

(١٧) نفسه: ١٩٣، ١٩٧، ١٩٨.

معاني تلك الأوزان[1] وفرق بين أوزان الأفعال[2] وذكر ما في بعض الأفعال من إعلال[3].

وسوى ذلك فقد احتوى كتاب الأخفش على مسائل نحوية مختلفة، ومنها ما يتصل ببناء الجملة كـ «الحذف[4] والزيادة[5] والمطابقة[6] والإعراب[7]، كما درس أنماط الجملة وتناول أساليب العربية في التعبير بالجمل الإنشائية[8] ودرس أبو الحسن دلالات الألفاظ وعالج قضاياها، فمن ذلك ما نجد لديه من دراسة المشترك[9] ودراسة الأضداد[10]. أمّا الترادف فليس غريباً أن يضم منه هذا اللغوي بين دفتي كتابه ثروة لغوية ضخمة دفعها من أجل توضيح المعاني المعجمية لألفاظ القرآن[11] ولم يفته أن يقدم تفسيرات كثيرة لبعض العبارات، لتظهر الدلالة السياقية للجملة[12]، أمّا دراسة الأصوات فقد أقامها على

---

(١) نفسه: ٣١٥، ٣١٦، ٥٣٠.

(٢) نفسه: ٤٦، ٢٢٦، ٢٢٧.

(٣) نفسه: ١٩٣ نقلاً عن المقدمة، ص: ١٠٦.

(٤) معاني القرآن: ٣٦، ٧٥، ١٣٨.

(٥) نفسه: ١١٢، ١٢٤، ١٢٥.

(٦) نفسه: ٥٥، ٨١، ٨٢.

(٧) نفسه: ٥٤، ٨٣، ٨٧.

(٨) نفسه: ٧، ٥٧، ٦٤.

(٩) نفسه: ١٤١، ١٤٢، ١٨٤.

(١٠) نفسه: ١٦٦، ٢٤٢.

(١١) نفسه: ٣١٩، ٣٤٠، ٥٣٢.

(١٢) نفسه: ٤٠٦، ٤٠٧، ٤٥٧، نقلاً عن المقدمة، ص: ١٠٧.

ملاحظتـه الذاتية أو على آراء شيوخه[1]، وفي دراسة الصرف كانت قضاياه في أكثرها تقف عند حد الرصد والحشد للظواهر الصرفية.

ولئن ابتلي النحو العربي بالاتجاهات الفلسفية والمنطقية إن كتاب أبي الحسن يكاد يخلو من هذه المؤثرات»[2].

وقد ود أن يقرب علوم العربية إلى أذهان تلاميذه، فأخذ بنظرية العامل التي سادت الدراسات النحوية في عصره، وقد ورد أثر ذلك في تفسيره[3]، ومن العلل تناول الأخفش (العلل الأوائل) تلك العلل السهلة اليسيرة[4].

وبعد هذا العرض المقتضب الذي كانت الغاية منه عرض مضمون الكتاب، وبيان مصادره، ومنهج مؤلفه في تأليفه، أرى من الضرورة إيضاح موقف الأخفش من الاحتجاج بالقراءات الشاذة، لما جاء في مقدمة محقق معاني القرآن من أن أبا الحسن «لم يكن في حاجة إلى القراءات الشاذة ليضيفها إلى ما وصل إليه من قراءة العامة وصحيح الشعر والنثر، ولو كانت به حاجة إلى نصوص يعضد بها رأيه لانصرف إلى الحديث الشريف»[5]...

والدكتور فائز فارس لم يصب – في رأيي – بهذا القول، بل تنكب الجادة وانحاز عن السداد لأن الأخفش أخذ ببعض القراءات الشاذة، واشتهر بهذا الأخذ، مخالفاً أصحابه البصريين حتى عده بعض الباحثين الإمام الأول

---

(١) مقدمة المعاني: ١٠٨.

(٢) مقدمة المعاني: ١٠٨.

(٣) معاني القرآن: ٤١٥. و مقدمة المعاني: ١٠٩.

(٤) نفسه: ٥٠٩.

(٥) مقدمة المعاني: ١١٢.

للمدرسة الكوفية التي توسعت بالقياس... ومما أجازه الأخفش أن ينوب عن الفاعل غيرُ المفعول به رغم وجوده، قياساً على قراءة أبي جعفر بن القعقاع: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1]، وفي هذه القراءة ناب الجار والمجرور (بما) عن الفاعل، مع بقاء المفعول به (قوماً) منصوباً[2].

وأما عدم احتجاج الأخفش في كتابه المعاني بالحديث الشريف فلا يقوم دليلاً على عدم احتجاجه بالقراءات الشاذة والقياس عليها في بعض الأحيان، فذلك يشكل موقفاً واحداً من مواقف اللغويين والنحاة الذين عزفوا عن الحديث الشريف في الاحتجاج لأنه – في رأيهم – قد رُوِي بمعناه لا بلفظه الأصلي، مما لا مجال للخوض فيه هنا.

---

(١) سورة الجاثية، من الآية: ١٤.

(٢) ينظر: الهمع: ١/ ١٦٢، وابن يعيش: ٣/ ٢٢، والمدارس النحوية: ٩٩.

الفصل الرابع

ما ألف في معاني القرآن بعد معاني الفراء

• أولاً: معاني القرآن [1] لأبي إسحاق الزجاج [2] (ت ٣١١ هـ):

---

(١) مخطوط في دار الكتب المصرية تحت رقم (١١١) م تفسير. وله صور من مكتبات تركيا في معهد إحياء المخطوطات بالجامعة العربية تحت الأرقام (٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢) تفسير، وهناك نسخة أخرى في دار الكتب المصرية رقمها (٦٣٦) تفسير. القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية، ص: ٢٥٥، وفي دار الكتب الظاهرية مخطوط رقم (١٨١) في (٢٤٦) ورقة، بعنوان: (معاني القرآن) للزجاج في أوله خمس ورقات ملحقة من كتاب آخر في الموضوع ذاته، ربما كان للنحاس، فقد كتب على صفحة العنوان: معاني القرآن العظيم للنحاس والزجاج / فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية، قسم علوم القرآن، د. عزة حسن، ص: ٢٩٩. والنسخة رقم (١١١)م تفسير نسبتها إلى الزجاج صحيحة، بدليل أن النصوص التي أوردها تلميذه (ابو علي الفارسي) في كتابه (الأغفال) فيما أغفله الزجاج من معاني القرآن هي النصوص نفسها التي وردت في نسخة معاني الزجاج رقم (١١١). ينظر كتاب (أبو علي الفارسي) د. عبد الفتاح شلبي، ص: ٤٧٦ – ٤٨٧. [طُبع بتحقيق عبد الجليل شلبي بعد إعداد هذا الكتاب].

(٢) هو إبراهيم بن السري بن سهل الملقب بالزجاج، إذ كان في شبيبته يخرط الزجاج، تعلم النحو على المبرد فكان أشهر تلاميذه، ثم صار مؤدباً للقاسم ولد عبيد الله بن سليمان وزير المعتضد، فكاتباً له حين غدا وزيراً بعد وفاة أبيه إلى أن توفي سنة ٣١١هـ وقيل سنة ٣١٠هـ أو ٣١٦هـ من أنبه تلاميذه أبو علي الفارسي. تنظر ترجمته في: أخبار النحويين البصريين: ٨٠-٨١. وطبقات النحويين واللغويين: ١٢١-١٢٢، والفهرست: ٩٠-٩١ وتاريخ بغداد: ٦/٨٩ - ٩٣، ونزهة الألِبَّاء: ٣٠٨ – ٣١٢، ومعجم الأدباء: ١/١٣٠-١٥١، والبلغة: ٥-٦، وبغية الوعاة: ١٧٩ - ١٨٠، وبروكلمان: ٢/١٧١.

وهذا الكتاب يشكل حلقة في سلسلة الكتب التي تنتظم في الدراسات اللغوية التي اتخذت من القرآن موضوعاً لها.

وقد اشتغل صاحبه في تأليف كتب مختلفة يتصل معظمها بالدراسات اللغوية، من هذه الكتب: (كتاب ما فُسِّر من جامع النطق، كتاب القوافي، العروض، الفِرَق، خلق الإنسان، خلق الفرس، مختصر النحو، فعلت وأفعلت، ما ينصرف وما لا ينصرف، شرح أبيات سيبويه، النوادر)[1].

على أن الكتاب الوحيد الذي خلفه الزجاج متصلاً بالدراسات القرآنية التي تنحو منحىً لغوياً في التفسير هو كتاب (معاني القرآن) هذا، ويبدو أنه كتاب نال شهرة في عصره، وكان ذا حظوة لدى العلماء حتى عرف به مؤلفه فقيل في ترجمته: «إبراهيم بن السري بن سهل... صاحب كتاب معاني القرآن»[2]. فمتى كان تأليفه؟.

لقد روي عن ابن النديم تحديد الزمن الذي تم فيه لأبي إسحاق تأليف كتاب المعاني فقال: «قرأت على ظهر كتاب المعاني: ابتدأ أبو إسحاق بإملاء كتابه الموسوم بمعاني القرآن في صفر سنة خمس وثمانين ومائتين وأتمه في شهر ربيع الأول، سنة إحدى وثلاث مئة»[3]، فهو قد بدأ في تأليفه شيخاً وانتهى منه وهو يدرج نحو الثمانين[4]. أي أنه كان في مرحلة فكرية مستقرة وناضجة، فما السبب الذي جعله يؤلف هذا الكتاب؟.

---

(١) الفهرست: ٩١. ومعجم الأدباء: ١/ ١٥١.

(٢) تاريخ بغداد: ٦/ ٨٩.

(٣) معجم الأدباء: ١/ ١٥١.

(٤) قيل: توفي سنة: ٣١٠ هـ أو ٣١١ أو ٣١٦، وقد بلغ الثمانين. انظر: (البلغة في تاريخ أئمة اللغة، ص: ٦)، وبغية الوعاة، ص: ١٨٠.

قال صاحب طبقات المفسرين: «ومن تآليف إسماعيل بن إسحاق[1]، كتاب معاني القرآن وإعرابه خمسة وعشرون جزءاً... وكتاب المعاني المذكور كان ابتدأه، أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ)، بلغ فيه إلى الحج، والأنبياء، ثم تركه فلم يكمله.

وذلك أن الإمام أحمد بن حنبل كتب إليه يقول: «بلغني أنك تؤلف كتاباً في القراءات أقمت فيه الفراء وأبا عبيدة أئمة يحتج بهم في معاني القرآن فلا تفعل، فأخذه إسماعيل، وزاد فيه زيادة وانتهى إلى حيث انتهى أبو عبيد، وتوفي فجأة سنة ٢٨٢ هـ»[2].

ويستخلص الدكتور عبد الفتاح شلبي القرائن التالية التي تحدد بدقة سبب تأليف الكتاب:

أولاً: كانت هناك صلة مودة وتعاطف بين المبرد شيخ الزجاج وإسماعيل ابن إسحاق[3].

ثانياً: يشير أبو إسحاق الزجاج إلى إسماعيل بن إسحاق هذا مثلاً عند الاحتجاج على قراءة: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾[4].

ثالثاً: آخر ما سمع من الزجاج قوله: «اللهم احشرني على مذهب أحمد بن حنبل»[5].

---

(١) هو إسماعيل بن إسحاق بن حماد بن زيد الجهضمي الأزدي، فقيه على مذهب مالك، جليل التصانيف، من بيت علم وفضل، ولد في البصرة واستوطن بغداد، وكان من نظراء المبرد وولي قضاء بغداد توفي فجأة سنة ٢٨٢ هـ انظر: الأعلام: ١/ ٣٠٥.

(٢) انظر: طبقات المفسرين، ورقة ٤٥ نقلاً عن (أبو علي الفارسي)، لعبد الفتاح شلبي، ص: ٢٧١.

(٣) معجم الأدباء: ٦/ ١٣٥.

(٤) سورة النساء، من الآية: ١.

(٥) معجم الأدباء: ١/ ١٣٠.

رابعاً: يخطىء الزجاج الفراء في معاني القرآن، ويهاجم أبا عبيدة... وأظنني بعد تلك القرائن أستطيع أن أستنتج السبب الذي من أجله ألف الزجاج معاني القرآن، مبتدئاً فيه بعيد الوقت الذي توفي فيه إسماعيل بن إسحاق، محققاً توجيهات ابن حنبل لأبي عبيد القاسم بن سلام [1].

• **منهج الزجاج في التفسير:**

لم يخرج الزجاج عن نهج أسلافه من أصحاب المعاني في طريقة التفسير، فهو يتناول الآية القرآنية فيفسر غامضها، ويوجه القراءات القرآنية، ويعلل منها ما يراه يستأهل التعليل، بحسب المذهب الذي يميل إليه.. عدته في ذلك القرآن الكريم نفسه في الدرجة الأولى، ثم الشعر العربي، فأقوال الأئمة اللغويين من شيوخه أو من السابقين الذين كان يميل إليهم. ثم يأتي الحديث الشريف في النهاية كأضعف أثر يتكىء عليه، متأثراً بمذهب المدرسة البصرية التي لا تعتد بالحديث مصدراً من مصادر الاستشهاد.

ولعل ما جعل أبا إسحاق يعتمد، أكثر ما يعتمد، على القرآن نفسه، حتى كان في ذلك ذا مزية بين أصحاب المعاني، أنه كان مشهوراً بحسن الاعتقاد وجميل المذهب[2]، وأنه كان من أهل الدين المتين[3]. وهو في ذلك إمّا أن يلجأ إلى آية من سورة أخرى يدعم بها تفسيره من مثل قوله في الآية التالية: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ**﴾[4]: «القراءة بالنصب، وقد قرئت بالخفض،

---

(١) أبو علي الفارسي: ٢٧١.

(٢) تاريخ بغداد: ٦/ ٨٩.

(٣) وفيات الأعيان: ١/ ٣١.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٦.

وكلا الوجهين جائز في العربية، فمن قرأ بالنصب، فالمعنى اغسلوا وجوهكم، وأيديكم إلى المرافق، وأرجلكم إلى الكعبين، وامسحوا برؤوسكم على التقديم والتأخير والواو جائز فيها، ذلك كما قال جلّ وعز: ﴿**يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ**﴾[1]، والمعنى: اركعي واسجدي، لأن الركوع قبل السجود»[2].

أو: «يكون اللفظ المفسَّر لاحقاً للفظ المفسِّر في آية واحدة، فيستدل بذلك على هذا بطريق الاستنتاج كما في قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**﴾[3]. قال: ادعوني: اعبدوني. والدليل: الذين يستكبرون عن عبادتي»[4].

كما يفسر اللفظ القرآني ثانياً بالشعر العربي، وأقوال الأئمة اللغويين من شيوخه أو من تأسى بهم من السابقين، وذلك قوله: «(الكلالة)[5]: سوى الولد والوالد، والدليل على أن الأب ليس بكلالة قول الشاعر:

فإن أبا المرء أحمى له ... ومولى الكلالة لا يغضب»[6]

وقد يمزج بين الاثنين: الشعر وأقوال الأئمة، فيبني عليهما تفسيره. «كما في قوله: العزة: المنعة وشدة الغلبة. قال الأصمعي: العَزَازُ النَّفَّل من

---

(١) سورة آل عمران: ٤٣.

(٢) معاني القرآن: ٥٩، نقلاً عن (القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية) ص: ٢٥٦.

(٣) سورة غافر، الآية: ٦٠.

(٤) أبو علي الفارسي: ٢٧٧.

(٥) سورة النساء، من الآية: ١٧٦.

(٦) أبو علي الفارسي: ٢٧٨.

الأرض الصَّلب الحجارة الذي يسرع منه جري الماء والسيل، فتأويل العزة الغلبة والشدة التي لا يتعلق بها إذلال، قالت الخنساء:

كــأن لم يكونــوا حمــى يتقــى   إذِ النــاسُ إذْ ذَاكَ مــنْ عَــزَّ بــزّا

أي من قَوِيَ غَلَبَ وسَلَب»[1].

بيد أنه يقف من اللغويين وآرائهم موقف المناصر الذي يعض على أقوالهم بالنواجذ، فنراه «يحكمهم ويرتضي حكومتهم في اختيار القراءات وفي التفسير القرآني، وفي مسائل الفقه، ويعد مذاهب اللغويين أقوى فـي الرد على الملحدين، وأنهم منزهون عن الوهم الكتابي في رسم المصحف»[2].

على أن ذلك لا يعني أن الزجاج من أولئك المفسرين الذين يفسرون غرائب الألفاظ، بحسب المعنى الظاهر لها، عارضين لغة القرآن وأسلوبه على لغة العرب وأسلوبها، دون أن يلقوا بالهم لما روي أو أثر عن السابقين من وجوه التفسير، بل كان ممن يجمع بين النظر في مشكل الآيات مسوقاً بالمنهج اللغوي الذي ارتضاه، وبين مراعاة التفسير المأثور فهو: «وإن مال إلى المنهج اللغوي فإنه حريص على إثبات التفسير المروي، يقول عند قوله عز وجل: ﴿**وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ**﴾[3]. وهذه الآية تحتاج إلى فضل إبانة في اللغة فأما ما روي في التفسير فمروي أن الرجل من العرب إذا أراد أن يعتان شيئاً أي يصيبه بالعين يجوع ثلاثة أيام ثم يقول للذي يريد أن يعتانه... لا أرى كاليوم إبلا وشاء وما أراد، المعنى لم أر كإبل أراها اليوم إبلا فكان يصيبه بالعين، فأما مذهب أهل

---

(١) أبو علي الفارسي: ٢٧٨.

(٢) أبو علي الفارسي: ٢٧٩ – ٢٨٠ – ٢٨١.

(٣) سورة القلم: ٥١.

اللغة فالتأويل أنهم من شدة إبغاضهم لك وعداوتهم يكادون بنظرهم نظر البغضاء يصرعونك وهذا مستعمل في الكلام... يقول القائل نظر إليَّ فلان (نظراً) يكاد يصرعني به ونظراً يكاد يأكلني منه، وتأويله كله أنه نظر إليّ نظراً لو أمكنه أكلني أو أن يصرعني لفَعَل وهذا واضح والله أعلم»[1].

ولذا فلا غرابة أن نجد أبا إسحاق يخالف النحويين في إجازتهم بعض وجوه القراءات التي لم ترو عن أحد من القراء، لأنها تتفق ووجوه القواعد النحوية، وذلك لأنه يرى أن القراءة سنة متبعة ينبغي الأخذ بها، يقول في قوله تعالى: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾[2]: «يقال هو صَدَاق المرأة، وصُدْقة المرأة، وصَدَاق المرأة مفتوح أولها، والذي في القرآن جمع صَدُقة، ومن قال: صُدْقَة، قال صُدُقاتهن كما يقول غُرْفة وغُرُفات، يجوز صَدَقاتهن، وصُدَقاتهن بضم الصاد، وفتح الدال، ولا يقرأ من هذا إلا بما قرىء به، لأن القراءة سنة متبعة، لا ينبغي أن يُقرأ فيها بكل ما يجيزه النحويون»[3].

غير أنه لا يتمسك بهذه القاعدة، بل يعود ليتأرجح بين مقاييس أهل النحو، والقراءةِ المروية التي تتأبى الخضوع لتلك المقاييس، ثم لا يلبث أن يأخذ بالقياس النحوي دون القراءة. قال في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾[4] «القراءة الجيدة نصب الأرحام... فأما الجر في الأرحام فخطأ في العربية، لا يجوز إلا في اضطرار شعر، وخطأ أيضاً في أمر

---

(١) معاني القرآن: ١٦١، ١٦٢، نقلاً عن (منهج الزمخشري في تفسير القرآن) ص: ٢٨٢ – ٢٨٣.

(٢) سورة النساء، من الآية: ٤.

(٣) معاني القرآن: ٤، نقلاً عن (القرآن وأثره في الدراسات النحوية)، ص: ٢٥٥.

(٤) سورة النساء، من الآية: ١.

الدين عظيم لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **﴿لا تحلفوا بآبائكم فكيف يكون تتساءلون به وبالرحم على هذا﴾**[1].

ولست أرى الزجاج، في ذلك، يناقض نفسه حيث يهدم قراءة مشهورة، كما يرى الدكتور عبد العال سالم مكرم [2] لأنه حين يأخذ بقراءة ويرفض وجهاً آخر روي عن أحد القراء، مستنداً إلى قواعد النحو فليس ذلك تناقضاً يقع فيه –كما يُظن من ميله إلى مذاهب النحاة ورفض قراءة مروية –بل الدافع إليه حرصه على عدم إفساد المعنى الذي أراده الله تعالى في بعض آياته، إذا ما أخذ بوجه القراءة المنقول وهو في ذلك لا يخرج من الدائرة السلفية في التفسير. فالزجاج مفسر أثري سواء في نقله المعنى الذي روي عن المفسرين أو في نقل مذاهب النحويين واللغويين البصريين، ولذلك يثْبِتُ، في الأعم الأغلب، إلى جانب تفسير المفسرين تفسير هؤلاء اللغويين والنحويين.

ومن عدة المفسر التي لا غنى له عنها الإلمام بأسباب النزول، يستعين بها على التفسير، وأبو إسحاق ممن أخذوا بهذه الأسباب وقت الحاجة، يقول في قوله تعالى: **﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾**[3]: **(إلى الكاهن والشيطان)**.

ثم يسوق قصة المنافق مع اليهودي حينما رفض المنافق حكم الرسول عليه السلام، لأنه حكم لليهودي على المنافق، وانتهى أمره بضرب عنقه على يد عمر بن الخطاب [4].

---

(١) معاني القرآن: ١، نقلاً عن (القرآن وأثره في الدراسات النحوية)، ص: ٢٥٥.

(٢) القرآن وأثره في الدراسات النحوية، ص: ٢٥٥.

(٣) سورة النساء، من الآية: ٦٠.

(٤) معاني القرآن: ٢٦، نقلاً عن (القرآن وأثره في الدراسات النحوية)، ص: ٢٥٦.

وهنا لابد لي أن أقف فأتحدث عن نهج نهجه الزجاج في تفسيره للقرآن خاصة وفي كتبه اللغوية الأخرى عامة، حتى صار خصيصة مميزة من خصائصه، وأمارة يتفرد بها عن غيره من أصحاب **(معاني القرآن)**، وأعني بهذا النهج: الاشتقاق الذي أولع به أبو إسحاق ولعاً شديداً خرج به من دائرة التفسير الأثري، فإذا هو يُرجع اللفظ إلى أصل واحد يحدد مادته ويوحي بمعناه المشترك الأصيل مثلما يوحي بمعناه الخاص الجديد، فعنده أن اللفظ لابد له من أصل يجمع بين معانيه، وإن اختلفت صيغه ومبانيه، وهو ما يعرف بالاشتقاق الصغير، مما حدا أحد الباحثين على رؤية الزجاج مشاطراً معاصره ابن دريد **(ت ٣٢٤ هـ)** نجاحه الكبير في الاشتقاق، وهذا ما يجب ألا يغفله الدارسون[١].

وأسوق على ذلك مثالاً يغني عن ذكر نظائره، ففي قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا**﴾[٢]، يقول: «الكِفْل في اللغة النصيب، وأخذ من قولهم: أكفلت البعير، إذا أدرتَ على سنامه، أو على موضع من ظهره كساءً، وركبتَ عليه، وإنما قيل له كِفلٌ، واكتفل البعير، لأنه لم يستعمل الظهر كله، وإنما استُعمِلَ نصيب من الظهر، ولم يُستعمَل كلُّه»[٣].

ولكن إفراط أبي إسحاق في اتكائه على الاشتقاق لتعليل أصل كثير من الألفاظ أثار عليه كثيراً من معاصريه، فراحوا يوجهون إليه انتقادات لاذعة ساخرين من هذا المنهج، وقد وجه حمزة بن الحسن الأصبهاني في كتابه **(الموازنة)** نقداً لاذعاً إلى الزجاج حيث قال: «كان

---

(١) أبو علي الفارسي حاشية، ص: ٢٧٦.

(٢) سورة النساء، من الآية: ٨٥.

(٣) أبو علي الفارسي: ٢٧٣، وينظر: معاني القرآن سورة النساء: ١١.

الزجاج يزعم أن كل لفظتين اتفقتا ببعض الحروف، وإن نقص حروف إحداهما عن حروف الأخرى فإن إحداهما مشتقة من الأخرى، فيقول الرجل مشتق من الرِّجل، والثور إنما يسمى ثوراً لأنه يثير الأرض... قال: وحكى يحيى بن علي بن يحيى المنجم أنه سأله: من أي شيء اشتق الجرجير؟ قال: لأن الريح تجرجره. قال: وما معنى تجرجره؟ قال: تجـرره. قال: ومن هذا قيل للحبل الجرير لأنه يُجر على الأرض، قال: والجرة لم سميت جرة؟ قال: لأنها تجـر على الأرض، فقال: لو جرت على الأرض لانكسرت. قال: فالفصيل المُجَرّ، الذي يشق طرف لسانه، لئلا يرتضع أمه، ما قولك فيه؟ قال: لأنهم جروا لسانه حتى قطعوه، قال: فإن جروا أذنيه فقطعوهما تسمية مُجَرّاً؟ قال: لا يجوز ذلك، فقال يحيى بن علي: قد نقضت العلة التي أتيت بها على نفسك»[1].

كمـا حكى ابن العلاف الشـاعر متندراً بهـذا المنهج: «يلزمه أن يقول: والدب مشتق من الدَّب، والعذب من الشراب مشتق من العذاب، والخريف من الخروف، والخنساء من... والخنثى من الأنثى، والمخنث من المؤنث...»[2].

وإذا كنت أوافق الدكتور عبد الفتاح شلبي على أن أبا إسحاق قد أصاب في بعض ما ذهب إليه من اشتقاق، وجانبه الصواب عندما بالغ في تلمس العلاقة البعيدة في اشتقاق كلمة، وارتباط معنى بمعنى فسقط في التزيد والتمحل فإني أخالفه في أن: «الباعث على هذا المذهب عند الزجاج أنه كان ضعيف العلم

---

(١) معجم الأدباء: ١ / ١٤٤ – ١٤٥ – ١٤٦.

(٢) نفسه: ١ / ١٤٧.

باللغة، فأراد أن يستر ضعفه، وأن يستوعب معانيها على هذا الوجه المقرب، بإيجاد هذه العلاقات والترابط بين الألفاظ والمعاني»[1].

لأن الزجاج قد تتلمذ في اللغة على أبي العباس المبرد مقابل درهم يعطيه لأستاذه كل يوم[2]، فكان من أنبه تلاميذه حتى عمل معلماً لأولاد بني مارقة[3]، ثم ولد عبيد الله بن سليمان[4]، وكان من يريد أن يقرأ على المبرد يعرض عليه أولاً ما يريد أن يقرأ[5]، ثم هو يردُّ عن أستاذه في غيبته[6] ويرد على ثعلب في الفصيح[7]، وليت شعري إذا كان أبو إسحاق ضعيف البصر في اللغة فبماذا بصره قوي إذاً؟ إن نظرة إلى مؤلفاته تبين مدى اهتمامه بأمور اللغة، وتؤكد ما أقول، إذ تكاد تنصرف إليها[8].

- **الزجاج والمذاهب النحوية:**

أبو إسحاق الزجاج من علماء المدرسة البصرية، وهو إلى ذلك بصري المذهب والانتماء، تظهر آثار بصريته بجلاء في كتابه **(معاني القرآن)**، وفي مواضع

---

(١) أبو علي الفارسي: ٢٧٥.

(٢) تاريخ بغداد: ٦/ ٩٠.

(٣) معجم الأدباء: ١/ ١٣١.

(٤) الفهرست: ٩٠.

(٥) نفسه: ٩٠.

(٦) معجم الأدباء: ١/ ١٣٧.

(٧) نزهة الألباء: ٣٠٩.

(٨) ينظر: الفهرست: ٩١، ومعجم الأدباء: ١/ ١٥١.

كثيرة منه تبدو كمظهر من مظاهر عصبيته، إذ ينافح عن هذا المذهب، ويعتد به، ويحتج له، وقد يبدو في هذا الكلام ما يخالف قولي عن الزجاج بأنه مفسر أثري إذ كيف يكون كذلك وهو يتعصب لبصريته؟

والحقيقة أن هذا القول يوافق ذاك، لأن الزجاج في كلا الحالين مفسر أثري أو نقلي، فهو كما يأخذ بالمروي عن المفسرين يأخذ – عدا الاشتقاق – بما ذهب إليه علماء اللغة والنحو البصريون[1].

ومن ذلك مـا أورده من قراءة **(يهدي)** في قوله تعالى: ﴿**أم من لا يَهِدّي**﴾[2]، قال: «قرأ بعضهم بإسكان الهاء والدال، وهذه القراءة مروية إلا أن اللفظ بها ممتنع، فلست أدري كيف قرىء بها وهي شاذة؟ وقد حكى سيبويه أن مثلها قد يتكلم به»[3].

أما بعضهم الذي أشار إليه بأنه قرأ بها، فهم أهل المدينة إلا ورشاً[4] فكيف يشذذها مع أنها مروية؟ ذلك أثر من آثار بصريته[5] بيد أن موقفه من القراء الكوفيين أكثر تجهماً وتضعيفاً من المدنيين. فقد رأيناه من قبل يتعجب من قراءتهم **(لا يهدي)** بإسكان الهاء والدال على شذوذها في رأيه هو، ويتلمس لهم وجهاً من كلام سيبويه، ولا يزيد. أما الكوفيون فإذا أورد قراءتهم يهدي بكسر

---

(١) ينظر: أخبار النحويين البصريين: ٨١.

(٢) سورة يونس، من الآية: ٣٥.

(٣) أبو علي الفارسي: ٢٨٦.

(٤) البحر المحيط: ٥/١٥٦.

(٥) أبو علي الفارسي: ٢٨٦.

الهاء والياء، وهي قراءة لعاصم، قال: وهي رديئة لثقل الكسر في الياء، وتسأل نفسك: أي القراءتين أثقل في النطق: القراءة المدنية وفيها التقاء الساكنين؟ أم القراءة الكوفية ومبعث الثقل فيها الكسرة في الياء؟[1].

وإذا كان موقف الزجاج من القراء الكوفيين على هذه الشاكلة، وقد قرؤوا بقراءات متواترة، فلا شك أن موقفه من نحاتهم سيكون أشد حدة مما ذكرت، فأبو إسحاق يرمي الفراء والكسائي معاً بالتقصير في التعليل في إعراب خيراً من قوله تعالى: ﴿فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ﴾[2]. ويهاجم الكوفيين جملة، وذلك عند قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾[3]، قال: «ذلك: الكاف فيه للمخاطبة واللام زائدة كسرت لالتقاء الساكنين، ولم يذكر الكوفيون كسر هذه اللام في شيء من كتبهم ولا عرفوه، وهذه من الأشياء التي كان ينبغي أن يتكلموا فيها، إذ كان ذلك إشارة إلى كل متراخٍ عنك – إلا أن تركهم الكلام أعود عليهم من تكلمهم، إذ كان أول ما نطقوا به في فعل (كذا) قد نقض سائر العربية. ثم قال: وقد بيّنا ذلك قديماً، وكان بودي أن أعرف بيانه»[4]. وإذا عدنا إلى السبب الذي دفع الزجاج إلى تأليف كتاب (معاني القرآن) وهو رفض الطريقة التي نهجها أبو عبيدة والفراء في كتابيهما، أدركنا سبب انتقاده للاثنين في مواضع عديدة من كتابه هذا، فعلى أن أبا عبيدة من علماء البصرة لم يأخذ بما أخذوا به، وفسَّر القرآن تفسيراً

---

(١) أبو علي الفارسي: ٢٨٦.

(٢) سورة النساء: ١٧٠.

(٣) سورة البقرة: ٦١.

(٤) أبو علي الفارسي: ٢٨٨

ظاهرياً بما لاح له من رأي من غير أن يعتد بالمنقول، إضافة إلى ما كان في أصله وأخلاقه من مطاعن أدت جميعها إلى انتقاده من قبل العلماء، كما أن موقف الزجاج من قراء الكوفة ونحاتها عامة والفراء خاصة صدى للخصومة الحادة التي اشتعل أوارها بين المصرين في نهاية القرن الثاني الهجري من جهة، وهو دليل من جهة ثانية على اختلاف نهج الفراء عن نهج الزجاج في التفسير في أن الأول سلفي متحرر، يأخذ بالمروي ولكنه يخضعه لمذهبه النحوي واللغوي حتى تطغى شخصيته وآراؤه في مواضع كثيرة من الكتاب على التقيد بالمنقول، بينما الزجاج لا يكاد يخرج – عدا الاشتقاق – من دائرة المفسرين النقليين.

وللزجاج في معاني القرآن وقفات بلاغية، بيّن فيها نظراته الجمالية في بعض آيات القرآن، ولكنه لم يخرج فيها عمّا تناوله ووقف عنده أبو عبيدة والفراء، بل قصر عنهما في ذلك، ففي قوله عز وجل: ﴿**قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**﴾[1]. يقول: «هذا الكلام لفظه لفظ الأمر ومعناه التهدد والوعيد، ومثله: ﴿**فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾[2]، ومثله: ﴿**فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾[3]، ومثله من الكلام قولك لمن تهدده: عد إلى ما أكره وحسبك، وأنت لست تأمره في المعنى، وإنما تتوعده وتهدده إن عاد»[4].

---

(١) سورة الزمر: ٨، تنظر الآية في معاني الفراء: ٢/٤١٦.

(٢) سورة النحل:: ٥٥، وسورة الروم: ٣٤.

(٣) سورة الكهف: ٢٩.

(٤) مناهج في التفسير: ١٠٢.

• ثانياً معاني القرآن[1] لأبي جعفر النحاس[2] (ت ٣٣٨ أو ٣٣٧ هـ)

(١) لا يوجد منه في دار الكتب المصرية سوى الجزء الأول الذي يشتمل على تفسير القرآن من سورة الحمد حتى سورة مريم. ويقع في ٢٣٢ ورقة مقاس ٢١×١٧ سم برقم ٣٨٥ تفسير، وخطه نسخي قديم ممكن القراءة يرجع إلى القرن الخامس (فؤاد السيد: فهرس مخطوطات دار الكتب المصرية: ٣/ ٧٤). وقد ذكر بروكلمان أنه تقرر طبعه في حيدر آباد: (تاريخ الأدب العربي: ٢/ ٢٧٥)، ولكن لم تظهر – في علمي – تلك الطبعة إلى الآن. وقد التبس الأمر على بروكلمان في شأن كتاب معاني القرآن هذا، فأورد له اسماً آخر هو (الجنى الداني في حروف المعاني)، وتبعه في ذلك بعض المعاصرين كالدكتور عبد الله خورشيد بري الذي ورد عنده اسم الكتاب محرفاً أيضاً إلى (الجنس الداني في حروف المعاني) – القرآن وعلومه في مصر ص: ٣٩٩ – والجنى الداني ليس للنحاس بل للحسن بن قاسم المرادي المتوفى سنة ٧٤٩ هـ وهو مطبوع في حلب سنة ١٩٧٣ م بتحقيق الدكتور فخر الدين قباوة. وأرى أن الذي أوقع بروكلمان في هذا اللبس هو انتساب النحاس إلى (المراد) أيضاً إذ اسمه: أحمد بن إسماعيل المرادي، إضافة إلى اشتراك الاثنين في التأليف في المعاني مع الفارق الواضح بين الكتابين. وقد اعتمدت – مضطراً – على ما نقله بعض الباحثين من المخطوط، للتعريف بالكتاب، وتبين الخطوط العريضة لمذهب مؤلفه ومنهجه في تأليفه. [طبع بتحقيق محمد علي الصابوني بعد إعداد هذا الكتاب].

(٢) هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل المصري المعروف بالنحاس، رحل إلى بغداد وأخذ عن الأخفش الأصغر والمبرد ونفطويه والزجاج، وعاد إلى مصر وسمع بها النسائي وغيره، وصنف كتباً كثيرة منها: إعراب القرآن، الناسخ والمنسوخ، معاني القرآن القطع والائتناف، الكافي في العربية، المبتهج في اختلاف البصريين والكوفيين، شرح القصائد التسع، شرح أبيات الكتاب. وتوفي في مصر سنة ٣٣٨ أو ٣٣٧ هـ وكان سبب موته أنه كان يقطع بحراً من العروض على شاطىء النيل فسمعه بعض العامة فقال: هذا الشيخ يسحر النيل، فركله برجله فذهب في النيل، فكان آخر العهد به. انظر: ترجمة النحاس في: طبقات النحويين واللغويين ٢٣٩ – ٢٤٠، ونزهة الألباء: ٢٦٣ – ٢٦٤، ومعجم الأدباء: ٤/ ٢٢٤ – ٢٣٠، ووفيات الأعيان: ١/ ٨٢ - ٨٣، والبلغة: ٣٠ – ٣٢، وبغية الوعاة ١٥٧، والأعلام: ١/ ١٩٩، وبروكلمان: ٢/ ٢٧٥.

يتفرد أبو جعفر النحاس عمن سلف الحديث عنهم من أصحاب المعاني بأنه مصري المولد، هجين الثقافة، فما إن فتح عينيه على العلم حتى شد رحله إلى عاصمة العلم والأدب والثقافة في تلك الآونة، ليتتلمذ على شيوخ بغداد ومؤدبيها، وينهل من زادهم ما شاء له أن ينهل، فأخذ عن المبرد والأخفش علي بن سليمان، ونفطويه، والزجاج وغيرهم، ثم عاد إلى مصر(١)، وسمع بها النسائي وغيره(٢) وما عودة النحاس إلى وطنه وقعوده للتصنيف والتأليف إلا دليل على إجازة شيوخه له، وأمارة على أنه غدا قادراً على التأليف، وأهلاً لحمل أمانة العلم إلى أهلها حتى قيل بأن مصنفاته تزيد على الخمسين(٣) وأنه كان واسع العلم، كثير الرواية، حسن التحرير(٤) صاحب الفضل الشائع، والعلم المتعارف الذائع(٥).

كما أنه ينماز عن أصحاب المعاني بجهود كبرى بذلها في علوم القرآن، فله سوى كتاب المعاني: إعراب القرآن، والقطع والائتناف (أو الوقف والابتداء)، والناسخ والمنسوخ.

ولا نكاد نعرف شيئاً عن سبب تأليف الكتاب أو زمنه، وذاك أمر ليس له في البحث أهمية تذكر، وخاصة إذا عرفنا أنه تتلمذ على الزجاج، ومن المألوف أن يتأثر التلميذ بأستاذه، فكان من سمات هذا التأثر أن ألف النحاس هذا الكتاب، ليكون آخر الكتب التي ظهرت في هذا الموضوع.

---

(١) معجم الأدباء: ٤/ ٢٢٤.

(٢) بغية الوعاة: ١٥٧.

(٣) البلغة، ص: ٣٠.

(٤) نفسه، ص: ٣٢.

(٥) معجم الأدباء: ٤/ ٢٢٦.

وقد بيّن النحاس في خطبة كتابه منهجه الذي سيسير عليه في التأليف حيث قال: «فقصدت في هذا الكتاب تفسير المعاني، والغريب، وأحكام القرآن، والناسخ والمنسوخ عن المتقدمين من الأئمة. وأذكر من قول الجلة من العلماء باللغة وأهل النظر ما حضرني، وأبين تصريف الكلمة واشتقاقها إن علمت ذلك. وآتي من القراءات بما يحتاج إلى تفسير معناه. وما احتاج إليه المعنى من الإعراب، وما احتج به العلماء في مسايل سأل عنها الملحدون. وأبيّن (ما فيه) حذف لاختصار، أو إطالة لإفهام، وما كان فيه تقديم وتأخير. وأشرح ذلك حتى يتبينه المتعلم وينتفع به كما ينتفع العالم بتوفيق الله وتسديده»[1].

إن أدنى تأمل في خطبة الكتاب يلفت النظر إلى أن صاحبها، هو في المقام الأول، رجل تفسير وفقه يهتم بما يخص القرآن الكريم من أمور شرعية، كالتفسير والأحكام الفقهية التي يتضمنها، والناسخ والمنسوخ كما أثرت عن الأئمة السابقين، ثم هو عالم لغة في المقام الثاني، يولي اهتمامه للقضايا اللغوية والقراءات والإعراب والمسائل البلاغية التي يوضح شرحها المعنى، «ويتضح من هذا المنهج أن كتابه ليس كتاب إعراب أو نحو، وإنما هو كتاب تفسير، يلم بأحكام الناسخ والمنسوخ، ويتحدث عن أحكام القرآن، ويهتم بتفسير معاني الآيات، ولا يلجأ إلى الإعراب إلا لتوضيح هذه المعاني... ولم يكثر النحاس في معانيه من مسائل النحو والإعراب لأنه ادخر ذلك لكتاب إعراب القرآن»[2]. وسوف أعرض الكتاب الذي يمثل شخصية النحاس ومذهبه من زاويتين: التفسير واللغة وما

---

(١) معاني القرآن، ظهر الغلاف، نقلاً عن (القرآن وعلومه في مصر) د. عبد الله خورشيد بري، ص: ٣٩٩.

(٢) القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية، ص: ٢٦١.

ينضوي تحت كل منهما من علوم مختلفة، وذلك كي أبين شخصية النحاس ومذهبه ومدى التزامه بالمنهج الذي رسمه لنفسه في مقدمة الكتاب.

أولاً – النحاس والتفسير:

من يقرأ تفسير أبي جعفر يدرك ما يكنه من إجلال للآراء التي رويت عن الصحابة والتابعين والعلماء من بعدهم، وفي الكتاب حشد كبير من الأسماء التي نقل عنها النحاس كعبد الله بن مسعود، وعلي بن أبي طالب، وابن عباس، وأبي العالية الرياحي... وهو في هذا لا يخرج عن دائرة التفسير بالمأثور أو المنقول، ولعل في ذلك صدى لشخصيته وأثراً لتحصيله العلمي إذ: «كان لا يتكبر أن يسأل الفقهاء وأهل النظر ويفاتشهم عمّا أشكل عليه، وكان يحضر حلقة ابن الحداد الشافعي (ت ٣٤٥ هـ) وكانت لابن الحداد ليلة في كل جمعة يُتكلم فيها عنده في مسائل الفقه على طرائق النحو، فكان لا يدع حضور مجلسه تلك الليلة.. ونزع في صدره بالاتباع للسنة والانقياد للآثار»[1] كما سمع النسائي وغيره[2].

ومن أمثلة تفسيره معاني الآيات بالمأثور ما ذكره في قوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾[3] قال: «قال علي بن أبي طالب (رضي الله عنه): الكبائر الشرك بالله، والسحر وقذف المحصنة، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والفرار من الزحف، وعقوق الوالدين، قال عبد الله بن مسعود، الكبائر: الشرك بالله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله، وأمن مكر الله...»[4].

---

(١) طبقات النحويين واللغويين: ٢٣٩ – ٢٤٠.

(٢) بغية الوعاة: ١٥٧.

(٣) سورة النساء: ٣١.

(٤) معاني القرآن: ٦٨ نقلاً عن (القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية: ص ٢٦١).

وأبو جعفر يلجأ إلى اللغة ليفسر غريب الألفاظ، مستشيراً ما ذكر عن أئمتها وأئمة التفسير في آن معاً.. ففي قوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1]، يرى ما رآه أهل اللغة في أن الربّ هو المالك مستشهداً بقول الشاعر الجاهلي الحارث بن حلزة:

وهو الرب، والشهيد على يو م الحِيَارَيْنِ، والبلاء بلاء[2]

ويضيف أبو جعفر أن أصل هذه الكلمة أنه يقال: «رَبَّه يَرَبُّه ربّاً، فهو رابّ وربّ، إذا قام بصلاحه. ويقال على التكثير: ربّاه وربَّبَه وربَّتَه. ثم يروي تفسير ابن عباس: (العالَمِين) بالجن والإنس. في حين يفسرها أبو العالية – الرياحي (ت ٩٠ هـ) - تفسيراً عليه مسحة من القصص فيقول: الجن عالَمٌ والإنس عالَمٌ، وسوى ذلك للأرض أربع زوايا في كل زاوية ألف وخمسمئة عالَم خلقهم الله لعبادته. أما أبو عبيدة فيفسرها بالمخلوقين، وينشد للعجاج: **فخندف هامة هذا العالَمِ.**

ومن هذه الأقوال جميعاً يختار القول الأول – تفسير ابن عباس – فهو أجلّ هذه الأقوال وأعرفها في اللغة، لأن هذا الجمع إنما هو جمع ما يعقل خاصة. وعالَم مشتق من العلامة، وقال الخليل (ت ١٧٥ هـ): العَلَم والعلامة والمَعْلَم: ما دل على الشيء، فالعالَم دال على أن له خالقاً ومدبراً»[3].

وكذا أمر النحاس في وقوفه على قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾[4]، حيث يقول في تفسيرها: «وقيل: كتاب لما جمع فيه، يقال: كتبت الشيء أي: جمعته،

---

(١) سورة الفاتحة: ١.

(٢) المعاني: ٢ و + ظ نقلاً عن (القرآن وعلومه في مصر) ص: ٤٠٣.

(٣) معاني القرآن: ٢ ظ نقلاً عن (القرآن وعلومه في مصر) ص: ٤٠٣.

(٤) سورة البقرة، من الآية: ٢.

والكَتْب: الخرز، وكتبت البغلة منه أيضاً، والكتيبة: الفرقة المجتمع بعضها إلى بعض. (لا ريب فيه): قال قتادة: لا شك فيه، وكذا هو عند أهل اللغة.

قال أبو العباس – المبرد – يقال: رابني الشيء إذا تبينت فيه الريبة، وأرابني إذا لم أتبينها منه، وقال غيره: أراب في نفسه، وراب غيره، كما قال:

وقد رابني قولها: يا هَنَاه ... ويحك الحقَّ وشَرّاً بِشَرّ

ومنه: دع ما يريبك إلى ما لا يريبك. ومنه: ريب المنون أي حوادث الدهر وما يستراب به»[1].

كما تظهر شخصية رجل الدين والتفسير حين يعنى أبو جعفر بتتبع المراحل التي مرت فيها أحكام القرآن الشرعية وبيان الآيات المنسوخة[2]، ولا غرو فله كتاب مستقل في الناسخ والمنسوخ كما ذكرت.

ويتوقف أحياناً عند المسائل الفقهية[3] ويحاول أن يحدد ما يعرف باسم مبهمات القرآن[4] وهو لا يرى بأساً في أن يوضح تفسيره بشيء من القصص والإسرائيليات[5] أو ذكر أسباب النزول[6].

وفي أثناء التفسير، يتعرض النحاس لما يمكن أن يتساءل عنه الملحدون من معاني بعض الآيات، فيأتي بالسؤال، ثم يقدم الجواب، مما يحفظه من أقوال العلماء في قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**

---

(١) معاني القرآن: ٥، ونقلاً عن المرجع نفسه: ٤٠٦ – ٤٠٧.

(٢) ينظر مثلاً: معاني القرآن: ٥ ظ، ١٥ ظ -١٧ و - ٢٤، ونقلاً عن المرجع نفسه ص: ٤١٦.

(٣) ينظر مثلاً معاني القرآن: ١٦ و ٣١ظ نقلاً عن المرجع نفسه، ص: ٤١٦.

(٤) ينظر مثلاً معاني القرآن: ٢٧ ظ، ٢٨ ظ - المرجع نفسه، ص: ٤١٦.

(٥) ينظر مثلاً معاني القرآن: ٢ ظ، ١١ ظ، ٢٧ ظ، ٢٨ و المرجع نفسه، ص: ٤١٦.

(٦) ينظر مثلاً معاني القرآن: ١٣ و ١٣ ظ، ١٥ ظ، ٢٩ و المرجع نفسه، ص: ٤١٦.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1]. يروي عن الضحاك قوله: الظلمات: الكفر، والنور: الإيمان ومَثَّلَ الكفرَ بالظلمات والإيمانَ بالنور.

ولا يَقْنَع أبو جعفر بهذا القول البسيط فيثير تساؤلاً – لعله من تساؤلات الملحدين – يقول: «ما معنى: (يخرجونهم من النور إلى الظلمات)، ولم يكونوا في نور قط؟

والجواب – عنده – أنه يقال: رأيت فلاناً في خارج الدار وإن لم يكن خرج منها، وأخرجته من الدار: جعلته في خارجها. وكذا: أخرجه من النور: جعله خارجاً منه وإن لم يكن كان فيه.

ثم يذكر، أنه قيل: هذا تمثيل، لَمَّا صُرِفوا عنه كانوا بمنزلة من أُخْرِج منه. كما يقال: لم أخرجتني من صلتك؟

وقيل: لما ولدوا على الفطرة – وهي أخذ الميثاق وما فُطروا عليه من معرفة الله عز وجل – ثم كفروا كانوا قد أخرجوا من النور.

ثم يذكر أبو جعفر أن الأخفش قال: «﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[2]: ثم يحكم بأنهم كذلك تقول: قد أخرجكم الله من هذا الأمر ولم تكونوا فيه قط».

ولا يُعْجِبُ هذا التفسير أبا إسحاق (الزجاج) الذي يقول: «ليس هذا بشيء، إنما هو يزيدهم بإيمانهم هدى، وهو وليهم في نجاحهم وهدايتهم، وفي نصرهم على عدوهم، ويتولى ثوابهم»[3].

---

(١) سورة البقرة: ٢٥٧.

(٢) سورة البقرة: ٢٥٧.

(٣) معاني القرآن: ٢٧ ظ، نقلاً عن (القرآن وعلومه في مصر) ص: ٤١٤ – ٤١٥.

ثانياً – النحاس واللغة:

قد يكون للتصريف عامة والاشتقاق خاصة اهتمام بارز من النحاس ربما طغى على اهتماماته الأخرى في كتاب **(معاني القرآن)**، فقلما نلاحظه يترك كلمة عند التفسير من غير أن يقلب تصريفها ويبحث عن أصلها بالاشتقاق، وليس ذلك طارئاً عنده إذا عرفنا أن له كتاباً يختص بالاشتقاق وهو **(الاشتقاق لأسماء الله عز وجل)**[1]، ولعل سبب هذا الاهتمام هو تلمذته على الزجاج الذي مـرّ بنا شغفه الزائـد بالاشتقاق حتى وصف بأنه **(ضعيف البصر باللغة)**[2]**.** وأطلق على اشتقاقه شنيع الاشتقاق**.**

وفي مواضع كثيرة من الكتاب يطالعنا بما يُقبل منه في تخريج أصـول بعض الكلمات، فحـين يتحدث عن أصل كلمة **[اسم]** يذكر أن في اشتقاقه قولين**:** «أحدهما أنه من السمو – وهو العلو والارتفاع – فقيل**:** اسم، لأن صاحبه بمنزلة المُرتَفَع به**.** وقيل**:** هو من**:** وسمت، فقيل**:** اسم، لأنه لصاحبه بمنزلة السمة، أي يعرف به**...** والقول الثاني خطأ لأن الساقط منه لامه فصح أنه من سما يسمو»[3]**.** وهو هنا لا يعدو أن يعرض رأي الكوفيين والبصريين في هذه المسألة[4] ثم يميل إلى رأي البصريين ويستعين بما أضافـه أحمد بن يحيى ثعلب **(ت ٢٩١ هـ)** من جديد يؤكد ما ذهب إليه النحاس، والذي ذكره ثعلب ونقله عنه أبو جعفر أنه قال**:** «**سِمٌ**، وسَمٌ**.** ويقال**:** اسم،

---

(١) معجم الأدباء**:** ٤ **/** ٢٢٨، والبغية**:** ١٥٧**.**

(٢) معجم الأدباء**:** ١ **/** ١٥٠**.**

(٣) معاني القرآن**:** ١ ظ نقلاً عن **(** القرآن وعلومه في مصر **)** ص**:** ٤٠٠**.**

(٤) ينظر في هذه المسألة**:** الإنصاف في مسائل الخلاف، المسألة**:** ١**.**

بكسر الألف، ويقال بضمها، فمن ضم الألف أخذه من: سموت أسمو، ومن كسرها أخذه من: سَمَيْت أسْمي»[1].

إلا أن لهاثه المستمر وراء الاشتقاق وولعه الزائد فيه لتبيان أصول كثير من الكلمات، أوقعه في الشطط والتمحل والتخليط في بعض الأحيان، وكأن لا دراية له بالعربية وأصولها.. ولعل أطرف مثال يمكن أن يستشهد به في هذا المجال، استغراقه في بيان اشتقاق كلمتي التوراة والإنجيل غير العربيتين في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾[2]. فيقول: «قال البصريون: توراة أصلها: فَوْعَلَة مثل حَوْقَلَة. ومصدر فَوْعَلْتُ: فَوْعَل والأصل عندهم: وَوْرَيَه فقلبت الواو الأولى تاء، كما قلبت في (تَوْلج) وهو فَوْعَل من: ولجت، وفي قولهم: تالله، وقلبت الياء الأخيرة ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها».

وقال الكوفيون: «توراة تصلح أن تكون تَفْعَلَة، وتَفْعِلة قلبت إلى تَفْعَلَة، ولا يجوز عند البصريين في توفية توفاة.. ولا يكاد يوجد في الكلام تفعَلَة إلا شاذاً.

وإنجيل من: نجلت الشيء إذا أخرجته، فإنجيل خرج به (دارس) من الحق، ومنه قيل لولد الرجل نجله، كما قال:

إلى معشرٍ لم يورث اللؤمَ جـدُّهم أصاغِرَهُم، وكل فَحْلٍ لـه نجـل

---

(١) معاني القرآن: ١ ظ نقلاً عن (القرآن وعلومه في مصر) ص: ٤٠٠.

(٢) سورة آل عمران: ٣-٤.

قال ابن كيسان: إنجيل إفعيل من النَّجل، ويقال نَجَلَه أبوه أي جاء به، ويقال: نجلت الكلأ بالمنجل، وعين نجلاء: واسعة. وكذا: طعنة نجلاء، وجمع الإنجيل: أناجيل. وجمع التوراة: توارٍ»[1].

سامح الله أبا جعفر الذي لم يتورع عن إلحاق التعسف الشديد بحق اللغة نتيجة ولعه الذي لا يحد بالاشتقاق، وثقته المطلقة بما قاله بعض القدماء الذين كانوا ممن استهوتهم الحذلقات اللفظية فتوهموا لكل كلمة وزناً أو جعلوا لها أصلاً! فما لكلمتي (التوراة والإنجيل) الدخيلتين والأوزان العربية؟! وأي قياس وأي شذوذ يمكن أن يطبق عليهما وهما من دخيل الألفاظ؟. إن ابن السراج قد حذر في رسالته من مثل هذا الاشتقاق حيث قال: «مما ينبغي أن يحذر كل الحذر أن يشتق من لغة العجم، فيكون بمنزلة من ادعى أن الطير ولد الحوت»[2].

وأما القراءات فلها من النحاس اهتمام كبير، إذ هو لا يفتأ يتوجه إليها بين الحين والآخر، يستعين بها على إثبات وجه، أو تفسير معنى، عارضاً بعض أوجه القراءات المتواترة، مدلياً بتعليلاته لما يؤثره منها.

وقد ذكرت، عند الحديث عن منهج النحاس في التفسير، أنه يجل ما أثر عن الصحابة والتابعين والعلماء من تفسير الذكر الحكيم، من دون أن يخرج من هذه الدائرة السلفية، وكذا أمره في عرض القراءات القرآنية، فهو يورد ما نقل منها عن القراء السبعة أو العشرة المشهورين، ولكنه لا يكتفي بذلك، بل تظهر شخصية اللغوي والنحوي الذي يبسط رأيه في توجيه القراءات المتواترة، فيعلل وجوهها بما يسعفه من حجة لغوية أو نحوية.. ليكون قد مزج بين منهج القراء

---

(١) معاني القرآن: ٣٤ ظ نقلاً عن (القرآن وعلومه في مصر) ص: ٤١٢.
(٢) المزهر: ١/ ١٦٧.

الذين يعتمدون على الرواية بنصها الحرفي، لأن القراءة – عندهم – سنة متبعة لا يجوز الخروج عليها.. ومنهج عالم النحو واللغة الذي أخذ بنحو القراءات، فعلل لها تعليلاً مستفيضاً وبنى عليها كثيراً من الأحكام والقضايا اللغوية والنحوية، من غير تعصب أو تعنت للقياس.

وليس هذا مما يفجأ الدارس فالنحاس هو مقرىء أيضاً، أتقن القراءة دراية ورواية، فقرأ على نخبة من القراء أمثال أبي بكر بن يوسف التجيبي[1] (ت ٣٠٧ هـ) الذي انتهت إليه الإمامة في قراءة (ورش) وأبي بكر محمد بن أحمد عمر الداجوني الكبير[2] (ت ٣٢٤ هـ)، وابن شنبوذ، محمد بن أحمد (ت ٣٢٨ هـ) شيخ اقراء العراق[3].

وهو إذ يمر بقوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾[4]، يورد أنه يقرأ: [مَلِك]، ولكن أبا حاتم السجستاني (ت٢٥٠ هـ) اختار: مالك لأنه أجمع[5] من مَلِك، لأنك تقول إن الله مالك الناس، ومالك الطير، ومالك الريح، ومالك كل شيء من الأشياء، ونوع من الأنواع، ولا يقال: الله ملك الطير، ولا ملك الريح، ونحو ذلك. إنما يحسن: (ملك الناس) وحدهم... ثم يذكر أبو جعفر أن: «جلة أهل اللغة – منهم أبو عبيد (ت ٢٢٤ هـ) وأبو العباس المبرد – خالفوا أبا حاتم في ذلك محتجين

---

(١) طبقات القراء: ١ / ٤٤٥.

(٢) نفسه: ٢ / ٥٢.

(٣) نفسه: ٢ / ٧٧.

(٤) سورة الفاتحة: ٤.

(٥) أي: أعم وأشمل. ينظر: (السبعة في القراءات لابن مجاهد) ص: ١٠٤، وحاشية الصفحة نفسها رقم (٢)، حيث جاء معنى مَلِك أعَمّ من كلمة مالك، على عكس رأي أبي حاتم السجستاني.

بقوله تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾[1]، والمُلْك مصدر المَلِك، ومصدر المالك مِلْك بالكسر. ويصف أبو جعفر هذا الاحتجاج بأنه حسن، مضيفاً أن حجة أبي حاتم لا تُلْزِم لأنه إنما لم يُستعمل: ملك الطير والرياح لأنه ليس فيه معنى مدح»[2].

وإذا ما لجأ إلى القراءات ليفسر بها معنى ما، حالفه التوفيق في أغلب الأحيان، ففي تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾[3] يورد: «ما ذهب إليه إبراهيم من أنها نزلت في الربا، وما ذهب إليه الربيع بن خيثم الكوفي (ت قبل ٩٠ هـ) من أنها لكل معسر يُنْظَر. وقول ابن خثيم، عند أبي جعفر – حسن لأن القراءة بالرفع بمعنى: وإن وقع ذو عسرة من الناس أجمعين، فإن كان فيمن تطالبون أو تبايعون ذو عسرة ولو كان في الربا خاصة لكان النصب الوجه، بمعنى: وإن كان الذي عليه الربا ذا عسرة... على أن المعتمد قد روي عن حجاج الوراق قال: في مصحف عثمان: «وإن كان ذا عسرة» والمعنى: فعليكم النظرة، أي التأخير، إلى أن يوسر»[4].

ومن هذا القبيل ما قاله في الآية: ﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾[5]: «روى عن ابن مسعود، وابن عباس، ويحيى بن يعمر أنهم قرؤوا: [لا يُفَرِق] بمعنى: كل لا يفرق أي لا يفرق الرسول والمؤمنون بين أحد من رسله... ومن قرأ بالنون فالمعنى عنده قالوا: لا نفرق بيت أحد من رسله، أي: لا نؤمن ببعض ونكفر ببعض، ويدل على النون: ربنا»[6].

---

(١) سورة غافر: ١٦.
(٢) معاني القرآن: ٢ ظ - ٣ و، نقلاً عن (القرآن وعلومه في مصر) ص: ٤٠٣ – ٤٠٤.
(٣) سورة البقرة: ٢٨٠.
(٤) معاني القرآن: ٣١ و، نقلاً عن (القرآن وعلومه في مصر) ص: ٤١٥.
(٥) سورة البقرة: ٢٨٥.
(٦) معاني القرآن: ٣٣ ظ، ونقلاً عن (القرآن وعلومه في مصر) ص: ٤١٥ – ٤١٦.

ثم هو بعد ذلك يسخر الإعراب في خدمة المعاني حيث تدعو الحاجة، فيبسط آراء الأئمة الذين أخذ عنهم، أو سمع لهم، من غير أن تكون له شخصية واضحة أو رأي يدلي به ويحتج له، ولعله ادخر هذا لكتابه **(إعراب القرآن)** ومن الأمثلة ما يقوله في توجيه قوله تعالى ﴿**الْحَمْدُ للهِ**﴾[1] فيورد رأي سيبويه أولاً وهو: «إذا قال الرجل الحمد لله بالرفع، ففيه من المعنى في مثل ما في قوله: حمدت الله حمداً، إلا أن الذي يرفع [الحمد] يخبر أن الحمد منه ومن جميع الخلق لله تعالى. والذي ينصب [الحمد] يخبر أن الحمد منه وحده لله تعالى.

ويعجب ابن كيسان **(ت ٢٢٩هـ)** برأي سيبويه هذا، ويصفه بأنه: «كلام حسن جداً» ويعلله نحوياً بأن قولك: [الحمد لله] مخرجة في الإعراب مخرج قولك: المال لزيد، ومعناه أنك أخبرت به. وأنت تعتمد أن تكون حامدا لا مخبراً بشيء ففي إخبار المخبر بهذا إقرار منه بأن الله تعالى مستوجبه على خلقه، فهو أحدُ مَنْ يَحْمَدُه إذا أقر بأن الحمد لله.. فقد آل المعنى المرفوع إلى مثل معنى المنصوب، وزاد عليها **(عليه)** بأن جعل الحمد الذي يكون عن فعله وفعل غيره لله تعالى.

وقال غير سيبويه: إنما يُتكلم بهذا تعرضاً لعفو الله تعالى ومغفرته وتعظيماً له وتمجيداً، فهو خلاف معنى الخبر وفيه معنى السؤال، وفي الحديث: «من شغل بذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين». وقيل: إن مدحه نفسه – جل وعز – وثناءه عليه ليعلم ذلك عباده، فالمعنى على هذا: قولوا: الحمد لله وإنما عيب مدح الآدمي نفسه لأنه ناقص، فإن قال: أنا جواد، فثَمَّ بُخل، وإن قال: أنا شجاع، فثم جبن. والله تعالى بائن من ذلك، وأيضاً فإن الآدمي إنما يمدح نفسه ليجتلب منفعة أو يدفع مضرة، والله تعالى غني عن هذا»[2].

---

(١) سورة الفاتحة: ١.

(٢) معاني القرآن: ٢ و + ظ نقلاً عن (القرآن وعلومه في مصر) ص: ٤٠٢.

ثم هو لا ينى يذكر بعض الأمور البلاغية التي يمر بها في التفسير كالتقديم والتأخير، والزيادة، والحذف التي اجتمعت في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1].

والمجاز في مثل: ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾[2]، يقول في قوله: (ليحكم بين الناس) وهو مجاز مثل: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾[3]، ولاشك أن مثل تلك اللفتات البلاغية كان قد أطنب فيها المفسرون الذين قبله، وأصبحت معروفة شائعة عند النحاس ومعاصريه.

وبعد ذلك يمكنني القول إن كتاب (معاني القرآن) للنحاس لم يكن في مستوى كتب المعاني التي سبقته ولاسيما كتب الفراء والأخفش وأبي عبيدة التي عجت بالقضايا اللغوية والمسائل النحوية التي حشد لها أصحابها جهدهم ليثبتوا ما ذهبوا إليه، وليكون لهم صوتهم البارز المتميز.

ولكن لا يمكنني –في الوقت نفسه– أن أغمط أبا جعفر حقه فأقول: إن كتابه (معاني القرآن) له الفضل في أنه احتوى قدراً كبيراً من آراء العلماء الذين ضاعت كتبهم، أو ضاع منها ما يتصل بهذا الموضوع ككتب معاني القرآن للكسائي وقطرب وابن كيسان والمبرد... فكان النحاس أميناً في نقل الآراء وعزوها لأصحابها مما جعل كتابه مصدراً لكل من يريد الاطلاع على مضامين الكتب التي عصفت بها يد الدهر... كما أنه التزم بالمنهج الذي رسمه لنفسه في المقدمة، فكان في ذلك علمي المنهج واضح الفكر.

---

(١) سورة الفاتحة: ٥. ومعاني القرآن: ٣ و.

(٢) سورة البقرة: ٢١٣.

(٣) سورة الجاثية: ٢٩. ومعاني القرآن: ١٢ و- نقلاً عن (القرآن وعلومه في مصر) ص ٤١٤.

الفصل الخامس

موقع كتاب الفراء بين كتب المعاني

بعد أن عرضت سبب تأليف الفراء لكتابه وما تضمنه هذا الكتاب، وبيّنت أن كتباً كثيرة قد أُلفت قبله وبعده في هذا الموضوع، بما فيها مجاز القرآن، وكان أصحابها من العلماء الأفذاذ المشهود لهم في هذا الميدان كأبي جعفر الرؤاسي **(ت ١٨٧ هـ)** والكسائي **(ت ١٩٣هـ)** ومحمد بن المستنير المعروف بقطرب النحوي **(ت ٢٠٦ هـ)** وأبي عبيدة معمر بن المثنى اللغوي **(ت ٢١٠ هـ)** والأخفش الأوسط **(ت ٢١٥ هـ أو ٢٢١ هـ)** وأحمد بن يحيى ثعلب **(ت ٢٩١ هـ)** والزجاج **(ت ٣١١ هـ)** والنحاس **(ت ٣٣٨ هـ أو ٣٢٨ هـ)** وغيرهم، يلوح لي سؤال أراه هنا يفرض نفسه بقوة وهو: ما أهمية كتاب **(معاني القرآن)** للفراء بين نظائره؟ وما موقعه وسط هذا الخضم من مؤلفات هذا الموضوع؟

وقد يكون من الصعب تقويم كتاب الفراء، ووضعه في الموضع الذي يستحق بين أقرانه لو أن جميع الكتب التي أُلفت في **(معاني القرآن)** قد أفلتت من يد الزمن... ومع ذلك فليست الإجابة عن هذا السؤال سهلة ميسرة كما يظن، لأن معظم هذه الكتب إنما تبرز واحدة من النواحي أو أكثر وتهمل

أخرى، إما لعدم اكتراث المؤلف بها لأنه أفرد لها كتاباً آخر، أو لعدم قدرته على معالجتها، أو لأنها لم تسترع جانباً من اهتمامه.

ولكن سوف أحاول تقويم كتاب صاحبنا أبي زكريا الفراء ووضعه في المكان الذي يستأهل، بعد أن أعرض للسمات التي يتسم بها كل من الكتب التي مرت بنا لأن الكتب الأخرى لا تزال مجهولة المصير، وأجري موازنة بينه وبين الكتب المذكورة.

*** أبو عبيدة في مجاز القرآن:**

كان لاهتمامه باللغة وغريبها في القرآن الحظ الأوفى في تفسيره، ولا أراني في حاجة إلى التدليل خشية التكرار، لأنني قد دللت على هذا الجانب حيث تحدثت عن الجانب اللغوي في مجاز القرآن.. وبذا فقد ظهر أبو عبيدة عالماً باللغة، خبر غريبها ودرى لهجات العرب دراية واسعة.

أما الجانب الثاني الذي يتلو في أهميته العلم باللغة وغريبها فهو العديد من المسميات البلاغية التي كان له الفضل في أنه وضع يده عليها عندما راح يكشف غامض التنزيل، وإن كان بعض هذه المسميات مقتضباً وغائماً في ذهن أبي عبيدة، لأنه لم يفسره التفسير الوافي الذي تلاه في مرحلة لاحقة، «فأبو عبيدة يمثل المنهج اللغوي الخالص الذي يعرض لغة القرآن وأسلوبه على لغة العرب وأسلوبها دون رعاية لتفسير أثري أو نقلي»[1]. ولذا فقد: «ندر أن يستشهد في تفسيره بحديث للرسول (ﷺ) أو ينقل عن صحابي مما جعل الطبري ينعته بضعف المعرفة بتأويل أهل الحديث»[2].

---

(١) منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه: ٢٨٣.

(٢) منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه: ٢٨٢. وينظر: تفسير الطبري: ١/ ٤٤.

وقد رأينا كيف أثار بكتابه (المجاز) موجة عاصفة من الانتقادات التي وجهها إليه علماء عصره ومن تلاهم لأن منهجه في التفسير قد اعتمد على اللغة ففسر الآيات تفسيراً ظاهرياً كما بدت له بحسب حسه اللغوي ودرايته أسرار اللغة وغريبها، من غير أن يراعي المأثور أو المنقول من وجوه التفسير التي رويت عن الصحابة والتابعين والعلماء الذين سبقوه، كما لم يكن للخصومة الدائرة بين الكوفة والبصرة أثر عنده.

*** الأخفش الأوسط في معاني القرآن:**

والأخفش الأوسط عالم من علماء اللغة والنحو المرموقين ولا غرو فقد أخذ علمه عن سيبويه وأخذ يقرىء كتابه بعد وفاته، وكان الكسائي واحداً ممن أخذوا عنه هذا الكتاب، بيد أن الأخفش في كتاب (المعاني) يهتم بالتفسير اللغوي أيضاً أكثر من اهتمامه بالنحو ووجوه الإعراب على الرغم من علو منزلته في هذا الباب بين علماء عصره، وعليه فقد أقام تفسيره، هو الآخر، على أساس لغوي، فبرز عنده اهتمامه بترادف الألفاظ فكان منها ثروة لغوية ضخمة في الكتاب، وذلك في أثناء تفسيره المعجمي لغريب مفردات القرآن من غير إغفال معانيها من خلال السياق، وأما الخلافات بين البصرة والكوفة فلا أثر لها في كتابه أيضاً... وقد أخذ بنظرية العامل لإيضاح ما أتى به، وإن أخذ بالعلل فبتلك السهلة البسيطة التي سماها الزجاجي (العلل التعليمية)، وهو لم يستشهد بالحديث الشريف والأمثال آخذاً بالمبدأ الذي سار عليه أغلب النحاة المتقدمين في عدم الاستشهاد بهما.

*** الزجاج في (معاني القرآن):**

الزجاج مفسر نقلي، سواء في نقله المعنى الذي روي عن المفسرين أو في نقل مذهب اللغويين في التفسير والتوجيه، ولذا فلا عجب في أن يثبت أبو إسحاق تفسير المفسرين وتفسير اللغويين جنباً إلى جنب، والقراءة عنده سنة متبعة لا يجوز تجاوزها إلى قراءة أخرى تتفق ووجوه العربية، لأنها لم ترو عن أحد من القراء، وإذا ضعَّف وجها من القراءات المروية، فلحرصه على عدم فساد معنى التنزيل.

«وإذا ما عمد الزجاج مفسراً بجهده الذاتي، فإنه أولاً يفسر القرآن بالقرآن عملاً بالقاعدة المتبعة في التفسير (القرآن يفسر بعضه بعضاً)»[1]، ثم الشعر العربي، فأقوال الأئمة اللغويين، أما الحديث الشريف فاتكاؤه عليه قليل، متأثراً بما سار عليه المتقدمون عامة، والمدرسة البصرية خاصة.

أما اهتمامه في هذا الكتاب فيبدو بالنحو في المقام الأول، وقد اشتهر الزجاج في هذا الميدان، في حين تأتي اللغة في المرتبة الثانية، على الرغم من كثرة مؤلفاته اللغوية، وقد مرّ بنا كيف طعن في منهجه الاشتقاقي.

وعلى الرغم من كونه مفسراً نقلياً، فهو حين يحتكم إلى اللغة يرتضي بحكومة علماء المدرسة البصرية، وكثيراً ما تناول الكوفيين عامة، والفراء خاصة بالنقد.

*** أبو جعفر النحاس في (معاني القرآن):**

يهتم اهتماماً كبيراً بالغريب، فلا يكاد يترك كلمة غريبة من دون أن يوضح معناها، وقد أفاد من أبي عبيدة في مجازه ونقل عنه... وكذا الأمر في

---

(١) مناهج في التفسير: ١٠١.

تقليب وجوه القراءات، أما الاشتقاق والتصريف فقد اهتم بهما اهتماماً لم يرق إليه أحد من أسلافه، فاعتنى عناية فائقة بتصريف الكلمات وبين أصولها بالاشتقاق، حتى بلغ الغاية وتجاوز الحد فوقع في التمحل والتخليط مثلما تزيد أستاذه الزجاج قبله في الاشتقاق كما مرّ من قبل، ولكن من دون أن يبلغ مبلغ النحاس.

ثم يأتي ذكر الإعراب في المرتبة الثانية، حيث يحتاج إليه إيضاح المعاني... فالإعراب عنده خادم للمعنى حيث تدعو الحاجة.

وهو فقيه تظهر شخصيته في هذا المجال في عنايته بالأحكام الفقهية، والناسخ والمنسوخ، والرد على ما سأل عنه الملحدون.

ومن هذا شأنه لا بد أن يغلب عليه تفسير القرآن بالمأثور... وذاك كان شأن النحاس، إذ لم يخرج عن الدائرة السلفية، سواء في تفسيره أو في عرض القراءات القرآنية، وتعليل وجوهها.

دراسات موازنة

١ - بين مجاز أبي عبيدة ومعاني الفراء:

ثمة وجوه تشابه ووجوه اختلاف بين كل من الكتابين، وذلك نتيجة التكوين العلمي لكلا الرجلين، والظروف التي مرت بكل منهما، وكذلك النشأة.

فمن أوجه التشابه:

١- أن الكتابين قد ألفا في سبب واحد وغاية واحدة، أي بسؤال موجه لأبي عبيدة والفراء، فكانت الإجابة عن السؤال تأليف هذين الكتابين، بغية تبيان أساليب القرآن المختلفة التي نزل بها ليخاطب الناس جميعاً على اختلاف فئاتهم ومشاربهم.

ويمكن أن يقال إن الكتابين هدفا إلى شرح أساليب القرآن لغير العلماء، وللذين لم يخبروا أساليب العرب ولغاتهم، هذه الأساليب التي نزل عليها القرآن فتماشت ولغة العرب وأساليبها، وإذا كان إبراهيم بن إسماعيل بن داوود أحدُ كتاب الوزير الفضل بن الربيع قد سأل أبا عبيدة عن معنى قوله تعالى: ﴿**طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ**﴾[1]، فجاء السؤال سبباً لوضع

---

(١) سورة الصافات: ٦٥.

كتاب المجاز[1]، فإن الفراء، هو الآخر، وضع كتاب المعاني بناء على طلب عمر بن بكير صاحب الوزير الحسن بن سهل، لأن هذا الأخير كان لايزال يسأل ابن بكير عن أشياء من القرآن لا يحضره جواب عنها[2].

٢ – كلا الكتابين كان له أثر في الوقت الذي ظهر فيه وما تلاه، فأفاد منهما المفسرون وردوا لهما بعض الآراء في التفسير واللغة، وأكثر ما يظهر ذلك في تفسير الطبري، وفي مواضع كثيرة ومتفرقة من تفسيره العظيم: (جامع البيان).

٣ – مثل الكتابان، أيضاً ذروة النضج الفكري والعلمي لأبي عبيدة والفراء، إذ كانا في أواخر أيامهما، كما كان كتاباهما أشهر ما ظهر، في هذا الموضوع، في نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث[3].

٤ – كانت الطريقة العامة واحدة، وذلك في تناول الآيات المشكلة بترتيب تنازلي كما وردت في القرآن، والاستعانة باللغة والنحو والأخبار التاريخية والأدبية والقراءات، وأسباب النزول كلما دعت الحاجة، وكذلك أيضاً لم يلتزم كلاهما الموالاة في عرض كتاب الله، فهما يتناولان تفسير كلمة أو جملة من آية، ثم يتخطيان بعض أحرف بعدها، ليعودا إلى التحدث في تفسير مشكل جديد من آية جديدة.

---

(١) انظر: طبقات النحويين واللغويين: ٩٧، وتاريخ بغداد: ١٣/ ٢٥٤، ومعجم الأدباء: ٧/ ١٦٦، وبغية الوعاة: ٣٩٥، وضحى الإسلام: ٢/ ٣٠٤-٣٠٥ وبروكلمان: ٢/ ١٤٣.

(٢) انظر: طبقات النحويين واللغويين، ص: ١٤٥.

(٣) ينظر: رواية اللغة، ص: ١٨٨ – ١٨٩.

ومع ذلك فهناك أوجه اختلاف بين الكتابين تتمثل فيما يلي:

١ – ما أثاره كتاب المجـاز من ضجة في الأوساط المختلفة لم يثره كتاب الفراء، وليس السبب في ذلك عائداً إلى أهمية كتاب أبي عبيدة، بقدر ما هو عائد إلى أسباب مختلفة تتصل بأصل أبي عبيدة، وأخلاقه، وطريقته في التفسير مما مرّ بنا من قبل، وكان الفراء أول المتقدين الذين شنوا على أبي عبيدة حملة شعواء[١].

٢ – لم تظهر عند أبي عبيدة آثار بصرية، لأنه يعتمد الرأي الحر والتفكير المستقل عما أصَّلته مدرسته البصرية، على حين كان تعصب الفراء للمذهب الكوفي واضحاً في مواضع كثيرة من معاني القرآن، حتى وسم به فكان كتاب مذهب.

٣ – أبو عبيدة يمثل المنهج اللغوي الخالص الذي يعرض لغة القرآن وأسلوبه على لغة العرب وأسلوبها دون رعاية لتفسير أثري أو نقلي[٢]، أما الفراء فيحرص على أن يثبت بجانب التفسير اللغوي تفسير المفسرين النقليين، وإن كان المقدم عنده التفسير اللغوي[٣].

٤ – يطغى الجانب اللغوي على كتاب أبي عبيدة، وقد رأيناه لغوياً في المقام الأول، بينما النحـو عنده أضعف الجوانب، على عكس الفراء الذي تظهر في كتابه شخصية النحوي في الدرجة الأولى. ومما يؤكد ذلك (بحث الفراء عن الفاء في جواب – أما – في قوله تعالى: ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ**﴾[٤] وهي الآية نفسها التي توقف أمامها أبو عبيدة، وإن لم تشغله قضية الفاء،

---

(١) ينظر مثلاً: معاني القرآن: ١/٨، ومجاز القرآن: ١/٢٥.

(٢) منهج الزمخشري في تفسير القرآن: ٢٨٣.

(٣) نفسه: ٢٨٢.

(٤) سورة آل عمران: ١٠٦.

وهذا هو الفارق بين لغوي كأبي عبيدة يبحث عن استواء العبارة وبين نحوي كالفراء يبحث عن استواء القاعدة. يقول الفراء: «إن – أما – لا بد لها من الفاء جواباً فأين هي؟ فيقال: أنها كانت مع قول مضمر، فلما سقط القول أسقطت الفاء معه، والمعنى – والله أعلم – فأما الذين اسودت وجوههم فيقال: أكفرتم، فسقطت الفاء مع (فيقال) والقول قد يضمر، ومنه في كتاب الله شيء كثير»[1].

٥ – واسم الكتاب (معاني القرآن) لم يكن أول اسم أطلق على كتاب في دراسات من هذا النوع كما كان المجاز مثلاً[2].

٦ – لأبي عبيدة فضل الريادة في (علم البيان) بما سماه مجازاً في كتابه (مجاز القرآن)[3]، ولكن الفراء أضاف كثيراً مما أغفله، ووضح وعمق الكثير أيضاً مما مسه مساً خفيفاً، كما علل بعض القضايا البلاغية التي لم يعللها أبو عبيدة فكان في ذلك أكثر نضجاً وأدق حسّاً في استشفاف ما له صلة بالبلاغة، في أثناء التفسير، من أبي عبيدة، وهذه نقطة تسجل للفراء وتستأهل التوسع فيها عند الحديث عن الجوانب البلاغية في معاني القرآن.

---

(١) الاتجاه العقلي في التفسير: ١٠٥ – ١٠٦، وينظر: معاني القرآن: ١/٢٢٨ – ٢٢٩، وينظر: أيضاً المعاني: ١/٨، في ردّ الفراء على أبي عبيدة القائل بزيادة (لا) في (ولا الضالين) لأن زيادة (لا) عند الفراء تقتضي تطبيق القاعدة النحوية المستوجبة وجود النفي قبلها.

(٢) أثر القرآن في تطور النقد العربي، ص: ٤٨.

(٣) ينظر: علوم البلاغة العربية، ص: ٧ و ص: ٢١٥.

وبعد تلك الموازنة هل بالإمكان قول كلمة في المفاضلة بين كتاب أبي عبيدة وكتاب الفراء؟.

إن نظرة إلى نقاط الاختلاف بين الكتابين تجعلنا نجد معاني القرآن كتاباً أهم من كتاب المجاز، وموقعه الذي ينماز به بين كتب اللغة لا يتوافر لكتاب أبي عبيدة، وهو بالتالي يَفْضُلُ كتاب المجاز للأمور التالية:

١ – إذا كان كتاب المجاز يبرز في اللغة وغريبها لأن صاحبه قد شهد له في هذا المجال، فإن الفراء أيضاً يبدو في كتاب المعاني علياً بلغات العرب، خبيراً بلغاتها وغريبها، وهو في ذلك لا يقل شأواً عن أبي عبيدة، فحين يرد على أبي عبيدة في زيادة (لا) في قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْـمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾[1] نراه يلجأ إلى الشاهد نفسه الذي احتج به أبو عبيدة وهو قول الراجز:

في بئـــرِ لا حـــورٍ سَرَى ومـــا شَـــعَرْ[2]

فيسعفه علمه باللغة في تفسير البيت إذ كانت كلمة (حور) – بفتح الحاء – تعني المصدر من حار بمعنى رجع ففسر البيت على أساس ذلك، كما تعني أيضاً – بضم الحاء – الهلاك[3] وهو المعنى الذي أخذ به أبو عبيدة[4].

---

(١) سورة الفاتحة: ٧.

(٢) المجاز: ١/ ٢٥ – ٢٦، والمعاني: ١/ ٧ – ٨.

(٣) القاموس المحيط مادة: الحور.

(٤) لم يأخذ أبو عبيدة لفظة (حور) بمعنى النقصان، كما جاء في الحاشية /٣/ من معاني القرآن: ١/ ٨، وإنما أخذها بمعنى الهلكة. وليست كلمة (حور) – المصدر – من المشترك اللفظي الذي أخذ بمعنييه: الهلكة والرجوع كل من أبي عبيدة والفراء – كما يقول د. عبد الحميد شلقاني – لأن المعنى الأول لفظته مضمومة الحاء، بينما المعنى الثاني لفظته مفتوحة الحاء. ينظر: رواية اللغة: ١٨٨، والقاموس المحيط، مادة: الحور.

٢ – إن أبا عبيدة ظهر ضعف علمه بالنحو، فكان هذا الجانب ضئيلاً لا يكاد يذكر عنده، وقد رأينا كيف أقرّ في غير موضع وبشكل غير مباشر بعدم قدرته على الخوض في مسائل النحو ووجوهه، كما أقرّ غيره من العلماء بضعف بصره في النحو، بينما نرى الفراء في كتابه عالماً متضلعاً من أمور النحو ومسائله[١]، له شخصيته وآراؤه التي يستقل بها حتى عن أستاذه الكسائي وبعض علماء الكوفة من النحويين والقراء، ولا غرابة أن يكون كذلك، فهو أبرع الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب[٢]، بل هو رأس الطبقة الثالثة من نحاتهم[٣] حتى لقب بأمير المؤمنين في النحو[٤]، وكتابه هذا يُعد الكتاب الجامع الأول لمذاهب أهل الكوفة في النحو واللغة.

٣– ومن البداهة أن يتبع ذلك عدم توسع أبي عبيدة في إيراد وجوه القراءات المتعلقة بالوجوه النحوية، وقليلاً ما يعلل تلك الوجوه، في حين تبدو شخصية الفراء النحوية جلية في هذا الجانب، حيث لا يكاد يدع وجهاً من الوجوه له صلة بنحو القراءات إلا ويذكره معللاً، وكيف لا يفعل والقراء علماء يقرؤون بمذاهب العربية، وكل منهم يجري على سمت من سموتها؟

---

(١) ينظر مثلاً: رد الفراء على أبي عبيدة في زيادة **(لا)** في المعاني: ١/٧-٨ وتأييد الطبري لما ذهب إليه في تفسيره: ١/-٦١ نقلاً عن مجاز القرآن: ١/٢٥، الحاشية: ٤.

(٢) وفيات الأعيان: ٢/٣٣٨.

(٣) طبقات النحويين واللغويين: ١٤٣.

(٤) ضحى الإسلام: ٢/٣٠٧.

من ذلك مثلاً حديثه عن قراءتي الرفع والنصب في (فيضاعفه) من قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَّ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾[1]، ويترك الحديث عن القراءات الأخرى المختلفة التي لا تتصل بالنحو في أية حال من حيث حذف الألف في هذه الكلمة، وتشديد العين [2].

٤ – إذا كان أبو عبيدة قد ألف كتابه في مسألة بلاغية في الآية: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾[3]، فإن هذا الجانب لم يوله الأهمية الكبرى، لأن اهتمامه الأول كان بالتفسير اللغوي، ومع ذلك فإن له فضلاً لا ينكر في ريادة علم البيان [4]، وقد علل ما وقف عنده من أمور بلاغية حيناً، وأشار إليها إشارة أحياناً. أما الفراء فقد أضاف الكثير مما أغفله أبو عبيدة، كما علل في مواضع كثيرة الأسباب التي وردت بها المسائل البلاغية فكان في ذلك أكثر نضجاً من أبي عبيدة، كما كان كتابه أجمع من كتاب المجاز في الجوانب البلاغية أيضاً.

• هل تأثر الفراء بأبي عبيدة في كتابه؟

لقد مرّ بنا كيف أحدث كتاب المجاز دوياً بين العلماء، جعلهم يشنون عليه الحملات العنيفة، لأسباب ذكرت في موضعها، وكان الفراء واحداً ممن حملوا على أبي عبيدة وسفهوا أقواله في مواضع متفرقة من (معاني القرآن) ونعته بنعوت مختلفة من مثل: «وقد قال بعض من لا يعرف العربية».

---

(١) سورة البقرة: ٢٤٥.

(٢) السبعة في القراءات: ١٨٤ – ١٨٥.

(٣) سورة الصافات: ٦٥.

(٤) ينظر: علوم البلاغة العربية، ص: ٧ و ٢١٥.

بيد أن الإنصاف يقتضي الإشارة إلى أن بعض العلماء، الذين شاركوا في الهجوم على أبي عبيدة، أفادوا منه وأخذوا ببعض ما ذهب إليه كالأخفش الأوسط مثلاً كما رأينا، فهل تأثر الفراء بكتاب المجاز؟

إن الموازن بين كتابي أبي عبيدة والفراء لا يلمس أي تأثر أو نقل من قبل الفراء عن مجاز القرآن، وإذا كان ثمة تأثر فبالمنهج العام الذي اتبعه أبو عبيدة في المجاز، وهو تناول المشكل من التنزيل وبطريقة تنازلية كما وردت في القرآن، مع علمنا بأن كتباً سبقت أبا عبيدة في هذا المجال سقطت من يد الزمن، يبدو أنها اتبعت الأسلوب نفسه الذي كان أشبه بسنة متبعة.

٢- بين معاني الأخفش الأوسط ومعاني الفراء:

ما قيل في (مجاز القرآن) لأبي عبيدة يقال في (معاني القرآن) للأخفش الأوسط في جانب، ولا يقال فيه في جانب آخر... فالأخفش الأوسط يلتقي في كتابه مع المجاز في أنه يهتم بالغريب والتفسير اللغوي في الدرجة الأولى، وهو في ذلك يتأثر بمجاز القرآن ولا ينكر علو كعب أبي عبيدة في هذا المجال في قول الرواية: «قال أبو حاتم: كان الأخفش قد أخذ كتاب أبي عبيدة في القرآن فأسقط منه شيئاً وزاد شيئاً، وأبدل منه شيئاً. قال أبو حاتم: فقلت له: أي شيء هذا الذي تصنع؟ من أعرف بالغريب أنت أو أبو عبيدة؟ فقال: أبو عبيدة، فقلت: هذا الذي تصنع ليس بشيء، فقال: الكتاب لمن أصلحه، وليس لمن أفسده»[1].

وهو من ناحية ثانية يختلف عن المجاز في أن صاحبه يولي النحو ووجوهه، سواء في القراءات أو غيرها، اهتمامه الثاني، ليس لضعف بصره

---

(١) طبقات النحويين واللغويين: ٧٤ – ٧٥.

في النحو كما ظهر عند صاحب المجاز، بل لطبيعة الكتاب ووجهته، فالأخفش إمام من أئمة النحو ورجالاته المعروفين أخذ عن سيبويه[1] وأقرأ كتابه بعد وفاته[2] كما يختلف عن المجاز في أن الأخفش لا يلتفت للقضايا البلاغية التفات أبي عبيدة لها.

أما الفراء – كما رأينا – فإن الجانب النحوي في كتابه أوضح الجوانب، ثم اللغوي، فالبلاغي وهو فيها جميعاً أوسع معالجة من كتاب الأخفش وأعظم شأناً، ولذا فلا عجب أن يفضُلَ كتابَ الأخفش، على أنه لا ينكر منزلة الأخفش بين علماء عصره حتى يقدمه على نفسه حيث روي: «أن الفراء دخل على سعيد بن سالم فقال: قد جاءكم سيد أهل اللغة وسيد أهل العربية، فقال الفراء: أما مادام الأخفش يعيش فلا»[3].

ولكننا حكمنا على الرجل من باب المفاضلة بين كتابي الأخفش والفراء ليس غير، أما كتبه الأخرى وآراؤه المتناثرة في بطون كتب اللغة والتراجم، فلا علاقة لنا بها هنا.

- **هل تأثر الفراء بالأخفش في كتابه (معاني القرآن)؟**

إن بعض الروايات المثبتة في كتب التراجم تدل على أن الفراء قد تأثر في جزءمن كتابه بـ(معاني الأخفش) ومن هذه ما روي على لسان أبي الحسن الأخفش قائلاً: «... فلما اتصلت الأيام بالاجتماع سألني (أي الكسائي) أن

---

(١) انظر: البغية: ٢٥٨، والبلغة: ٨٧، وبروكلمان: ٢/١٥١.

(٢) انظر: أخبار النحويين البصريين: ٣٩ – ٤٠، ومعجم الأدباء: ١١/٢٢٩.

(٣) معجم الأدباء: ١١/٢٢٧.

أؤلف له كتاباً في معاني القرآن فألفت كتاباً في المعاني، فجعله إمامه وعمل عليه كتاباً في المعاني، وعمل الفراء كتاباً في ذلك عليهما»[1].

وأمام هذه الرواية نرى اعتراف الأخفش بتأثر كل من الكسائي والفراء بكتابه الذي كان سابقاً لهما، وكتاب الكسائي لا مجال للحديث عنه من زاوية تأثره بكتاب الأخفش أو تأثيره بكتاب الفراء لأننا لا نعرف عنه شيئاً، أما كتاب الفراء فيمكن أن نقول فيه شيئاً فهل فيه ملامح تأثر بكتاب الأخفش؟

بمقدورنا تحديد ذلك من خلال القرائن التالية:

١ – في آية واحدة يتناول كل من الأخفش والفراء جانباً لم يتناوله الآخر ومسألة لم يقف عندها، من هذا القبيل قوله تعالى: **﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾**[2].

فعلى حين يقف الأخفش عند همز فاء **[**المآب**]** ثم يتناول تصريف هذه الكلمة ليحدد أصلها محتجاً بالقرآن نفسه، نرى الفراء يقف على **[**القناطير المقنطرة**]** ليبين معنى القناطير ومفردها وكذلك معنى المقنطرة. ولكن ما يجمع بين الاثنين أنهما يعالجان المسألة من باب التصريف[3].

---

(١) طبقات النحويين واللغويين، ص: ٧٠. ومعجم الأدباء: ١١/٢٢٩. وبغية الوعاة: ٢٥٨.

(٢) سورة آل عمران: ١٤.

(٣) وينظر مثلاً في كتابي الأخفش والفراء، الآية ٣٦ من سورة البقرة حيث تناول كل منهما جانباً لم يتناوله الآخر.

٢ – وأحياناً لا يتناول الفراء البتة الآيات التي تناولها الأخفش، كما يتناول آيات لم يقف عليها الأخير.

فمِمّا تناوله الأخفش مثلاً ولم يجد الفراء ما يدعوه لتناوله قراءة (تشابه) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾[١] وتفسير كلمة [نُنشِزُها] وتبيان قراءاتها في ضوء الاشتقاق الأصغر في قوله تعالى: ﴿وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا﴾[٢]. وكذلك: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[٣].

ومما وقف عليه الفراء ولم يقف عليه الأخفش قوله تعالى: ﴿كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ﴾[٤] وغيرها كثير.

٣ – ولكن قد تتلاقى وجهات نظرهما في الوقوف على قراءة أو أكثر، فيعللان ويفضلان القراءة نفسها، وإن كان رفض الفراء لوجه القراءة أكثرحدة من أبي الحسن الأخفش، فهو يرى الوجه الذي لا يتفق وقواعد النحو المطردة فيه قبح، بينما الوجه الذي يوافق اطراد القاعدة وكثرتها، عند أبي الحسن، أحسن من القليل المسموع غير المطرد.. ومثال ذلك قول الأخفش عند تفسير: ﴿الذي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾[٥]. قال الله تعالى: ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ منصوبة، أي: اتقوا الأرحام. وقال بعضهم: والأرحام، جر، والأول أحسن، لأنك لا تجري الظاهر المجرور على المضمر المجرور.

---

(١) سورة البقرة: من الآية ٧٠.

(٢) سورة البقرة: من الآية ٢٥٩.

(٣) سورة الفاتحة: من الآية ٥.

(٤) سورة آل عمران: من الآية ٤٩.

(٥) سورة النساء: الآية ١.

لقد قدم الأخفش القاعدة النحوية المطردة في القياس، في وجه القراءة الذي اختار واستحسن، وكذلك يفعل الفراء ولكنه يتوسع في ضرب الشواهد والأمثلة لتعليل وجهة نظره، قال: «وقوله: ﴿**الذي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ**﴾ فنصب الأرحام، يريد واتقوا الأرحام أن تقطعوها. قال: حدثنا الفراء، قال: حدثني شريك بن عبد الله عن الأعمش عن إبراهيم أنه خفض الأرحام، قال: هو كقولهم: بالله والرحم، وفيه قبح، لأن العرب لا ترد مخفوضاً على مخفوض، وقد كني عنه، وقدقال الشاعر في جوازه:

نعلق في مثل السواري سيوفنا وما بينها والكَعْبِ غُوط نفانف[1]

وإنما يجوز هذا في الشعر لضيقه...»[2].

والاثنان لا يخرجان عن إجماع معظم القراء على قراءة: الأرحام بالنصب، بينما يجدان في قراءة ما قرأ بها إلا واحد من القراء السبعة، وجهاً غير حسن أو قبيحاً، لخروجها على القياس واطراد القاعدة[3].

وإذا كان لموقف الأخفش في استحسان قراءة / والأرحام بالنصب ما يسوغه لأنه يتوافق والمذهب البصري الذي لا يجيز جر الظاهر المعطوف

---

(١) السواري: جمع سارية، وهي الأسطوانة (العمود) شبه أنفسهم بالسواري لطول أجسامهم. والغوط – بضم الغين – جمع غائط، وهو المطمئن من الأرض، ونفانف جمع نفنف بوزن جعفر وهو الهواء بين الشيئين. انظر: الإنصاف: ٤٦٥، حاشية البيت: ٢٩٣.

(٢) معاني الفراء: ١/ ٢٥٢ – ٢٥٣.

(٣) قرأ حمزة وحده: (والأرحامِ) خفضاً. وقرأ الباقون (الأرحامَ) نصباً. انظر: السبعة في القراءات: ٢٢٦.

على ضمير مجرور من غير إعادة عامل جر المعطوف عليه إلا في ضرورة الشعر، فإن في موقف الفراء في استقباح عطف المخفوض الظاهـر على المكني (الضمير) موقفاً بصرياً، لأن الكوفيين أجازوا العطف على الضمير المخفوض[1] في غير ضرورة.

ولا نستطيع أن نقول إن الفراء تأثر في موقفه هذا برأي الأخفش في معاني القرآن، لأن الأخير ليس من تأسس النحو البصري على يديه، بل إنه تلميذ يونس بن حبيب البصري، كما أنه قرأ كتاب سيبويه، وحين مات وجد تحت رأسه، وعلى هذا فإن أصل المورد واحد لكليهما. قال الجاحظ: «قدمت بغداد قدمة، ولم يكن معي شيء أهديـه إلى محمد بن عبد الملك الزيات، فلما خرجت من السفينة سمعت منادياً ينادي: من أراد أن يحضر بيع كتب الفراء فليحضر... فلما بيعت كتبه رفع فراشه الذي كان ينام عليه ليباع، فوجد تحت وسادته كتاب سيبويه، فنودي عليه، فبالغت فيه، واشتريته وأهديته إلى محمد بن عبد الملك الزيات فسر به، وقال: شهد الكتاب عندي على مقدار سيبويه، ودلني على فضله الفراء إذ نظر فيه»[2].

٤ – وقد يورد كلاهما قراءتين من غير أن يرجحا قراءة على أخرى لأنهما تستويان عندهما أمام قواعد العربية، يقول الأخفش: «وقال: ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾[3]، إذا جعل القبس بدلاً من الشهاب، وإن أضاف الشهاب إلى القبس لم ينون الشهاب، وكل حسن». أما الفراء فيورد القراءتين ذاكراً أصحابهما معللاً وجهاً واحداً ليس غير.

---

(١) ينظر في مسألة العطف على الضمير المخفوض. الإنصاف: المسألة: ٦٥.

(٢) إنباه الرواة: ٤ / ٨.

(٣) سورة النمل: الآية ٧.

وقوله: «﴿أو آتيكم بشهاب قبس﴾: نون عاصم والأعمش في الشهاب والقبس وأضافه أهل المدينة: (بشهابِ قَبَسٍ) وهو بمنزلة قوله: ﴿ولدارُ الآخرة﴾ مما يضاف إلى اسمه إذا اختلف أسماؤه»[1].

وبعد ذلك يمكن القول إن الفراء لم يتأثر في كتابه (المعاني) تأثراً واضحاً ومباشراً بما جاء في كتاب الأخفش، إذ لم يَرِد ذكره في كتاب الفراء، كما أن ما اختلفا في تناوله من الآيات المشكلة يوضح شخصية الفراء المستقلة، وأن اتفاقهما أحياناً على رأي واحد في مسألة واحدة إنما هو لأخذ الاثنين بالقياس والاطراد من جهة، واستقائهما من منبع واحد من جهة أخرى، وإذا كان ثمة تأثر عند الفراء، حسب رواية الأخفش السالفة، فبالمنهج العام المتبع في تأليف كتب المعاني جميعاً، والذي كان أشبه بسنة متبعة عند مؤلفي هذا الموضوع.

٣ – بين معاني الفراء ومعاني الزجاج:

ثمة جوانب مشتركة بين الرجلين في كتابيهما، مثلما أن هناك نقاطاً يختلف فيها الاثنان. فمما يشتركان فيه:

١ – المنهج العام في تفسير القرآن، والمتجلي في تناول القرآن بترتيبه التنازلي ثم الاعتماد على القرآن، فالشعر العربي فأقوال الأئمة، فالحديث الشريف.

٢ – بروز الجانب النحوي، في الدرجة الأولى، عند كل من الفراء والزجاج، يدل على أن كليهما رجل نحو في المقام الأول، وإن كان صوت الفراء النحوي أقوى من صوت الزجاج.

---

(١) معاني الفراء: ٢/٢٨٦.

٣ – اعتمادهما على المأثور في التفسير، وإن اختلفت درجة هذا الاعتماد بين الواحد والآخر.

ومما يختلفان فيه:

١ – لا يخرج الزجاج في نقل أقوال الأئمة اللغويين والنحاة عمّا ذهبت إليه المدرسة البصرية ورجالها، حتى درجة التعصب أحياناً، بينما الفراء إمام لغة كوفي ويعتد، في الأعم الأغلب، بما ذهب إليه أعيان المدرسة الكوفية.

٢ – الزجاج مفسّر نقلي، لا يكاد يبرح – إلا في الاشتقاق – ما أثر عن المفسرين وأئمة اللغة البصريين، مما جعل شخصيته خافتة وصوته ضعيفاً في هذا الكتاب، على عكس الفراء الذي لم يُغْفِل آراء السلف ولكنه كان يتحرر منها ويخالفها ليدلي برأيه ويُسمِع صوته، وقد مرّ بنا أن القراءة عند الزجاج سنة متبعة لا يجوز تركها والقراءةُ بما يجيزه النحويون، على حين لا يمانع الفراء، عربية، بوجه قراءة لم يقرأ به، لموافقته القياس. وقوله: ﴿**وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ**﴾[١] أهل الحجاز يقولون: جنبني، هي خفيفة. وأهل نجد يقولون: أجنبني شره وجنبني شره، فلو قرأ قارىء (وأجنبني وبني) لأصاب ولم أسمعه من قارىء[٢]. وقد يستقبح قراءة مأثورة[٣] أو يصف أصحابها بالوهم[٤].

وعليه فالزجاج نقلي متزمت، والفراء عقلي متحرر حتى من آراء أستاذه الكسائي في مواضع عديدة من معاني القرآن.

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٣٥.

(٢) معاني الفراء: ٢/ ٧٨.

(٣) معاني القرآن: ١/ ٢٥٢ – ٢٥٣.

(٤) معاني القرآن: ٢/ ٧٥ – ٧٦.

٣ – شخصية الفراء أقوى ومعالجته أوسع من معالجة الزجاج لقضايا النحو واللغة والبلاغة جميعاً، وقد ذكرت من قبل أن تلميذ الزجاج أبا علي الفارسي ألف كتاب **(الأغفال)** ليتعقب أستاذه، ويستدرك عليه ما فاته.

وبعد تلك الموازنة يمكن القول إن كتاب الزجاج دون مستوى معاني قرآن الفراء للأسباب التي ذكرت، ونظرة إلى أوجه الخلاف بين الكتابين تثبت هذا الرأي، ولا حاجة إلى التكرار.

• هل تأثر الزجاج بالفراء في معاني القرآن؟

قد أظلم الفراء إذا قلت: إن الزجاج لم يتأثر به في كتابه معاني القرآن، وقد ذكرت أن كتاب الفراء كان سبباً من الأسباب التي دفعت الزجاج إلى تأليف كتابه، لذلك يلحظ المرء، حين يقرأ كتاب الزجاج، مواضع كثيرة يرد فيها أقوال الكوفيين والكسائي عامة، وأقوال الفراء خاصة. فهو يهاجم الكوفيين جملة – كما مرّ بنا – كما: «يرمي الفراء والكسائي معاً بالتقصير في التعليل في إعراب خيراً من قوله تعالى: ﴿**فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ**﴾[1] من قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ**﴾[2].

على أننا قد نجد الزجاج، في مواضع قليلة، يأخذ في تفسيره ما أخذ به الفراء ورواه[3] وإن لم يشر صراحة إلى الفراء، وهذا يعني أن الفراء أثر تأثيراً ما بالزجاج في كتابه، سواء بما نقله عنه ووافقه فيه، أو بما خالفه فيه وردّه عليه، وذلك يدل على

(١) سورة النساء: من الآية ١٧٠.

(٢) أبو علي الفارسي: ٢٨٨، وينظر: رده على الفراء وتخطئته له في تفسير **(مثليهم)** في معاني الفراء: ١ / ١٩٤، والحاشية / ١ / من الصفحة نفسها.

(٣) ينظر مثلاً: القلم، آية: ٥١ في معاني الفراء: ٣/ ١٧٩، ومعاني الزجاج: ١٦١، ١٦٢.

كتابه، سواء بما نقله عنه ووافقه فيه، أو بما خالفه فيه وردّه عليه، وذلك يدل على الصدى الذي أحدثه كتاب الفراء، والمكانة التي كانت لصاحبه بين العلماء.

٤ – بين معاني الفراء ومعاني النحاس:

لا أجانب الحقيقة إن قلت: لا يكاد يوجد تشابه بين كل من الفراء والنحاس في تفسيريهما إلا من جانب واحد هو الطريقة التي نهجها كل منهما، وأعني تناول القرآن حسب ترتيبه، ومع ذلك فهناك أوجه اختلاف متعددة بين الرجلين جعلت النحاس يقف على آيات لم يقف عليها الفراء[1]، أو يتناول في بعض الآيات جوانب لم يتناولها سلفه[2]، وهذا يتوافق – كما ذكرت – ونشأة الرجل وتكوينه العلمي والمدرسة التي يدين بآرائها، ولا غرو بعد ذلك أن يرد في غير موضع من كتابه على أبي زكريا الفراء، شأنه شأن أستاذه الزجاج.

ولعل الفارق الأكبر، ليس بين الكتابين المذكورين وحسب بل بين كتاب النحاس وكتب معاني القرآن عامة، هو أن أبا جعفر طغى على كتابه الجانب التفسيري السلفي المحض لاهتمامه في تفسير القرآن بالجوانب الشرعية أكثر من اهتمامه بالأمور اللغوية والنحوية والبلاغية، وكثيراً ما وجدناه يقف على المراحل التي مرت فيها أحكام القرآن الشرعية وبيان الآيات الناسخة والمنسوخة، كما يقف على المسائل الفقهية وما عرف باسم مبهمات القرآن، ويرد على الملحدين[3].

---

(١) ينظر مثلاً: سورة البقرة، الآية: ٢٥٧، وآل عمران، الآيتان: ٣-٤.

(٢) ينظر مثلاً في كلا التفسيرين: سورة النساء، آية: ٣١، والبقرة، آية: ٢

(٣) ينظر: (النحاس والتفسير) من هذا الكتاب .

وقد توضح هذا في خطبة الكتاب التي رسم فيها النحاس خطته التي سيسير عليها والجوانب التي سيهتم بها، فأولى التفسير والأمور الفقهية والشرعية الاهتمام الأكبر، ليأتي بعد ذلك تناول بعض قضايا اللغة والتصريف. أما النحو والإعراب فحضورهما لا يقاس بما ذكرت، لأن النحاس أفرد كتاباً خاصاً بإعراب القرآن.

على حين لم يتعرض الفراء للأمور الفقهية والمسائل الشرعية إلا لماماً، لأن الرجل نحوي ثم لغوي وبياني في المقام الأول، لذلك قصر جلّ اهتمامه على هذه الأمور جميعاً لأن هذه وجهته وتلك ميزة إمام كبير من أئمة المدرسة الكوفية، وعليه فلا غرابة في أن يتحرر، في أحيان كثيرة، من أقوال السلف فيخالفهم الرأي ليكون له رأي يدلي به، وصوت يسمعه الآخرين وإذا كان هذا أمر الكتابين فلا بد أن يَفْضُلَ كتابُ الفراء كتابَ النحاس لأمرين:

الأول : جعل النحاس كتابه أقرب إلى كتب تفسير المعاني والفقه وأحكام القرآن منه إلى كتب اللغة والإعراب.

والثاني: خفوت صوت النحاس وعدم بروز شخصيته فيما قدمه في الكتاب من وجوه التفسير، إذ كان مفسراً نقلياً، في الأعم الأغلب، لم يخالف السلف فيما ذهبوا إليه، فهو يكن إجلالاً عظيماً للعلماء الذين سبقوه، في الوقت الذي تتلمذ فيه على أبي إسحاق الزجاج البصري، فحمل معه أيضاً شيئاً من آثار المذهب البصري دليلاً على تأثر التلميذ بأستاذه، فرد بعض أقوال الفراء.

ولكن لا يمكن إنكار فضل الكتاب في احتوائه قدراً كبيراً من الكتب، وآراء المؤلفين التي طواها الزمن.

الباب الثاني

منهج الفراء في معاني القرآن

تمهيد

لعل أهم جانب يمكن أن يقف عليه دارسو التراث العربي، ويتناولوه بالبسط والتحليل، هو المنهج الذي كان يتبعه أصحاب تلك الأعمال التراثية الضخمة في مؤلفاتهم، هذا المنهج الذي يتخطى حدود الزمان والمكان، ويكشف عن التوجه العقلي الذي يصدر عنه الكاتب في كتاباته، وبالتالي يدل على مكانة العمل التراثي والأثر الذي خلفه في عصره وما بعد عصره، ويجلو مذاهب المؤلفين من آثارهم، ويبين مدى حضور شخصية كل منهم في عمله المدروس أو غيابها.

فالمنهج يعني هذه الجوانب مجتمعة وهي:

الجانب الفكري الذي كان وراء الأثر، والطرق التي لجأ إليها المؤلف في حشد آرائه وعلومه كالاستشهاد والسماع والقياس والتعليل... يضاف إليها مدى قوة شخصية المؤلف في عرض آرائه ومناقشة آراء الآخرين ممن عاصروه أو تقدموه، وطريقته وأسلوبه في عرض تلك الآراء.

والباحث الحق، والعالم النحرير، هو ذاك الذي تكون له آراؤه واجتهاداته، فيقبل أو يرفض ما أتى به الآخرون معللاً وجهات نظره، مستنداً إلى الأدلة والبراهين، كي يستطيع إقناع غيره، وإثبات ما يذهب إليه.

أما ذلك الذي يعمد، في مؤلفاته، إلى نقل آراء سواه، ويكتفي بها من دون أن تكون له شخصية يستقل بها، ووجهات نظر تمثل تلك الشخصية، فأحرى به أن يسمي نفسه دارساً لا باحثاً ولا عالماً، لأن دوره لم يَعْدُ، في هذه الحال، دور الوسيط أو الناقل لما قاله غيره، وعليه فهو لا يستحق أن تؤلف فيه الكتب أو تقام حوله الدراسات، لأنه ليس بذي منهج أصلاً.

وأبو زكريا الفراء ليس من هؤلاء النقلة الذين اكتفوا بالاعتماد على السلف، وإنما هو إمام كبير من أئمة المدرسة الكوفية، بل الإمام الأكبر والصوت الأقوى، له آراؤه التي انفرد بها، وتناثرت في بطون كتب اللغة والتراجم والمعاجم، وله مصطلحاته، وخلافه في بعض المسائل النحوية واللغوية مع كثير من العلماء ومنهم أستاذه الكسائي، ولا تثريب على التلميذ في أن يخالف أستاذه الرأي حين يكون أهلاً لهذا الخلاف، وقد كان ذلك أمراً مألوفاً بين رجالات العربية، فمثلما خالف الفراء الكسائي وهما كوفيان، تعقب المبرد سيبويه وهما بصريان، كما تعقب أبو علي الفارسي أستاذه الزجاج في كتاب **(الأغفال)**.

وإذا كان شأن الفراء كبيراً، وموقعه بارزاً بين أئمة اللغة وعلمائها فمن الحري أن أصف منهجه، وأتناوله بالتحليل، لمعرفة الطرق التي نهجها في تأليف الكتاب، والمقومات التي كان يعتمد عليها في إرساء القواعد، وذلك من خلال الحديث عن منهجه في: التفسير، والقراءات، واللغة، والصرف، والجوانب البلاغية، ثم أقف على منهجه في النحو لبيان أصوله ومقاييسه، ومذهبه النحوي، وأخيراً أعرض لأسلوبه وطريقته في عرض الكتاب.

ولكن لابد من الإشارة قبل ذلك إلى أن هذه العلوم جميعاً قد تختلط فيما بينها في كثير من المواضع في كتاب الفراء، وهو ليس بدعاً في هذا الأمر، فحاله كحال الدراسات اللغوية المبكرة التي لم تكن تخصص كتباً مستقلة لكل نوع من فروع علوم اللغة، كما صار عليه الأمر في مراحل لاحقة، وهذا ما سيبين لنا عند الوقوف على طريقة الفراء وأسلوبه في عرض الكتاب.

كما أن كتب معاني القرآن عامة يمكن وصفها – بما تضمنته من علوم مختلفة – بأنها كتب وسط بين كتب الأعاريب وكتب التفاسير القرآنية، لأنها تقع بين بين، وما يدور فيها لا يعدو أن يكون منضوياً، في أقسامه كافة، تحت هذين القسمين.

الفصل الأول

أ – الفراء والتفسير:

إن من يتصدى لتفسير القرآن لا بد له من عدة يتملكها، ويمسك بناصيتها، قبل أن يشرع في وضع سوداء على بيضاء، والفراء من العلماء المشهود لهم، الذين توافرت فيهم شروط المفسرين، فهو يلم بأسباب النزول، التي لا غنى للمفسر عن معرفتها، لتكون عوناً له في تفسير ما استغلق تفسيره. يقول في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّـهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾[1]: «أسند الإيمان إلى الأحياء من المؤمنين، والمعنى فيمن مات من المسلمين قبل أن تحول القبلة، فقالوا للنبي (ﷺ): كيف بصلاة إخواننا الذين ماتوا على القبلة الأولى؟ فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّـهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ يريد إيمانهم...»[2].

كما يعلم بالناسخ والمنسوخ في القرآن فيشير إليهما حيث يكونان، وقد يذكر الناسخ في مثل: «وقوله: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾[3]، دليل

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

(٢) معاني القرآن: ١/٨٣، ولمزيد من الأمثلة ينظر مثلاً: ١/٩٥ – ١٠٨ – ١٠٩ – ١١٠ – ١١٤ – ١١٥ – ١١٦ – ١٤٨ – ١٨٢ – ١٩١ – ٢١٨ – ٢١٩ – ٢٥٦ – ٢٥٨ - ٢٥٩ – ٣٣٦ – ٣٤٤.

(٣) سورة البقرة، الآية ١٨٥.

على نسخ الإطعام، يقول: من كان سالماً ليس بمريض أو مقيماً ليس بمسافر فليصم»[1]. وقد يذكر الناسخ والمنسوخ كليهما في مثل: «وقوله: ﴿الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾[2]. كان الرجل يوصي بما أحب من ماله لمن شاء من وارث أو غيره، فنسختها آية المواريث فلا وصية لوارث، والوصية في الثلث لا يُجاوز، وكانوا قبل هذا يوصي بماله كله وبما أحب منه»[3].

وهو إلى ذلك عليم بالفقه والشعائر، «وقوله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾[4]... المعتمر إذا أتى البيت فطاف به وبين الصفا والمروة حل من عمرته، والحج يأتي فيه عرفات، وجميع المناسك، وذلك قوله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾، يقول: أتموا العمرة إلى البيت في الحج إلى أقصى مناسكه»[5].

كما أنه عليم بالغريب والأخبار «وقوله: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾[6]، أي كيف شئتم... إن اليهود تزعم أن الرجل إذا أتى امرأته من ورائها في قبلها خرج الولد أحول. قال: فقال ابن عباس: كذبت اليهود ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾. يقول: (إيتِ الفرج من حيث شئت)[7]، وعليم بعادات غير المسلمين أيضاً. وقوله: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾[8] وإنما قيل ﴿صِبْغة الله﴾

---

(١) معاني القرآن: ١/١١٣.

(٢) سورة البقرة، من الآية: ١٨٠.

(٣) معاني القرآن: ١/١١٠، وينظر: ١/١٠٨ – ١٠٩ – ٢٩٩.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.

(٥) معاني القرآن: ١/١١٧، وينظر: ١/٧٧ – ١١٩ – ١٢٠ – ٣٠٦.

(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٢٣.

(٧) المعاني: ١/١٤٤.

(٨) سورة البقرة، الآية: ١٣٨.

لأن بعض النصارى كانوا إذا ولد المولود جعلوه في ماء لهم، يجعلون ذلك تطهيراً له كالختانة»[1].

وقد كنت ذكرت أن الفراء، في تفسيره هذا، يعد متحرراً بين مفسري القرآن، فهو إلى جانب اعتداده بالمأثور، واعتماده عليه في التفسير، له آراؤه ووجهات نظره التي يدلي بها في مواضع عديدة من الكتاب، محكماً عقله وتفكيره، وهو في ذلك يجمع بين المنقول والمعقول.

ولو حاولنا إدراك السبب الذي جعل الفراء يجمع بين هذين الاتجاهين في تفسيره، لهان علينا معرفته، إذا عرفنا أن صاحب الكتاب كان (يتفلسف في تأليفاته ومصنفاته)[2] وأنه عرف بميله إلى الاعتزال إذ كان بينه وبين ثمامة بن أشرس أحد أئمة المعتزلة صحبة[3]، وقد بدأت بينهما يوم تصدّى الفراء للاتصال بالمأمون.. ثم إن تقريب المأمون إياه مما يؤيد ميله إلى الاعتزال، لأن موقف المأمون من المتكلمين وتقريبه أتباع المعتزلة معروف، لأنه كان منهم، وكان شديد التعصب لمذهبهم[4].

والاعتزال كما هو معلوم: «منهج تحكيم العقل مع المحافظة على أصل الدين، وهو منهج البحث والتجربة والاستدلال العقلي والشك والقياس

---

(١) معاني القرآن: ١/ ٨٢ – ٨٣.

(٢) الفهرست، ص: ٩٩.

(٣) ينظر: شذرات الذهب: ٢/ ١٩.

(٤) مدرسة الكوفة، ص: ١٢٤، وينظر: المدارس النحوية، ص: ١٩٢ – ١٩٣ – ١٩٥ -، وأثر القرآن في تطور النقد العربي، ص: ٥٨.

وما إلى ذلك... وقد كان للمعتزلة أثر كبير في القياس في اللغة، يظهر في قولهم بأن اللغة اصطلاحية من وضع البشر لا توقيفية»[1].

وقد عاش الفراء في زمن كان علم الكلام فيه قد خطا خطوات واسعة، وكان منهجه قد أخذ يطغى على المناهج الدراسية، فلا يبعد أن يكون الفراء قد وقف على شيء من علم الكلام، واتصل بأصحابه، بل قيل إنه كان متكلماً، يميل إلى الاعتزال، وأنه كان يتفلسف في تصانيفه، ويستعمل ألفاظ الفلاسفة[2] كان لميل الفراء إلى الكلام، والأخذ بآراء المعتزلة أثر في (معاني القرآن) فهو يأخذ على أهل القدر – وهم أهل السنة هنا أو القائلون به – أن كل أعمال الإنسان إنما هي بقدر مكتوب، يقول في قوله عز وجل: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾[3]، (مسمى عندكم تعرفونه لا يميتكم غرقاً ولا حرقاً[4]، وليس في هذا حجة لأهل القدر، لأنه إنما أراد مسمى عندكم)[5].

وقد ذهب بعض الدارسين إلى أن علم الكلام كانت آثاره واضحة في مواضع متفرقة من كتاب الفراء، وذهبوا في هذا السبيل مذاهب شتى في الاستشهاد بما يرى كل منهم فيه شيء من هذا القبيل، ومن هؤلاء الدكتور محمد زغلول سلام الذي ذهب إلى أن (من آرائه الكلامية، تفسيره لأفعل

---

(١) مدرسة القياس في اللغة. أحمد أمين. مجلة مجمع اللغة العربية، ج٧ ص: ٣٥٥.

(٢) مدرسة الكوفة، ص: ١٢٤.

(٣) سورة نوح، الآية: ٤.

(٤) ورد في مقبوس الدكتور سلام: (ولا قتلاً) بدل (ولا حرقاً) وهو تحريف عن أصل الكلمة في كتاب الفراء. ينظر: المعاني: ٣/١٨٧.

(٥) أثر القرآن في تطور النقد العربي، ص: ٥٨.

التفضيل في القرآن: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[1]. يقول: (عندكم، في معرفتكم) لكي لا يفهم أن عند الله هيناً وأهون، إذ الأمر عنده سواء[2].

ومنهم من ذهب إلى أبعد من ذلك، فوجد في قول الفراء بالنحت دليلاً على تفلسفه، وأثراً من آثار علم الكلام، كالدكتور مهدي المخزومي الذي قال: «ولم يعنوا – أي أصحاب المدرسة البصرية عدا الخليل والمتقدمين – بدراسة اللغة دراسة علمية، بل لم تكن لهم دراسة لغوية منظمة، قائمة على رصد الظواهر اللغوية المختلفة، وتعليلها لغوياً، ولم أجد من بينهم من انتهج هذه السبيل غير الفراء... وأكبر الظن أن انفراد الفراء بهذا، يرجع إلى عقليته المتفلسفة، لأنه كان من أصحاب الكلام، ولأصحاب الكلام محاولات في هذا الصدد، تتمثل في رأيهم بأن اللغة اصطلاح وليست وحياً وإلهاماً»[3]، ثم يسوق أمثلة للكوفيين جملة على النحت، ومنها ما ورد في كتاب معاني الفراء من رأيه في أن أصل (اللهم): (يا الله أمنا بخير، إلا أنه لما كثر في كلامهم، واشتهر في ألسنتهم، حذفوا بعض الكلام تخفيفاً كما قالوا: هلم، والأصل ها المم، فحذفوا الهمزة تخفيفاً، وأدغموا الميم في الميم، كما قالوا: وَيْلُمِّه، ويلٌ لأمه، وإنما حذفوا وخففوا)[4].

على أنني – وإن كنت لا أنفي أن يكون في كتاب الفراء أثر من علم الكلام الذي برع فيه المعتزلة – أرى أن ما جاء به الدكتور محمد زغلول

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢٧.

(٢) أثر القرآن في تطور النقد العربي، ص: ٥٩.

(٣) مدرسة الكوفة، ص: ٢١٣، وينظر: رأي الفريقين في أصل اللغة: كتاب الخصائص: ١/ ٤٠ - ٤٧.

(٤) مدرسة الكوفة، ص: ٢٢١، نقلاً عن شرح المفصل: ٢/ ١٦، وينظر تفصيل رأي الفراء في أصل كلمة (اللهم) في المعاني: ١/ ٢٠٣ – ٢٠٥، والإنصاف، المسألة: ٤٧.

سلام دليلاً على ذلك لم يكن في مكانه، لأنه من التأويل الذي كان يأخذ به المعتزلة في تفسير القرآن الكريم، والذي يناسب أفكارهم وفلسفتهم، مما سوف أوضحه بعد قليل. وكذا النحت، الذي رآه الدكتور مخزومي من أثر تفلسف الفراء، لا أرى فيه شيئاً من التفلسف، وإنما هو إلى الاجتهاد، وتعليل أصول اللغة، أقرب من أن يكون فلسفة، وهو أمر لم يختص به الفراء وحده دون سواه من النحويين بصريين أو كوفيين.

ولعل ما كان فيه أثر من علم الكلام، تلك المحاجة والمحاكمة العقلية التي اشتهر بها المعتزلة، وذلك في تفسيره قوله تعالى: ﴿فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ﴾[1]. يقول: «يقول القائل: هل كان لهم قليل من الإيمان أو كثير؟ ففيه وجهان من العربية، أحدهما ألا يكونوا آمنوا قليلاً ولا كثيراً، ومثله، مما تقوله العرب بالقلة على أن ينفوا الفعل كله، قولهم: قل ما رأيت مثل هذا قط. وحكى الكسائي عن العرب: مررت ببلاد قل ما تنبت إلا البصل والكراث: أي ما تنبت إلا هذين. وكذلك قول العرب: ما أكاد أبرح منزلي، وليس يبرحه، وقد يكون أن يبرحه قليلاً، والوجه الآخر، أن يكونوا يصدقون بالشيء قليلاً ويكفرون بما سواه: بالنبي (ﷺ) فيكونون كافرين، وذلك أنه يقال: من خلقكم؟ من رزقكم؟ فيقولون: الله تبارك وتعالى، ويكفرون بما سواه: بالنبي (ﷺ) وبآيات الله فذلك قوله: ﴿قَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ﴾[2].

والتفلسف، إن أريد به الغموض والتقعر فيما يذهب إليه الفراء فلا وجود له في الكتاب، فهو واضح لمن يقرؤه عامة، وعبارته موجزة لا حشو

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٨٨.

(٢) معاني القرآن: ١/ ٥٩ – ٦٠.

فيها ولا تطويل، غير أن فلسفته بمعنى الحجج التي كان يوردها ليبرهن على ما يقول، ويصل بالناس إلى الإقناع، كانت موجودة في مواضع كثيرة من الكتاب، وهي بلا شك أثر من علم الكلام والمحاجة التي كان يسلكها المعتزلة، والفَنْقَلَة (أي: إن قلتَ قلتُ) أيضاً وما فيها من توهم للخصوم أثر من آثار الاعتزال، يقول: ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ﴾[1]. فإن قلت: فكيف جاز أن يقال (مثليهم) يريد ثلاثة أمثالهم؟ قلت: كما تقول وعندك عبد: أحتاج إلى مثله، فأنت محتاج إليه وإلى مثله، وتقول: أحتاج إلى مثلي عبدي، فأنت إلى ثلاثة محتاج. ويقول الرجل: معي ألف وأحتاج إلى مثليه، فهو يحتاج إلى ثلاثة، فلما نوى أن يكون الألف داخلاً في معنى المثل صار المثل اثنين، والمثلان ثلاثة. ومثله في الكلام أن تقول: أراكم مثلكم، كأنك قلت: أراكم ضعفكم، وأراكم مثليكم يريد ضعفيكم، فهذا على معنى الثلاثة.

فإن قلت: «فقد قال في سورة الأنفال: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾[2]. فكيف كان هذا هاهنا تقليلاً، وفي الآية الأولى تكثيراً؟ قلت: هذه آية المسلمين أخبرهم بها، وتلك الآية لأهل الكفر، مع أنك تقول في الكلام: إني لأرى كثيركم قليلاً أي قد هون عليّ، لا أني أرى الثلاثة اثنين»[3].

وإذا كان (يغلب على تفاسير المعتزلة الطابع العقلي، والمذهب الكلامي، تبعاً لقاعدتهم المشهورة [الحسن ما حسنه العقل، والقبح ما قبحه العقل][4]، ولا

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٤٤.

(٣) معاني القرآن: ١/ ١٩٤ – ١٩٥.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية: ٧/ ٨٤١.

ترد النصوص النبوية فيها إلا على أنها شيء ثانوي، نادراً ما يلجؤون إليه لشرح معاني الآيات)[1]. فإن ذلك ينطبق على معاني القرآن في جانب، ولا ينطبق عليه في آخر، ينطبق عليه في ظهور بعض آثار علم الكلام التي ذكرت، والتي عرفها المعتزلة، كما ينطبق عليه في تحكيم الفراء مبدأ المعتزلة العقلي في تفسير القرآن، وخاصة في تأويل الآيات بما يتناسب ومعتقدهم الفكري الذي يدينون به، ولكن كلام الدكتور صبحي الصالح لا ينطبق عليه في جانب آخر هو أن الفراء أخذ بالمنقول عن طريق الإسناد الذي قد يصل به أحياناً إلى علي بن أبي طالب وابن عباس، كما لجأ في بعض الأحيان إلى الأحاديث الشريفة، يستشهد بها لإثبات ما يذهب إليه من تفسير، أضف إلى ذلك أنه قد يخالف المعتزلة، ويقف إلى جانب أهل الأثر حيث يرى أن القرآن نزل بأفصح اللغات، ويلتمس إعجاز القرآن في قوالبه اللغوية لا في لغة البادية والشعر، ومعلوم أن المعتزلة قد قالوا بخَلْق القرآن، وأنكر لغويوهم عقيدة الإعجاز اللغوي في القرآن.

والمعتزلة لقبوا أنفسهم بأصحاب العدل والتوحيد، لأنهم قالوا يجب على الله ما هو الأصلح لعباده، ويجب أيضاً ثواب المطيع فهو لا يخل بما هو واجب عليه أصلاً، وجعلوا هذا عدلاً، وقالوا أيضاً بنفي الصفات الحقيقية القديمة القائمة بذاته احترازاً عن إثبات قدماء متعددة، وجعلوا هذا توحيداً[2].

والعدل كما هو واضح، وكما جعله المعتزلة أصلاً من أصولهم يعني نفي الظلم عن الله تعالى، وأنه سبحانه خلق الناس وجعل لهم إرادة تقف خلف أفعالهم التي يقومون بها بمحض إرادتهم. أما المبدأ الثاني من مبادئ المعتزلة - أي

---

(١) مباحث في علوم القرآن: ٢٩٤.

(٢) كشاف اصطلاحات الفنون مادة المعتزلة: ٤/ ١٠٢٥.

التوحيد - فيعني وحدانية الله تعالى، وتفرده عن سائر المخلوقات، فهو لايشبه أحداً في شكله، وعواطفه، وأفعاله... وبالتالي، فإذا ما ورد في آيات القرآن ما فيه عكس ذلك أخضعه المعتزلة لسلاحهم العقلي، أي تأويله على وجه آخر ينفي المعنى القريب بما يتناسب والتأويل. وإذا أنعمنا النظر في معاني القرآن وجدنا عند الفراء تأويلاً في كل من قضيتي العدل والتوحيد المذكورتين فأما في قضية العدل فنراه يؤوِّل كل آية قد توحي بظلم الله لعباده أو قسرهم على السير في طريق الشر، ففي قوله تعالى: ﴿مُذْعِنِينَ﴾[1]، يقول: «مطيعين غير مستكرهين، يقال: قد أذعن بحقي وأمعن به واحد، أي أَقَرَّ به طائعاً. وقوله عز وجل: ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّـهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾[2]، فجعل الحيف منسوباً إلى الله وإلى رسوله، وإنما المعنى للرسول، ألا ترى أنه قال: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّـهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾[3]، ولم يقل (ليحكما) وإنما بدئ بالله إعظاماً له، كما تقول: ما شاء الله وشئت، وأنت تريد ما شئت، وكما تقول لعبدك: قد أعتقك الله وأعتقتك»[4].

وأما التوحيد فيظهر في كثير من المواضع في الكتاب، حيث يذهب الفراء إلى تأويل ما له علاقة بالأعضاء والجوارح تنزيها لله تعالى عن مشابهة أحد من مخلوقاته، ففي قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[5].

---

(١) سورة النور، الآية: ٤٩.

(٢) سورة النور، الآية: ٥٠.

(٣) سورة النور، الآية: ٤٩.

(٤) معاني القرآن: ٢/ ٢٥٧ – ٢٥٨، ولمزيد من الأمثلة ينظر في قضية العدل، معاني القرآن: ٣/ ١٨٧، ٢٧١ – ٢/ ٤١٥.

(٥) سورة الذاريات، الآية: ٤٧.

يقول: (بأيـد: بقوة، وإنا لموسعون أي إنا لذو وَسعَة لخلقنا...)[1]، وينفي أن يكون لفظ الله في الآية التالية وارداً على حقيقته، لأن الله لا يحده مكان، وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّـهِ﴾[2]، معناه: فروا إليه، إلى طاعتـه، من معصيتـه[3]. وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾[4]. يقول: «أضحك أهل الجنة بدخول الجنة، وأبكى أهل النار بدخول النار، والعرب تقول في كلامها إذا عيب على أحدهم الجزع والبكاء يقول: إن الله أضحك، وأبكى.. يذهبون به إلى أفاعيل أهل الدنيا»[5]، وقولـــه تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[6]، يقول: إليه المصير»[7].

وأما العجب المسند إلى الله تعالى في الآية التالية فلا يرى فيه الفراء المعنى الذي يصلح للعباد، ولذلك لا عليه أن يتأول فيقول: إن المقصود به معنى آخر. وقوله: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾[8] قرأها الناس بنصب التاء ورفعها، والرفع أحب إليّ لأنها قراءة علي وابن مسـعود وعبد الله بن عبـاس، حدثنا أبو العباس، قـال: حدثنا محمد، قال: حدثنا الفراء، قال: حدثني... قرأتُ عند شُرَيْح ﴿بل عجبت ويسخرون﴾ فقال: إن الله لا يعجب

---

(١) معاني القرآن: ٣/ ٨٩.
(٢) سورة الذاريات، الآية: ٥٠.
(٣) معاني القرآن: ٣/ ٨٩.
(٤) سورة النجم، الآية: ٤٣.
(٥) معاني القرآن، ٣/ ١٠١.
(٦) سورة الفجر، الآية: ١٤.
(٧) معاني القرآن: ٣/ ٢٦١.
(٨) سورة الصافات، الآية: ١٢.

من شيء، إنما يعجب من لايعلم، قال: فذكرت ذلك لإبراهيم النخعي فقال: إن شريحاً شاعر يعجبه علمه، وعبد الله أعلم بذلك منه، قرأها (بل عجبتُ ويسخرون).

قال أبو زكريا: «والعجب وإن أسند إلى الله فليس معناه من الله كمعناه من العباد، ألا ترى أنه قال: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾[1]، وليس السخر من الله كمعناه من العباد، وكذلك قوله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[2]، ليس ذلك من الله كمعناه من العباد. ففي ذا بيان لكسر[3] قول شريح، وإن كان جائزاً، لأن المفسرين قالوا: بل عجبتَ يا محمد ويسخرون هم، فهذا وجه النصب»[4].

وبعد ذلك لا يبعد أن يكون كتاب الفراء هذا أول مؤلف اعتزالي وصلنا، وإن كان معظم الدارسين لم يشيروا إلى هذا.

ولكن، على الرغم من ذلك، لا يمتنع مؤلفه عن مجاراة أهل الحديث (الأثر) في أمور عديدة تجعله مفسراً نقلياً حيث يفسر بالمأثور، ويتقيد بما قاله المفسرون «قال:، وقوله: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾[5]، ثم قال في موضع آخر: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾[6]، فيقول القائل: كيف ذكر الثلاثين وأتمها بالعشر، والأربعون قد تكمل بعشرين

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٧٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٥.

(٣) أي إضعافه.

(٤) معاني القرآن: ٢/ ٣٨٤، ولمزيد من الأمثلة عن التوحيد ينظر: معاني القرآن ١/ ٢١٨، ٢٤٩، ٣٢٥ – ٢/ ٢٠٤، ٣٦٠، ٣٦١ – ٣/ ٣٤، ١٥٨

(٥) سورة البقرة، الآية: ٥١.

(٦) سورة الأعراف، الآية: ١٤٢.

وعشـرين أو خمسة وعشرين وخمسة عشر؟ قيل: كان ذلك – والله أعلم – أن الثلاثين كانت عَدَدَ شهر، فذكرت الثلاثون منفصلة لمكان الشهر وأنها ذو القعدة وأتممناها بعشر من ذي الحجة، كذلك قال المفسرون»[1]. وأحياناً يـورد وجوه التفسير المنقولة من دون ترجيح واحد على آخر. وقوله: ﴿**وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾[2]، ففيه وجهان: أحدهما أن يكون أراد: (وإذ آتينا موسى الكتاب) يعنـي التوراة، ومحمـداً صلى الله عليه وسلم (الفرقان) لعلكم تهتدون. وقوله: ﴿**وإذ آتينا موسى الكتاب**﴾ كأنه خاطبهم فقال: قد آتيناكم علم موسى ومحمد عليهما السلام (لعلكم تهتدون)، لأن التوراة أنزلت جملة ولم تنزل مفرقة كما فرق القرآن، فهذا وجـه. والوجه الآخر: أن تجعل التوراة هدى والفرقان كمثله، فيكون: ولقد آتينا موسى الهدى، كمـا آتينا محمداً صلى الله عليه وسلم الهدى. وكل ما جاءت به الأنبياء فهو هدى ونور. وأن العرب لتجمع بين الحرفين وأنهما لواحد إذا اختلف لفظاهما، كما قال عدي بن زيد:

وقـــدَمتِ الأديـــمَ لراهِـــشَيْهِ وألفـــى قولهـــا كـــذباً ومينـــا

وقولهم: بعداً وسحقاً، والبعد والسحق واحد، فهذا وجه آخر. وقال بعض المفسرين: الكتاب التوراة، والفرقان انفراق البحر لبني إسرائيل، وقال بعضهم: الفرقان الحلال والحرام الذي في التوراة[3]. ويسند الرواية عن طريق التواتر فيصل إلى أحد التابعين[4] أو إلى النبي صلى الله عليه وسلم[5].

---

(١) معاني القرآن: ١/ ٣٦.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٥٣.
(٣) معاني القرآن: ١/ ٣٦ – ٣٧.
(٤) ينظر: المعاني: ١/ ١٩٩.
(٥) معاني القرآن: ١/ ٤١٦.

وقد نراه يحرص حرصاً شديداً على التمسك بالتفسير المنقول، فيقبل ما يوافق التفسير من تقدير المحذوف وإن كان ليس من مذاهب العرب: (قوله تبارك وتعالى في سورة محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿فَأَوْلَى لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾[1] عيرهم وتهددهم بقوله: (فأولى لهم) ثم ذكر ما يقولون، فقال: يقولون إذا أمروا (طاعة) فإذا عزم الأمر، نكلوا وكذبوا فلم يفعلوا. فقال الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ﴾، وربما قال بعضهم: إنما رفعت الطاعة، بقوله: لهم طاعة، وليس ذلك بشيء. والله أعلم. ويقال أيضاً: (وذكر فيها القتال) و(طاعة) فأضمر الواو، وليس ذلك عندنا من مذاهب العرب، فإن يك موافقاً للتفسير فهو صواب)[2].

واللغويون سادت عليهم المحافظة وقلت فيهم الحرية، وليس الاختلاف في أن اللغة توقيفية أو غير توقيفية إلا مظهراً من مظاهر المحافظة والحرية، فمن قال بأنها توقيفية أو بعبارة أخرى من وضع الله، أسبغ عليها حلة من التقديس، والتزمها من غير تصرف فيها. ومن قال إنها غير توقيفية أو بعبارة أخرى من وضع البشر، كان أكثر حرية في التصرف فيها[3]. والمعتزلة – كما هو معروف – كانوا يرون أن اللغة اصطلاح من وضع البشر، لا توقيفية، ولكن الفراء خالفهم في مذهبهم هذا، واقترب من أهل الحديث في موضوع إعجاز القرآن: «وفي هذا يؤيد الفراء مذهب أهل السنة من أن القرآن نزل بأفصح اللغات، ويرد على بعض علماء الشعر، ورواة الأخبار عن عرب البادية الذين

---

(١) سورة محمد، الآية: ٢٠-٢١

(٢) معاني القرآن: ١/ ٩٣ – ٩٤، ولمزيد من الأمثلة عن التفسير بالمأثور ينظر المعاني: ١/ ٨٣، ٩٥، ٢٠٥، ١٢٢.

(٣) مدرسة القياس في اللغة، أحمد أمين، مجلة مجمع اللغة العربية، ج٧، ص: ٣٥٣

لا يريدون أن يلتمسوا إعجاز القرآن في قوالبه اللغوية، بل يرون كمال الفصاحة في لغة عرب البادية، ثم يختلفون حول أي القبائل أفصح؟ حسب اختلاف جوار كل منهم لقبيل من العرب، فيذهب الفراء رداً على جميع هؤلاء إلى أن لغة القرآن أفصح أساليب العربية على الإطلاق، ومن ينكر عقيدة الإعجاز اللغوي في القرآن أهل الاعتزال، ولكن ذلك لم يمنعه من موافقة مذهب أهل السنة في موضوع إعجاز القرآن»[1]. كما أنه لا يفتأ يردد في كتابه، معتداً بالقرآن، أن (الكتاب أعرب وأقوى في الحجة من الشعر)[2].

ب – الفراء والقراءات:

يعرض الفراء في كتابه طائفة جمة من القراءات القرآنية، ويحتج بها، مما يجعلها تشكل نسبة كبيرة من الكتاب، إذ لا تكاد صفحة تخلو منها، وهي في كل ذلك مظهر من مظاهر الاحتجاج عند الفراء، وكاشف لمنهجه، فيندر أن يكون في الآية قراءة أو أكثر من دون أن يقف عندها عارضاً لها[3]، ولاختلاف القراء فيها[4]، أو مستحسناً لوجوه القراءات جميعاً حيناً[5] ومعللاً ومرجحاً أحياناً أخرى، فقد يستجيد وجه قراءة ويعلله تعليلاً حسناً من خلال قواعد العربية وما ورد في اللغة على شاكلته، يقول: «وقوله: ﴿**وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى**﴾[6]، اجتمع الناس والقراء على (سكارى وما هم بسكارى) حدثنا أبو العباس، عن عبد الله بن

---

(١) العربية، يوهان فك، ص: ٤ - ٥.

(٢) معاني القرآن: ١/ ١٤، وينظر: ١/ ٣١٥.

(٣) معاني القرآن: ١/ ٤٣٧ – ٢/ ١٤ – ٩٤ – ٣/ ١١٨.

(٤) نفسه: ٢/ ١٨.

(٥) نفسه: ٢/ ١١٨.

(٦) سورة الحج: الآية: ٢.

مسعود أنه قرأ: (وترى الناس سكرى وما هم بسكرى) وهو وجه جيد في العربية: (لأنه بمنزلة الهلكى والجرحى، وليس بمذهب النشوان والنشاوى. والعرب تذهب بفاعل وفعيل وفَعِل إذا كان صاحبه كالمريض أو الصريع أو الجريح فيجمعونه على الفَعْلى، فجعلوا الفَعْلى علامة لجمع كل ذي زمانة وضرر وهلاك. ولا يبالون أكان واحده فاعلاً أم فعيلاً أم فعلان، فاختير سكرى بطرح الألف من هول ذلك اليوم وفزعه، ولو قيل (سكرى) على أن الجمع يقع عليه التأنيث فيكون كالواحدة كان وجهاً، كما قال الله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾[1]. و﴿الْقُرُونَ الْأُولَى﴾[2]. والناس جماعة، فجائز أن يقع ذلك عليهم، وقد قالت العرب: قد جاءتك الناس، وأنشدني بعضهم:

أضحت بنو عامر غضبى أنوفهم أنّى عفوت فلا عار ولا باس

فقال: غضبى للأنوف على ما فسرت لك)[3].

وقد يورد وجهين صحيحين لإحدى القراءات ثم يفضل أحدهما مع التعليل النحوي كأن يقول مثلاً: «وقوله: ﴿وَيلْقَوْن﴾[4] و﴿ويُلَقَّون فيها﴾ كل قد قرئ به[5]. و(يَلْقَوْن) أعجب إليَّ لأن القراءة لو كانت على

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.

(٢) سورة القصص، الآية: ٤٣.

(٣) معاني القرآن: ٢/ ٢١٤ – ٢١٥، وينظر قراءة (وترى الناس) في معاني القرآن: ٢/ ٢١٧ – ٣٧١.

(٤) سورة الفرقان: الآية ٧٥، وتمام الآية: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً﴾.

(٥) قرأ بالأولى ابن كثير ونافع وأبو عمرو، وبالثانية ابن عامر وحمزة والكسائي انظر: السبعة في القراءات، ص: ٤٦٨.

(يُلَقَّوْن) كانت بالباء في العربية، لأنك تقول: فلان يُتَلَقَّى بالسلام وبالخير. وهو صواب يلقَّوْنه ويلقَّوْن به كما تقول أخذت بالخطام وأخذته»[1].

ثم هو قد يأتي بثلاث قراءات، ويرى وجه الكلام في إحداها معللاً بالنحو والتفسير: «وقوله: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى﴾[2]: أنَّ في موضع نصب لأنه عبارة عن الكذب، ولو قيل: (وتصف ألسنتُهم الكُذُبُ) تجعل الكُذُب من صفة الألسنة واحدها كَذُوب وكُذُب، مثل رَسُول ورُسُل[3] ومثله قوله: ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾[4] وبعضهم يخفض (الكذب) يجعله مخفوضاً باللام التي في قوله (لما) لأنه عبارة عن (ما) والنصب فيه وجه الكلام، وبه قرأت العوام، ومعناه: ولا تقولوا لوصفها الكذب»[5].

ولكن ما تقدم لا يعني أن (معاني القرآن) يحيط بالقراءات المتواترة السبع أو العشر كما فعل ابن مجاهد في كتابه (السبعة في القراءات) وابن الجزري في (النشر في القراءات العشر)، أو القراءات المتواترة والشاذة كما فعل أبو حيان الأندلسي في (البحر المحيط)، وإنما قد يغفل عن بعض القراءات المأثورة فيجوِّزها، عربيةً، ظناً منه بأن أحداً لم يقرأ بها.

---

(١) معاني القرآن: ٢/ ٢٧٥، وينظر أيضاً: ٢/ ٧٨ و ٣/ ٢٤٤.

(٢) سورة النحل، الآية: ٦٢.

(٣) أي لجاز.

(٤) سورة النحل، الآية: ١١٦.

(٥) معاني القرآن: ٢/ ١٠٧.

فيقول: (ولم أسمعها)[1] أو: (ولم يقرأ بها أحد علمناه)[2]، أو (ولم أسمع أحداً قرأ به)[3]، وذلك أن كتاب الفراء هذا ليس مقصوراً على القراءات دون سواها، ففيه التفسير والنحو والبلاغة... وعليه فإن قول د. محمد زغلول سلام: «ويهتم الفراء بالقراءات فيعرض وجوهها في الآية مبيناً وجهة نظر كل قارئ مفسراً قراءته»[4]. وقول د. عبد الحميد شلقاني: «تناول قراءات القرآن وتوجيه كل قراءة منها توجيهاً نحوياً»[5] كلام بعيد عن الدقة.

وإمام الفراء وملاكه العام الأخذ بالقراءات المتواترة، والشاذة، ومراعاة الرسم القرآني ما لم يتعارض هذا الأخذ مع التفسير، أو مذهب الفراء النحوي واللغوي، أو يخالف كلام العرب ومذاهبها.

فهو قد لا يستحب وجه قراءة لضعفه في التفسير فيقول: «وقوله: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ﴾[6]، يريد: إن أسرتهم يا محمد

---

(١) أي قراءة (لِنُبَيِّنَ) من قوله تعالى: ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾ (سورة الحج: من الآية٥)، وهذه القراءة نسبت إلى ابن أبي عبلة كما في البحر المحيط: ٦/٣٥٢. انظر: معاني القرآن: ٢/٢١٦.

(٢) أي قراءة: (مِنْسِأتِه – بكسر السين) من قوله تعالى: ﴿تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ﴾ (سورة سبأ: من الآية ١٤)، وهذه القراءة، نسبت إلى فرقة منهم عمر بن ثابت عن ابن جبير كما في البحر: ٧/٢٦٧، ومعاني القرآن: ٢/٣٥٧.

(٣) أي قراءة: (تذهل كل مرضعة) من قوله تعالى: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾ (سورة الحج: من الآية٢). وهذه القراءة نسبت إلى ابن أبي عبلة واليماني كما في البحر المحيط: ٦/٣٠٥، - معاني القرآن: ٢/٢١٤.

(٤) أثر القرآن في تطور النقد العربي، ص: ٥٠.

(٥) رواية اللغة، ص: ٢/٢١٤.

(٦) سورة الأنفال، الآية ٥٧.

فنكل بهم من خلفهم ممن تخاف نقضه للعهد (فشرد بهم)، (لعلهم يذَّكرون) فلا ينقضون العهد، وربما قرئت (مِنْ خَلْفِهم) بكسر (مِن)[1]، وليس لها معنى أستحبه مع التفسير»[2].

ويروي ما سمع من قراءة، ويتدخل بشخصية النحوي ليعلل وجهها ولا يستبعد أن تكون لحناً فيقول: «وقد قرأ بعض القراء فيما ذكر لي: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْماً﴾[3]: (ليُجْزَى قَوماً) وهو في الظاهر لحن، فإن كان أضمر في (يُجْزى) فعلاً يقع به الرفع كما تقول: أُعطِيَ ثوباً ليُجزَى ذلك الجزاء فهو وجه»[4].

وقد يضعِّف وجه بعض القراءات لوجود ما يضعِّفه في العربية: «وقوله: ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[5] قرأها حمزة (لا يَحْسَبَنَّ) بالياء ها هنا وموضع (الذين) رفع. وهو قليل أن تعطل (أظن) من الوقوع على أن أو على اثنين سوى مرفوعها، وكأنه جعل (معجزين) اسماً وجعل (في الأرض) خبراً لهم، كما تقول:

---

(١) نسب في البحر: ٣/٥٠٩، هذه القراءة إلى أبي حيوة وإلى الأعمش بخلاف عنه.

(٢) معاني القرآن: ١/٤١٤.

(٣) سورة الجاثية، الآية: ١٤. وجاء في البحر المحيط: ٨/٤٥: (وقرأ شيبة وأبو جعفر بخلاف عنه بالياء مبنيّا للمفعول، وقد روي ذلك عن عاصم، وفيه حجة لمن أجاز بناء الفعل للمفعول على أن يقام المجرور – وهو بما – وينصب المفعول به الصريح – وهو: قوما – ونظيره ضُرِبَ بسوطٍ زيداً، ولا يجيز ذلك الجمهور. وخرجت هذه القراءة على أن يكون بني الفعل للمصدر، أي وليُجْزى الجزاءُ قوماً، وهذا أيضاً لا يجوز عند الجمهور، ولكن يُتَأَوَّل على أن ينصب بفعلٍ محذوف تقديره يجزي قوماً، فيكون جملتان إحداهما ليجزى الجزاءُ قوماً، والأخرى يجزيه قوماً.

(٤) معاني القرآن: ٣/٤٦.

(٥) سورة النور، الآية: ٥٧.

لا تحسبن الذين كفروا، رجالاً في بيتك، وهم يريدون أنفسهم. وهو ضعيف في العربية. والوجه أن تقرأ بالتاء لكون الفعل واقعاً على (الذين) وعلى (معجزين) وكذلك قرأ حمزة في الأنفال: ﴿**وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا**﴾(١).

ويقف مع قراءة عبد الله بن مسعود وصحبه فيرى فيها وجه العربية، وإن كانت قراءة أكثر القراء تخالفها، ويرد على القراء بقراءة الآيتين السابقتين من السورة نفسها، ويأتي بحجة مقنعة: «وقوله: ﴿**وَحُورٌ عِينٌ**﴾(٢) خفضها أصحاب عبد الله وهو وجه العربية، وإن كان أكثر القراء على الرفع، لأنهم هابوا أن يجعلوا الحور العين يطاف بهن، فرفعوا على قولك: ولهم حور عين، أو عندهم حور عين، والخفض على أن تتبع آخر الكلام بأوله، وإن لم يحسن في آخره ما حسن في أوله، أنشدني بعض العرب:

إذا ما الغانيات برزن يوماً   وزجَّجْنَ الحواجب والعيونا

فالعين لا تزجج إنما تكحل، فردها على الحواجب، لأن المعنى

يعرف... وقد كان ينبغي لمن قرأ: وحورٌ عين لأنهن –زَعَمَ– لا يطاف بهن أن يقول: ﴿**وفاكهةٌ ولحمُ طيرٍ**﴾ لأن الفاكهة واللحم لا يطاف بهما –ليس يطاف إلا بالخمر وحدها ففي ذلك بيان، لأن الخفض وجه الكلام»(٣).

وقد يصل به الأمر إلى استقباح قراءة مأثورة لخروجها عمّا درج عليه العرب وذهبوا إليه في عدم جواز جر اسم بالعطف على ضمير مجرور، وفي ذلك

---

(١) سورة الأنفال، من الآية: ٥٩. معاني القرآن: ٢/٢٥٦.

(٢) سورة الواقعة، من الآية: ٢٢.

(٣) معاني القرآن: ٣/١٢٣ – ١٢٤.

يقف مع المذهب البصري[1] يقول: «وقوله: ﴿الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾[2] فنصب الأرحام، يريد: واتقوا الأرحام أن تقطعوها. قال: حدثنا الفراء قال: حدثني شريك بن عبد الله عن الأعمش عن إبراهيم أنه خفض الأرحام، قال: هو كقولهم: بالله والرحم، وفيه قبح، لأن العرب لا ترد مخفوضاً على مخفوض وقد كني عنه، وقد قال الشاعر في جوازه:

نعلق في مثل السواري سيوفنا وما بينها والكَعْبِ غُوْط

وإنما يجوز هذا في الشعر لضيقه»[4].

وهنا نجده يسن قاعدة يخلص إليها وتدل على دقة نظر، وهي أن ما يجوز في ضرائر الشعر قد لا يجوز في القرآن وقراءاته قياساً عليه، وهو الذي يصرح بأن (الكتاب أعرب وأقوى في الحجة من الشعر)[5]. مثلما يدلي برأي حسن في قراءة الإظهار والإدغام[6]، وأن التبيان في القراءة أجود من الإدغام لأن القراءة بنيت على التفصيل والبيان[7] وأن القرآن بني على إشباع الكلام[8].

---

(١) الإنصاف في مسائل الخلاف. المسألة: ٦٥.

(٢) سورة النساء، من الآية ٢.

(٣) ينظر: كتاب الإنصاف: ٢/٤٦٣.

(٤) معاني القرآن: ١/٢٥٢ – ٢٥٣.

(٥) معاني القرآن: ١/١٤، وينظر: ١/٣١٥.

(٦) نفسه: ٢/٣٥٣.

(٧) نفسه: ٢/٣٨٢.

(٨) نفسه: ١/٤٤١.

كما أنه يرفض قراءة سائرة على وجه غلطت به العرب، والغلط لا يمكن قبوله: «قوله: ﴿وَرَبَتْ﴾[1] قرأ القراء (وَرَبَتْ) من تربو، حدثنا أبو العباس قال: حدثنا محمد، قال: حدثنا الفراء، قال: حدثني أبو عبد الله التميمي عن أبي جعفر المدني أنه قرأ (اهتزت وربأت)، مهموزة فإن كان ذهب إلى الربيئة الذي يحرس القوم فهذا مذهب، أي ارتفعت حتى صارت كالموضع للربيئة. فإن لم يكن أراد هذا فهو من غلط قد تغلطه العرب فتقول: «حَلَّأْتُ السَّوِيق، ولَبَّأْت بالحج، ورَثَّأْت الميت»[2]. وهو كما قرأ الحسن (ولأدرأتكم به)[3] يهمز. وهو مما يرفض من القراءة[4].

وقد رأى الفراء أن: «القراء لا تقرأ بكل ما يجوز في العربية»[5]، ولذلك فلا ضير عليه –وهو النحوي– أن يذكر الجائز، عربيةً، من وجوه لم يقرأ بها، ولو نتج عنه: «تشنيع مشنع مما لم يقرأه القراء مما يجوز»[6]، «وهذا من سعة العربية التي تسمع بها»[7] ولهذا فإنه، بعد أن يذكر المروي من القراءات، يتدخل بشخصية النحوي ليذكر ما يجوز، عربيةً، من أوجه أخرى مع التعليل: «قوله عز وجل ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ﴾[8] والإيلاف قرأ عاصم والأعمش بالياء بعد الهمزة، وقرأ بعض أهل

---

(١) سورة الحج، من الآية: ٨.

(٢) أي حليت السويق، ولبيت بالحج، ورثيت الميت. والسويق طعام يتخذ من الحنطة والشعير.

(٣) سورة يونس، الآية: ١٦، وتمام الآية: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُمْ بِهِ﴾.

(٤) معاني القرآن: ٢/ ٢١٦.

(٥) المصدر السابق: ١/ ٢٤٥.

(٦) المصدر نفسه: ١/ ٢٤٥.

(٧) المصدر نفسه: ٢/ ٣٤٠.

(٨) سورة قريش، الآية: ١.

المدينة **(إلا فِهِم)** مقصورة في الحرفين جميعاً، وقرأ بعض القراء: **(إِلفِهِم)** وكل صواب.. ولم يختلفوا في نصب الرحلة بإيقاع الإيلاف عليها، ولو خفضها خافض بجعل الرحلة هي الإيلاف كقولك: العَجَبُ لرحلتهم شتاء وصيفاً، ولو نصب، إيلافَهم، أو إلفَهم على أن تجعله، مصدراً ولا تكرُّه على أول الكلام كان صواباً، كأنك قلت: العجب لدخولك دخولاً دارَنا، يكون الإيلاف وهو مضاف مثل هذا المعنى كما قال: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾[1]»[2] وهو بالتالي قد لا يشتهي قراءة مأثورة لأنها لا تجاري قواعد العربية[3].

وقد يميل أحياناً – وهو الكوفي – إلى قراءة بصرية إذا رآها أبين في العربية يقول: «وقوله: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾[4]، أهل المدينة وعامة أهل الكوفة يقرؤونها **(لله)**، **(لله)** وهما في قراءة أُبَيّ كذلك **(لله)** **(لله)** **(لله)** ثلاثهن. وأهل البصرة[5] يقرؤون الأخريين **(اللهُ)** **(اللهُ)** وهو في العربية أبين، لأنه مردود مرفوع»[6].

وهو يحبذ القراءة التي اجتمع القراء عليها[7] ويكره الخروج على الإجماع، في القراءة، ولو راق له وجه جيد عربيةً[8] ولكنه لا يمانع في الأخذ

---

(١) سورة الزلزلة، الآية: ١.

(٢) معاني القرآن: ٣/٢٩٣، ولمزيد من الأمثلة ينظر: ١/٤٦ – ١٠٠ – ٣٢٧ – ٣٨٥ – ٢/٧٣.

(٣) معاني القرآن: ٢/٢٢٣.

(٤) سورة المؤمنون، الآيتان: ٨٤- ٨٥.

(٥) قرأ كذلك أبو عمرو ويعقوب البصريان.

(٦) معاني القرآن: ٢/٢٤٠، وينظر أيضاً: ١/٢٥٢ – ٢٥٣، والإنصاف. المسألة: ٦٥.

(٧) معاني القرآن: ٣/١٤٣ – ٢٥٦.

(٨) معاني القرآن: ٢/٢١٨.

بالقراءة الشاذة والقليلة، والاستشهاد بها، وإجازتها ما اتفقت والتفسير[1] وكان لها وجه في العربية [2] ولم يعارضها مذهبه النحوي[3] أو تخريجها على وجه من الوجوه، يقول: «وقوله: ﴿**سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ**﴾[4]، والقراء مجتمعة على نصب النـون في (نتخذ) إلا أبا جعفر المدني فإنه قرأ (أن نتخذ) بضم النون (من دونك) فلو لم تكن في الأولياء (من) كان وجهاً جيداً، وهو على شذوذه وقلة من قرأ به قد يجوز على أن يجعل الاسم[5] في (من أولياء)»[6].

و«الاحتجاج بالقراءات الشاذة هو منهج سليم، ثم هو يتفق مع منهج الكوفيين في الاحتجاج بالمثال الواحد، والبيت الذي لا يعرف قائله، فإذا كان هذا شأنهم مع الشواهد التي قالها العرب فما بالك بقراءة منسوبة إلى قارئها، مشهور بين الناس أمرها، متصلة بالرسول في سندها، موافقة للعربية على وجه من وجوهها»[7].

وأما إذا كانت قراءة متواترة أقوى من القراءة الشاذة، وهي الوجه في التفسير فهو ليس مع الشاذة، ولا يشتهيها يقول: «وقوله: ﴿**إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ**﴾[8]،

---

(١) المعاني: ٢/ ٧١.
(٢) نفسه: ٢/ ١٤٥.
(٣) نفسه: ٢/ ١٢٦.
(٤) سورة الفرقان، الآية: ١٨.
(٥) أي المفعول الثاني.
(٦) معاني القرآن: ٢/ ٧١.
(٧) أبو علي الفارسي، ص: ٢٦٢.
(٨) سورة يوسف، الآية: ٨١.

ويقرأ (سُرِّقَ) ولا أشتهيها، لأنها شاذة»[1]. والفراء عامة حريص على مراعاة رسم المصحف في القراءة إذا وجد لرسمه وجهاً من كلام العرب وقراءة القراء يقول: «وقوله: ﴿فَمَا آتَانِ اللَّهُ﴾[2] ولم يقل ﴿فما آتانِيَ الله﴾ لأنها محذوفة الياء من الكتاب، فمن كان ممن يستجيز الزيادة في القرآن من الياء والواو اللاتي يحذفن: ﴿وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ﴾[3]، فيثبت الواو وليست في المصحف جاز له أن يقول في ﴿أتمدونن﴾[4] بإثبات الياء، وجاز له أن يحركها إلى النصب كما قيل: ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ﴾[5] فكذلك يجوز، (فما آتاني الله) ولست أشتهي ذلك ولا آخذ به. اتباع المصحف إذا وجدت له وجهاً من كلام العرب وقراءة القراء أحب إليّ من خلافه. وقد كان أبو عمرو يقرأ: (إن هذين لساحران)[6] ولست أجترئ على ذلك وقرأ: (فأصَّدقَ وأكونَ)[7] فزاد واواً في الكتاب، ولست أستحب ذلك»[8].

وهو لا يشتهي قراءة مروية لخلافها رسم الكتاب، وضعف معناها في التفسير: «وقوله: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾[9]، وقد قرأها الحسن (وشركاؤكم) بالرفع، وإنما الشركاء هاهنا آلهتهم، كأنه أراد: أجمعوا أمركم

---

(١) معاني القرآن: ٢/٥٣.

(٢) سورة النمل، الآية ٣٦.

(٣) سورة الإسراء، من الآية: ١١.

(٤) سورة النمل، من الآية: ٣٦.

(٥) سورة يس، من الآية: ٢٢.

(٦) هذه الآية وردت في المصحف: (إن هذان لساحران) طه: ٦٣.

(٧) المنافقون، من الآية: ١٠. وهي في المصحف (فأصَّدَّقَ وأَكُنْ).

(٨) معاني القرآن: ٢/٢٩٣ – ٢٩٤.

(٩) سورة يونس، من الآية: ٧١.

أنتم وشركاؤكم، ولست أشتهيه لخلافه للكتاب، ولأن المعنى فيه ضعيف، لأن الآلهة لا تعمل ولا تجمع»[1].

وقد يردها ويصفها باللحن مستعيناً بقراءة عبد الله بن مسعود: «وقوله: ﴿**لا تقتلوه**﴾[2]، وفي قراءة عبد الله (لا تقتلوه قرةُ عين لي ولك) وإنما ذكرت هذا لأني سمعت الذي يقال له ابن مروان السدي يذكر عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنه قال: إنها قالت: (قرة عين لي ولك لا) وهو لحن، ويقويك على رده قراءة عبد الله»[3].

والقراءة المروية قد لا يشتهيها لمخالفتها رسم المصحف، وعدم خروجها على وجه لغوي مراد في الموضع الذي وردت فيه: «وقوله: ﴿**لا يلتكم**﴾[4]: لا ينقصكم، ولا يظلمكم من أعمالكم شيئاً، وهي من لات يليت، والقراء مجمعون عليها، وقد قرأ بعضهم: لا يألتكم، ولست أشتهيها، لأنها بغير ألف كتبت في المصاحف، وليس هذا بموضع يجوز فيه سقوط الهمز، ألا ترى قوله: ﴿**يأتون**﴾[5] و﴿**يأمرون**﴾[6] و﴿**يأكلون**﴾[7] لم تلق الألف في شيء منه لأنها ساكنة، وإنما تلقى الهمزة إذا سكن ما قبلها، فإذا سكنت هي – يعني الهمزة – ثبتت فلم

---

(١) معاني القرآن: ١/ ٤٧٣.

(٢) سورة القصص، الآية: ٩، ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾.

(٣) معاني القرآن: ٢/ ٣٠٢.

(٤) سورة الحجرات، من الآية: ١٤.

(٥) سورة التوبة، من الآية: ٥٤.

(٦) سورة الإسراء، من الآية: ٨٨.

(٧) سورة الكهف، من الآية: ١٥.

تسقط وإنما اجترأ على قراءتها ﴿**يألتكم**﴾ أنه وجد: ﴿**ما ألتناهم من عملهم من شيء**﴾[1] في موضع، فأخذ ذا من ذلك، فالقرآن يأتي باللغتين المختلفتين، ألا ترى قوله: ﴿**تُملى عليه**﴾[2] وهو في موضع آخر: ﴿**فليكتب وليملل**﴾[3]، ولم تحمل إحداهما على الأخرى فتتفقا، ولات يليت، وألَت يألِتُ لغتان»[4].

وإذا كان قد جوز، عربيةً، بعض الوجوه التي لم يقرأ بها أحد من القراء فهو يذكر ما يجوز في اللغة مما سمع من العرب ولكن مع الامتناع عن القراءة به لمخالفته الكتاب: «وإذا تركت الهمزة من ﴿**الرؤيا**﴾[5] قالوا: الرويا طلباً للهمزة[6]، وإذا كان من شأنهم تحويل الهمزة، قالوا: لا تقصص رُيَّاك في الكلام، فأما في القرآن فلا يجوز لمخالفة الكتاب»[7].

وفي الحالة التي تروى فيها قراءة مخالفة لرسم القرآن مع رواية أخرى تسندها فتقول: إنّ الرسم (خطأ من الكاتب)[8] أو: إن في المصحف لحناً وستقيمه العرب[9]، فإن الفراء لا يشتهي مخالفة الكتابة القرآنية مادامت على لغة فصيحة مسموعة ومادام لها وجه في العربية[10].

---

(١) سورة الطور، من الآية: ٢١.
(٢) سورة الفرقان، من الآية ٥.
(٣) سورة البقرة، من الآية: ٢٨٢.
(٤) معاني القرآن: ٣/ ٧٤، وينظر: ١/ ١٢٥.
(٥) من قوله تعالى: ﴿يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا﴾ سورة يوسف، الآية: ٥.
(٦) أي مراعاة لها كأنها موجودة، ومن ثم تجنب القلب والإدغام.
(٧) معاني القرآن: ٢/ ٣٥.
(٨) نفسه: ٢/ ١٨٣.
(٩) نفسه: ٢/ ١٨٣ – ١٨٤.
(١٠) نفسه: ٢/ ١٨٣ – ١٨٤.

ولعل الدكتور عبد الفتاح شلبي ظن أن الفراء يناقض نفسه في موقفه من رسم المصحف إذ رأى أن اتجاهه في ذلك: «لا يخضع لنظام معين، أو نظرة مطردة، إذ هو حيناً يرتضي ما يخالف الرسم، وأحياناً يشير إلى موافقة الكتاب فيحتج برسمه»[1].

ولست أرى ما رآه الدكتور شلبي لأن ذلك يتفق مع منهجه العام في الاحتجاج بالقراءات المتواترة، وإجازة ما لم يقرأ به عربية لا قراءة، والاحتجاج بالقراءات الشاذة ما وافقت وجهاً من كلام العرب ومذاهبها.

فهو حين يعلل لرسم كتاب المصحف ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ من غير ألف، ورسمهم فسبح باسم ربك العظيم بألف[2] فإنما يعلل تعليلاً حسناً لا غبار عليه فحذفت الألف من الأولى «لأنها وقعت في موضع معروف لا يجهل القارىء معناه، ولا يحتاج إلى قراءته، فاستخف طرحها، لأن من شأن العرب الإيجاز وتقليل الكثير إذا عرف معناه، وأثبتت في قوله: ﴿**فسبح باسم ربك العظيم**﴾ لأنها لا تلزم هذا الاسم، ولا تكثر معه ككثرتها مع الله تبارك وتعالى. ألا ترى أنك تقول: ﴿**بسم الله**﴾ عند ابتداء كل فعل تأخذ فيه: من مأكل أو مشرب أو ذبيحة فخف عليهم الحذف لمعرفتهم به»[3].

وإذا كان قد استصوب قراءة صحيحة خالفت رسم المصحف، واحتج لها فإنما فعل ذلك من باب صواب وجهها في قواعد العربية، ولأن لها ما يماثلها في

---

(١) أبو علي الفارسي: ٢٦٦.
(٢) معاني القرآن: ١/ ٢ – أبو علي الفارسي: ٢٦٦.
(٣) معاني القرآن: ١/ ٢.

القرآن من حروف حذفت من الكتاب وهي تراد، لكثرة ما تنقص وتزاد في الكلام[1] وهو، في الوقت نفسه، لا يدعو للقراءة بها.

ولم أجده يرتضي القراءة الشاذة التي تجوزها العربية وإن كانت مخالفة للرسم[2]، لأنه وجد لوجه قرئ به وجهاً في العربية فقال: «وهو جائز في العربية وإن كان مخالفاً للكتاب»[3]، ثم علل، عربيةً، هذا الجواز، وذلك لا يعني دعوته للقراءة به.

وفيما سوى ذلك فلا إشكال في موقف الفراء من الرسم القرآني، فهو واضح وصريح في الحرص على مراعاته، إذا كان له وجه من كلام العرب.

ومما يلفت النظر أن الفراء يشير في كثرة إلى قراءة عبد الله، ويشير إلى قراءة أبي أقل من إشارته إلى عبد الله، ولكنها كثيرة بالنسبة إلى ابن عباس، والحسن البصري، وحمزة الزيات، ويحيى بن وثاب والمفضل عن عاصم أبي النجود، وزهير الفرقبي... فالإشارة إلى هؤلاء قليلة نادرة، ومن الملاحظ أن أغلبهم كوفيون، ولهذا أهميته، ذلك لأننا نستطيع أن نتعرف على اتجاهات قراء الكوفة.. وتعليل الإشارة إلى عبد الله بن مسعود أمر ميسور، ذلك لأنه إليه تنتهي قراءة عاصم، وحمزة والكسائي، الكوفيين[4]... هذه واحدة، والأخرى أنه لم يكن أحد من أهل الكوفة يرغب في قراءة ابن مسعود فيما

---

(١) معاني القرآن: ١/ ٨٧ – ٨٨ – أبو علي الفارسي: ٢٦٦.

(٢) أبو علي الفارسي: ٢٦٦.

(٣) معاني القرآن: ١/ ٩٦.

(٤) طبقات القراء: ١/ ٤٥٩.

يقول حذيفة بن اليمان[1]... ولعل ذلك كان وراء قول الفراء، وفي قراءة عبد الله، وفي قراءتنا[2]، وكأن قراءة ابن مسعود غير قراءة أهل الكوفة في عصر الفراء، ولا غرابة بعد ذلك أن يخالف الكسائي وغيره من القراء في الأخذ بوجه غير الذي قرؤوا به مدعماً بالحجة[3].

وقد يقف من القراءات التي لا توافق مذهبه موقفاً سليماً لا يهاجم فيه، بل يعترف به في لطف كأن يقول: «وإنه لأحب الوجهين إليّ» أو يقول: «والرفع أحب إليّ من الجزم في قراءة من قرأ ﴿لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾[4]، وغاية ما يبدو منه إذا لم يسترح إلى قراءة أن يقول: ولست أشتهي ذلك، أو يقول: ولا يعجبني ذلك، وهنا نراه ينفي حبه وإعجابه، ولكن ليس في قسوة البصريين الذين قالوا في قراءة لعبد الله بن عامر: وهي واهية، والقارئ بها واهم»[5].

ولكن ما الذي يمكن أن يقوله الدكتور شلبي في مثل قول الفراء: «وقوله: ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾[6]، وقد خفض الياء من قوله (بمصرخي) الأعمش ويحيى بن وثاب جميعاً. قال الفراء: ولعلها من

---

(١) المصاحف للسجستاني: ٣٥، وأبو علي الفارسي: ٢٦١.

(٢) معاني القرآن: ٣/ ٢٨٢، وينظر: المعاني: ٣/ ١٣٢، ١٣٣، ١٤٦، ١٥٤، ١٥٧.

(٣) معاني القرآن: ٢/ ٢٦٠.

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٣.

(٥) الإنصاف: ٢/ ٤٣٦، وأبو علي الفارسي: ٢٦٣ – ٢٦٤.

(٦) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢.

وهم القراء طبقة يحيى فإنه قل من سلم منهم من الوهم... ومما نرى أنهم أوهموا فيه قوله... ومما أوهموا فيه قوله»[1].

والتوهم الذي قد يقع فيه القارئ لا يبرئه – عند أبي زكريا – من الوقوع في الخطأ: «وقوله: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾[2]، كان الأعمش وعاصم يجزمان الهاء في يؤده، و: ﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى﴾[3]، و: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾[4]، و: ﴿خيراً يره﴾، و ﴿شراً يره﴾[5]، ولهما فيه مذهبان، أما أحدهما فإن القوم ظنوا أن الجزم في الهاء، وإنما هو فيما قبل الهاء، فهذا وإن كان توهماً خطأ»[6].

وكنت ذكرت كيف أنه وصف وجهاً مروياً ومقروءاً به بالقبح [7]، وهذا يدل على أنه لم يكن دائماً رفيقاً رقيقاً في ردّه بعض القراءات التي لا يرى فيها وجهاً من كلام العرب، أو لا توافق مذهبه النحوي واللغوي.

---

(١) معاني القرآن: ٢/ ٧٥ – ٧٦.
(٢) آل عمران، من الآية: ٧٥.
(٣) النساء، من الآية: ١١٥.
(٤) الأعراف، من الآية: ١١١.
(٥) الزلزلة، الآيتان: ٧ – ٨.
(٦) معاني القرآن،: ١/ ٢٢٣.
(٧) معاني القرآن: ١/ ٢٥٢.

الفصل الثاني

اللغــة والصرف

أ – الفراء واللغة:

على الرغم من أن الجانب النحوي هو أبرز الجوانب المتجلية، في كتاب المعـاني، ودليل على شخصيـة الفراء واهتمامه وبروزه في هذا الجانب، فإنه لم يكن ضعيف البصر باللغة كما كان أبو عبيدة ضعيف البصر بالنحو، ودليل ذلك أن له مؤلفات لغوية عديدة ككتاب (اللغات – المصادر في القرآن – الجمع والتثنية – الوقف والابتداء – الفاخر – آلة الكتاب – فعل وأفعل – المقصور والممدود – المذكر والمؤنث)[1]. وقد شهد له في هذا الميدان مثل قول أبي العباس ثعلب: «لولا الفراء ما كانت العربية، لأنه حصنها وضبطها، ولولا الفراء لسقطت العربية، لأنها كانت تنازع ويدعيها كل من أراد، ويتكلم الناس فيها على مقادير عقولهم وقرائحهم فتذهب»[2]. وقال ثمامة بن الأشرس المعتزلي: «ذاكرت الفراء فوجدته في النحو نسيج وحده، وفي اللغة بحراً»[3].

---

(١) الفهرست: ٩٩ – ١٠٠.

(٢) طبقات النحويين واللغويين: ١٤٤، وفيات الأعيان: ٢/٣٣٨ – ٣٣٩، وبروكلمان: ٢/١٩٩.

(٣) شذرات الذهب: ٢/١٩، وضحى الإسلام: ٢/٣٠٧.

وإذا كان في كلام ثعلب وثمامة بن الأشرس شيء من المبالغة، فإن فيه أيضاً شيئاً من علم الفراء باللغة وغريبها وفروقها واختلاف لغات العرب بين المناطق والقبائل، وكيف لا يكون ذلك والكتاب إنما كان الهدف من تأليفه هو شرح الغريب وتفسير ما أشكل معناه من القرآن، مما لابد من جلائه والتدليل عليه من خلال ما ورد في كتاب المعاني.

والناظر في هذا الكتاب يرى الفراء يقلب معاني الكلمة القرآنية الواحدة، ثم يأخذ بالمعنى الذي يراه مناسباً، من غير أن يغفل عرض ما جاء في المنقول، يقول: «وقوله: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ**﴾[1]، الاستواء في كلام العرب على جهتين: إحداهما أن يستوي الرجل وينتهي شبابه، أو يستوي عن اعوجاج فهذان وجهان، ووجه ثالث أن تقول: كان مقبلاً على فلان ثم استوى عليَّ يشاتمني وإليَّ سواء، على معنى أقبل إليَّ وعليَّ، فهذا معنى قوله: ﴿**ثم استوى إلى السماء**﴾ والله أعلم وقال ابن عباس: «ثم استوى إلى السماء» صعد، وهذا كقولك للرجل: كان قائماً فاستوى قاعداً، وكان قاعداً فاستوى قائماً، وكل في كلام العرب جائز»[2].

وقد ينص على ما تقوله العرب في الكلمة الواحدة، من غير أن يعزو ذلك إلى أي من القبائل الناطقة بهذه اللغة أو تلك كأن يقول: «وقوله: ﴿**وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ**﴾[3]، العرب تقول: هذا أمر ليس له وِجْهة، وليس له جِهَة، وليس له وَجْه، وسمعتهم يقولون: وجِّه الحَجَرَ، جِهَةٌ مّا له، ووِجهةٌ مَا له

---

(١) سورة البقرة، من الآية: ٢٩.

(٢) معاني القرآن: ١/ ٢٥.

(٣) سورة البقرة، من الآية: ١٤٨.

ووَجْه مَا له، ويقولون: ضَعْه غير هذه الوِضْعَة، والضِّعة، والضَّعَة، ومعناه: وجِّه الحجر فله جهة»[1].

وبعد أن يعرض ما ورد في الكلمة من لغات العرب يحبذ ما أتى به القرآن فيقول: «وقوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ﴾[2] وفي يأن لغات: من العرب من يقول: ألم يأن لك وألم يئن لك مثل: يَعِنْ، ومنهم من يقول: ألم ينل لك باللام، ومنهم من يقول: ألم يُنَلْ لك، وأحسنهن التي أتى بها القرآن»[3]. وهو في كل هذا، ذو علم بلغات العرب، قديمها وما كان يسمع منها على لسان بعض القبائل، معللاً تلك اللغات بقوانينها: «وأما قوله: ﴿وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾[4] فإن الفُوم فيما ذكر، لغة قديمة وهي الحنطة والخبز جميعاً قد ذكرا. قال بعضهم: سمعنا العرب من أهل هذه اللغة يقولون: فوِّموا لنا بالتشديد لا غير، يريدون اختبزوا وهي في قراءة عبد الله «وثومها» بالثاء، فإنه أشبه المعنيين بالصواب، لأنه مع ما يشاكله: من العدس والبصل وشبهه، والعرب تبدل الفاء بالثاء، فيقولون: جدث وجدف، ووقعوا في عاثُور شرٍّ وعافور شرٍّ[5]، والأثاثي والأثافي، وسمعت كثيراً من بني أسد يسمي المغافير المغاثير»[6].

وسوى قبيلة بني أسد فإن في كتاب المعاني لغات كثيرة لقبائل مختلفة يذكر الفراء أسماءها كهوازن وعليا قيس، «وقد تسقط الواو وهي واو جِمَاع،

---

(١) معاني القرآن: ١/ ٩٠.
(٢) سورة الحديد، من الآية: ١٦.
(٣) معاني القرآن: ٣/ ١٣٤.
(٤) سورة البقرة، من الآية: ٦١.
(٥) أي في اختلاط من الأمر وشدة.
(٦) معاني لقرآن: ١/ ٤١.

اكتفي بالضمة قبلها فقالوا في ضربوا: قد ضَرَبُ، وفي قالوا: قد قالُ ذلك، وهي في هوازن وعليا قيس»[1]. وقريش وتميم: «قال الفراء ذلك وتلك لغة قريش، وتميم تقول ذاك وتيك الوقعة»[2]، وأهل الحجاز: «﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[3]، وقرأها عمر بن الخطاب وابن مسعود (القَيَّام) وصورة القَيُّوم: الفَيْعُول، والقَيَّام الفَيْعَال، وهما جميعاً مدح، وأهل الحجاز أكثر شيء قولاً: الفَيْعال من ذوات الثلاثة، فيقولون للصوَّاغ: الصيَّاغ»[4]. وبني سليم: و«قوله: ﴿فلتَقُمْ﴾[5]، وكل لام أمر إذا استؤنفت، ولم يكن قبلها واو ولا فاء ولا ثم، كسرت، فإذا كان معها شيء من هذه الحروف سُكِّنت، وبنو سليم يفتحون اللام إذا استؤنفت فيقولون: لَيَقُمْ زيد، ويجعلون اللام منصوبة في كل جهة، كما نصبت تميم لام كي إذا قالوا: جئت لآخذ حقي»[6]، ولغات أخرى كلغة عالية نجد[7] وحضرموت[8] وتهامة[9] وأزد عمان[10] وقيس[11] وغيرها من القبائل.

---

(١) معاني القرآن: ١/ ٩١.

(٢) نفسه: ١/ ١٠٩.

(٣) سورة آل عمران، من الآية: ٢.

(٤) معاني القرآن: ١/ ١٩٠، وينظر: ١/ ٤٨٠ و ٢/ ٥٩ و ٣/ ٢٤٦.

(٥) سورة النساء، من الآية: ١٠٢.

(٦) معاني القرآن: ١/ ٢٨٥.

(٧) نفسه: ٢/ ١٦٤ – ٣٩٤.

(٨) نفسه: ٢/ ٢٠٠.

(٩) نفسه: ٢/ ٢٦٥.

(١٠) نفسه: ٢/ ٦٦.

(١١) نفسه: ٣/ ٢٤٦.

وهو لا يخطّئ ما سمع من لغات العرب فيقول: «والعرب تقول: صُعِق الرجل، وصَعِق، وسُعِد، وسَعِد لغات كلها صواب»[1].

وعلم الفراء بتلك اللغات جعله يوجه عليها القراءات القرآنية التي لم يخرج أي منها عن إحدى هذه اللغات، وذلك في مثل قوله تعالى: «﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾[2]، قرأها العوام: (أثارة) وقرأها بعضهم (أَثْرَ) و(أَثَرَ)، قال: قرأ أبو عبد الرحمن فيما أعلم و (أَثْرة) خفيفة، وقد ذكر عن بعض القراء (أَثَرة). والمعنى فيهن كلهن: بقية من علم، أو شيء مأثور من كتب الأولين، فمن قرأ ﴿أثارة﴾ فهو كالمصدر مثل قولك: السماحة والشجاعة ومن قرأ (أَثَرة) فإنه بناه على الأثر، كما قيل: قَتَرة، ومن قرأ (أَثْرة) كأن أراد مثل قوله: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾[3]، والرجفة»[4].

وإذا كان في الكلمة لغة مسموعة ذكرها الفراء، مع النص على عدم جواز القراءة بها، لأن أحداً لم يقرأ بها: «وقوله: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾[5] يقال: خُفْية وخِفْية، وفيها لغة بالواو – ولا تصلح في القراءة -: خُفْوة وخِفْوة، كما قيل: قد حلَّ حُبوته وحِبوته وحِبيته»[6].

---

(١) نفسه: ٣/ ٩٤.

(٢) سورة الأحقاف، من الآية: ٤.

(٣) سورة الصافات، من الآية: ١٠.

(٤) معاني القرآن: ٣/ ٥٠.

(٥) سورة الأنعام، من الآية: ٦٣.

(٦) معاني القرآن: ١/ ٣٣٨.

وربما توسع في لغات كلمة واستطرد إلى ما يماثلها في كلام العرب، وذلك في مثل قوله: «﴿هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾[1] وبزُعمهم، وزِعمهم، ثلاث لغات، ولم يقرأ بكسر الزاي أحد نعلمه، والعرب قد تجعل الحرف في مثل هذا، فيقولون: الفَتْك، والفُتْك، والفِتْك، والوُد، والوِد، والوَد، في أشباه لها، وأجود ذلك ما اختاره القراء الذين يؤثر عنهم القراءة»[2].

واللغة إنما ترتكز إلى قواعد صرفية تنظم قوالبها، وتضبط ألفاظها، وتجعلها متسقة وبعيدة عن الفوضى، وهذا ما كان يستند إليه أبو زكريا، أحياناً، في إصدار حكمه على لفظة من القرآن من مثل إقراره بعدم همز لفظة (معايش) في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾[3]، يقول فيها: (لا تهمز لأنها – يعني الواحدة – مَفْعِلة، الياء من الفعل، فلذلك لم تهمز إنما يهمز من هذا ما كانت الياء فيه زائدة مثل مدينة ومدائن، وقبيلة وقبائل.. وربما همزت العرب هذا وشبهه، يتوهمون أنها فعيلة لشبهها بوزنها في اللفظ وعدة الحروف، كما جمعوا مسيل الماء أمسله، شبه بفعيل وهو مفعِل، وقد همزت العرب المصائب وواحدتها مصيبة، شبهت بفعيلة لكثرتها في الكلام»[4].

وما يميز المذهب الكوفي أنه يتجه إلى واقع الاستعمال اللغوي ويوجه عناية خاصة إلى فروق اللغة[5]، فعلى حين يرى البصريون أن الميم المشددة في

---

(١) سورة الأنعام، من الآية: ١٣٦.

(٢) معاني القرآن: ١/ ٣٥٦.

(٣) سورة الأعراف، من الآية: ١٠.

(٤) معاني القرآن: ١/ ٣٧٣ – ٣٧٤.

(٥) بروكلمان: ٢/ ١٩٦.

(اللهم) عوض من حرف النداء، يرى الفراء أن هذه الميم بقية جملة اختلطت بهذه الكلمة لكثرة الاستعمال، ويرد على البصريين في أن الميم ليست عوضاً من (يا) النداء لأنها قد سمعت مستعملة مع حرف النداء[1] هذا فيقول: «وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾[2] (اللهم) كلمة تنصبها العرب، وقد قال بعض النحويين[3]: إنما نصبت إذ زيدت فيها الميمان لأنها لا تنادى بيا، كما تقول: يا زيد، ويا عبد الله، فجعلت الميم فيها خلفاً من يا. وقد أنشدني بعضهم:

وما عليكِ أن تقولي كلّما صَلَّيتِ أو سبَّحتِ يا اللهمَّ ما
أُرْدُدْ علينا شيخنا مسلما

ولم نجد العرب زادت مثل هذه الميم في نواقص الأسماء إلا مخففة، مثل الفم وابنم وهم، ونرى أنها كانت كلمة ضُمَّ إليها، أُمّ، تريد: يا الله أُمَّنا بخير، فكثرت في الكلام فاختلطت، فالرفعة التي في الهاء من همزة أُمّ لما تركت انتقلت إلى ما قبلها ونرى أن قول العرب: (هلم إلينا) مثلها، إنما كانت (هل) فضم إليها فتركت على نصبها»[4].

وأما الفروق اللغوية ففي الكتاب قسط لا بأس به منها، فحيث يوجد فارق في المعنى بين لفظة يقف عليها، ولفظة أخرى مشابهة، نص عليه زيادة في الفائدة كما هو الحال بين معنى (أصعدت) و(صعدت)، يقول: «وقوله:

---

(١) ينظر في هذه المسألة: الإنصاف، المسألة: ٤٧.
(٢) سورة آل عمران، من الآية: ٢٦.
(٣) يريد البصريين.
(٤) معاني القرآن: ١/ ٢٠٣ – ٢٠٤.

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ﴾[1]، الإصعاد في ابتداء الأسفار والمخارج تقول: أصعدنا من مكة ومن بغداد إلى خراسان، وشبيه ذلك. فإذا صعدت على السلم أو الدرجة ونحوهما قلت: صَعِدت، ولم تقل أصَعدت»[2]، أو بين معنى (الضَّـيْق) و (الضِّـيق): «وقوله: ﴿وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾[3] فالضَّيْق ما ضاق عنـه صدرك، والضِّيق ما يكون في الذي يتسع، مثل الدار والثوب وأشـباه ذلك»[4]، أو بين (قَبَر) و (أَقْبَر) مستطرداً إلى ألفاظ أخرى مشابهة لها في الفروق. «وقوله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾[5] جعله مقبوراً، ولم يجعله ممن يلقى للسباع والطير، ولا ممن يلقى في النواويس، كأن القبر مما أكرم المسلم به، ولم يقل: فقبره، لأن القابر هو الدافن بيده والمُقبِر: الله تبارك وتعالى، لأنه صيَّره ذا قبر، وليس فعله كفعل الآدمي، والعرب تقول: بترت ذنب البعير، والله أبتره، وعضبت قرن الثور، والله أعضبه، وطردت فلاناً عني، والله أطرده صيره طريداً»[6].

كما نجده يذكر ما فيـه معنى التضاد من الكلمات كالفعل (وَلَّى) الذي يحمل معنى أقبل وانصرف[7] و(أثاب) بمعنى كافأ وعاقب[8] وهذا يدركه من

---

(١) سورة آل عمران، من الآية: ١٥٣.

(٢) معاني القرآن: ١/ ٢٣٩.

(٣) سورة النحل، من الآية: ١٢٧.

(٤) معاني القرآن: ٢/ ١١٥.

(٥) سورة عبس، من الآية: ٢١.

(٦) معاني القرآن: ٣/ ٢٣٧.

(٧) نفسه: ١/ ٨٥.

(٨) معاني القرآن: ١/ ٢٣٩.

عرف مذاهب العربية، وربما أنكره من لا يعرف مذاهب العربية بما في ذلك البشارة التي تكون للخير والشر[1] والظهارة التي تكون بطانة وظهارة[2] وكذا الأمر في (خفيت) بمعنى أظهرت وسترت[3].

ويبدو الفراء ذا حس لغوي مرهف حين يعلل لصيغة كلمة ويخرج بقاعدة، مظهراً إدراكه لمناسبة الكلمة لمقتضى الحال الذي وقعت فيه: «وقوله: ﴿فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾[4] يشدد ما كان من جمع، مثل قولك: مررت بثياب مصبَّغة وأكبش مذبَّحة، فجاز التشديد لأن الفعل متفرق في جمع، فإذا أفردت الواحد من ذلك فإن كان الفعل يتردد في الواحد ويكثر جاز فيه التشديد والتخفيف، مثل قولك: مررت برجل مشجَّج، وبثوب ممزَّق، جاز التشديد، لأن الفعل قد تردد فيه وكثر. وتقول: مررت بكبش مذبوح، ولا تقل مذبَّح لأن الذبح لا يتردد كتردد التخرق، وقوله: ﴿وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾[5]، يجوز فيه التشديد، لأن التشييد بناء فهو يتطاول ويتردد، يقاس على هذا ما ورد»[6]. ولكنه قد يروي عن العرب لغة لم ترو عن غيره، فيتفرد برأي غير مستساغ لا يعرف لسواه، وذلك في الجمع بين ساكنين في قوله: «وقوله: ﴿كَانَ يَؤُوساً﴾[7]، إذا تركت الهمزة من قوله (يؤوساً) فإن العرب تقول يَوْساً، ويَوْوْساً يجمعون بين

---

(١) نفسه: ١/ ٢٣٩.

(٢) نفسه: ٣/ ١١٨.

(٣) نفسه: ٢/ ١٧٦.

(٤) سورة النساء، من الآية: ٧٨.

(٥) سورة الحج، من الآية: ٤٥.

(٦) معاني القرآن: ١/ ٢٧٧، وينظر: المعاني: ٣/ ٢٤١.

(٧) سورة الإسراء، من الآية: ٨٣.

ساكنين وكذلك: ﴿وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾[1]، وكذلك: ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾[2] يقول: (بيْس) و (بَيْيْس) و (يؤوده) يجمعون بين ساكنين، فهذا كلام العرب، والقراء يقولون (يوُوْسا) و (يوُوْده) فيحركون الواو إلى الرفع و (بيِيْس) يحركون الياء الأولى إلى الخفض، ولم نجد ذلك في كلامهم، لأن تحريك الياء والواو أثقل من ترك الهمزة، فلم يكونوا ليخرجوا من ثِقَل إلى ما هو أثقل منه[3].

ولا بد هنا من التعقيب على هذا المقبوس الأخير بأنه إذا كان خروج القراء من سكون الواو والياء إلى ضم الأولى وكسر الثانية أثقلَ من ترك همز كل منهما، فإنه – بلا شك – أخف من الجمع بين ساكنين.

ب – الفراء والصرف:

مما سلف الحديث به أن المؤلفات اللغوية الكوفية المبكرة لم تكن خالصة للنحو بمعناه الخاص، كما لم تكن خالصة للغة أو التصريف أو البلاغة أو التفسير أو القراءات، وإنما كانت تختلط فيها هذه العلوم جميعاً جنباً إلى جنب، ولذلك فقد نجد الصرف مختلطاً بالتفسير في مثل: «قوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّـهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذاً﴾[4]، أي يستتر هذا بهذا، وإنما قالوا: لواذاً لأنها مصدر لاوذت، ولو كانت مصدراً للذت لكانت لياذا أي لذت لياذا، كما تقول: قمت قياماً، وقاومتك قواماً طويلاً»[5].

---

(١) سورة البقرة، من الآية: ٢٥٥.

(٢) سورة الأعراف، من الآية: ١٦٥.

(٣) معاني القرآن: ٢/ ١٣٠.

(٤) سورة النور، من الآية: ٦٣.

(٥) معاني القرآن: ٢/ ٢٦٢.

كما قد نجد النحو بجانب الصرف، ليكون الأول مقدمة لإصدار الفراء رأياً في مسائل صرفية في مثل قوله: «و (أشياء) في موضع خفض لا تجرى، وقد قال بعض النحويين: إنما كثرت في الكلام وهي (أفعال) فأشبهت فعلاء فلم تصرف، كما لم تصرف حمراء، وجمعها أشاوى - كما جمعوا عذراء عذارى، وصحراء صحارى – وأشياوات، كما قيل حمراوات، ولو كانت على التوهم لكان أملك الوجهين بها أن تجرى، لأن الحرف إذا كثر به الكلام خف، كما كثرت التسمية بيزيد فأجروه (فصرفوه) وفيه ياء زائدة تمنع من الإجراء.. وكلنا نرى أن أشياء جمعت على أفعلاء كما جمع لين وألييناء، فحذف من وسط أشياء همزة كان ينبغي لها أن تكون (أشيئاء) فحذفت الهمزة لكثرتها وقد قالت العرب: هذا من أبناوات سعد، وأعيذك بأسماوات الله، وواحدها أسماء وأبناء تجرى، فلو منعت أشياء الجري لجمعهم إياها أشياوات لم أجر أسماء ولا أبناء، لأنهما جمعتا أسماوات وأبناوات»[1].

وكنت قد سقت أمثلة على اختلاط العلوم الأخرى بعضها ببعض.. على أني قمت بهذا التقسيم النظري تسهيلاً لوضع اليد على منهج أبي زكريا، ومعرفة الطرق التي كان يسلكها في معالجة تلك العلوم.

وأما ما يخص الصرف والتصريف في كتاب المعاني فإنه يلقانا من موضوعاته ما يعرف بأحوال أبنية الكلم أو الألفاظ العربية من حيث الإبدال والإدغام والإظهار والحذف والزيادة والهمز والوزن الصرفي والجمع وتحديد نوع اللفظة، وغير ذلك مما يندرج تحت علم الصرف، ومِمّا سآتي عليه بدليل من كتاب معاني القرآن.

---

(١) معاني القرآن: ١ / ٣٢١. ويقصد بالجري: صرف الكلمة أي تنوين آخرها.

فالإبدال عرفته العرب، وأخذت به ألفاظها، فأبدلوا الفاء بالثاء، وهـذا ما نص عليـه الفراء في قوله: «وأما قوله ﴿**وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَـلِهَا**﴾[1]، وهـي في قراءة عبـد الله (وثومها) بالثاء والعرب تبدل الفاء بالثاء، فيقولون: جدث وجدف، ووقعوا في عاثور شر وعافور شر والأثاثي والأثافي، وسمعت كثيراً من بني أسد يسمي المغافير المغاثير»[2]. كما أبدلوا الهمزة واواً وهو في ذلك يميز بين ما أصل لغته غير الهمز وبين ما أصله الهمز ثم أبدل همزه واواً فيقول:«وقوله: ﴿**ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ**﴾[3]، الوصيد: الفِنـاء، والوصيـد والأصيد لغتان مثل الإِكاف والوِكاف[4]، ومثل أرخـت الكتاب وورخته، ووكدت الأمر وأكدته، فأما قول العرب: واخيت ووامرت وواتيت وواسيت فإنها بنيت على المواخاة والمواساة والمواتاة والموامرة، وأصلها الهمـز، كما قيل: هو أسول منك، وأصله الهمز فبدل واوا وبني على السوال»[5]. وقد تبدل الميـم بالباء لتقارب مخرجيهما: «قوله: ﴿**مِنْ طِينٍ لازِبٍ**﴾[6] اللازب: اللاصق، وقيس تقول: طين لاتب، والعرب تقول: ليس هذا بضربة لازب ولازم، يبدلون الباء ميماً، لتقارب المخرج[7]، كما تبدل تاء الافتعال دالاً فيما أوله زاي، وهذا إبدال مطرد يشكل قاعـدة

---

(١) سورة البقرة، من الآية: ٦١.

(٢) معاني القرآن: ١/ ٤١.

(٣) سورة الكهف، من الآية: ١٨.

(٤) هو برذعة الحمار.

(٥) معاني القرآن: ٢/ ١٣٧.

(٦) سورة الصافات، من الآية: ١١.

(٧) معاني القرآن: ٢/ ٣٨٤.

ويقاس عليه: «وقوله: ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾[1]، زُجِر بالشتم، وازدُجِر افتعل من زَجَرْتُ، وإذا كان الحرف أوله زاي صارت تاء الافتعال فيه دالاً، من ذلك: زُجِر، وازدُجِر، ومُزْدَجَر، ومن ذلك: المزدَلِف ويزداد هي من الفعل يفتعل فقس عليه ما ورد»[2].

ومما يدخل في الإبـدال ما يعرف بإعـلال القلب وهو أن ينقلب أحد حروف العلة حرفاً آخر كما في إبدال الواو تاء: «وقوله: ﴿تالله﴾[3] العرب لا تقول تالرحمن ولا يجعلون مكان الواو تاء إلا في الله عز وجل، وذلك أنها أكثر الأيمان مجرى في الكلام، فتوهموا أن الواو منها لكثرتها في الكلام، وأبدلوها تاء كما قالوا: التراث، وهو مـن ورث، وكما قال: ﴿رسلنا تترى﴾[4] وهي من المواترة، وكما قالوا التخَمَة وهي من الوَخَامة والتُّجاه ـ وهي من واجهك»[5]، وكذلك قلب الواو ياء لانكسار ما قبلها مـن إعلال القلب وهو شائع معروف: «وقوله: ﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً﴾[6] ولو أتت: مرضوا كان صواباً، لأن أصلها الواو، ألا ترى أن الرضوان بالواو»[7].

وقد يكون قانون الخفة والثقل حكماً أساساً في نطق الكلام في حالتي الإدغام والإظهار، وقد أقر أبو زكريا أن الأصل في ألفاظ القرآن الإظهار، ولكن

---

(١) سورة القمر، من الآية: ٩.
(٢) معاني القرآن: ٣/ ١٠٦.
(٣) سورة يوسف، من الآية: ٧٣.
(٤) سورة المؤمنون، من الآية: ٤٤.
(٥) معاني القرآن: ٢/ ٥١.
(٦) سورة مريم، من الآية: ٥٥.
(٧) معاني القرآن: ٢/ ١٦٩ – ١٧٠.

حين يثقل الإظهار على اللسان يكون الإدغام، وفصل في ذلك القول ثم خلص إلى تلك القاعدة فقال: «وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ﴾[1]، العرب تدغم اللام عند النون إذا سكنت اللام وتحركت النون... وكذلك قوله: ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾[2] تدغم اللام عند التاء من بل وهل وأجل، ولا تدغم في اللام التي قد تتحرك في حال.. واظهارهما[3] جائز، لأن اللام ليست موصولة بما بعدها، كاتصال اللام من النار وأشباه ذلك، وإنما صرت أختار ﴿هل تستطيع﴾[4]، و﴿بل نظنكم﴾[5] فأظهر، لأن القراءة من المولدين مصنوعة لم يأخذوها بطباع الأعراب، إنما أخذوها بالصنعة، فالأعرابي ذلك جائز له لما يجري على لسانه من خفيف الكلام وثقيله، ولو اقتست في القراءة على ما يخف على ألسن العرب فيخففون أو يدغمون لخففت قوله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾[6]، فقلت: أيشٍ أكبر شهادة، وهو كلام العرب فليس القراءة على ذلك، إنما القراءة على الإشباع والتمكين، ولأن الحرف ليس بمتصل مثل الألف واللام: ألا ترى أنك لا تقف على الألف واللام مما هي فيه، فلذلك لم أظهر اللام عند التاء وأشباهها.. فأ ما قوله: ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾[7] فإن اللام تدخل في الراء دخولاً شديداً، ويثقل على اللسان إظهارها فأدغمت، وكذلك فافعل

---

(١) سورة سبأ، من الآية: ٧.

(٢) سورة الحاقة، من الآية: ٨.

(٣) أي إظهار اللام والتاء.

(٤) سورة المائدة، من الآية: ١١٢.

(٥) سورة هود، من الآية: ٢٧.

(٦) سورة الأنعام، من الآية: ١٩.

(٧) سورة المطففين، من الآية: ١٤.

بجميع الإدغام: فما ثقل على اللسان إظهاره فأدغم، وما سهل لك فيه الإظهار فأظهر ولا تدغم»[1].

ويندرج تحت هذا القانون معظم ما ورد في كتاب المعاني من حالات الإدغام كإدغام المتماثلين في لفظة ﴿حيَّ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾[2] يقول: «كتابتها على الإدغام بياء واحدة، وهي أكثر قراءة القراء، وقد قرأ بعضهم: (حيِيَ عن بينة) بإظهارها، وإنما أدغموا الياء مع الياء، وكان ينبغي لهم ألا يفعلوا، لأن الياء الآخرة لزمها النصب في فَعَل، فأدغموا لما التقى حرفان متحركان من جنس واحد، ويجوز الإدغام في الاثنين للحركة اللازمة للياء الآخرة، فتقول للرجلين: قد حيَّا، وحَيِيَا»[3]. وكذا الإدغام الناجم عن تقارب مخارج الحروف، كإدخال الطاء الساكنة بالتاء، وتحويل الظاء والذال والدال تاء: «وقوله: ﴿فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ﴾[4]، قال بعض العرب: أَحَطُّ فأدخل الطاء مكان التاء والعرب إذا لقيت الطاءُ التاءَ فسكنت الطاءُ قبلها صيروا الطاء تاء، فيقولون: أحَتُّ، كما يحولون الظاء تاء في قوله: ﴿أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾[5] والذال والدال تاء مثل ﴿أَخَتُّم﴾[6]، ورأيتها في بعض مصاحف عبد الله (وأختم) ومن العرب من يحول التاء إذا كانت بعد الطاء طاء فيقول: أحط»[7].

---

(١) معاني القرآن: ٢/ ٣٥٣ – ٣٥٤، وينظر: ١/ ١٧٢.

(٢) سورة الأنفال، من الآية: ٤٢.

(٣) معاني القرآن: ١/ ٤١١.

(٤) سورة النمل، من الآية: ٢٢.

(٥) سورة الشعراء، من الآية: ١٣٦.

(٦) سورة آل عمران، من الآية: ٨١.

(٧) معاني القرآن: ٢/ ٢٨٩.

ومن هذا القبيل ما يكون من إدغام الذال والتاء والطاء والظاء في تاء الافتعال[1] وإدغام التاء في السين[2]، والثاء[3] والذال لتصير التاء والذال ذالاً مشددة[4] والزاي[5] وإدغام نونين من كلمتين[6].

والحذف والزيادة، بمعناهما الصرفي لا البلاغي، قد يقعان في بناء الكلمة الواحدة لدلالة الحركة على الحرف المحذوف، كأن تحذف الياء اكتفاء بالكسرة قبلها، والواو اكتفاء بالضمة، يقول: «وقوله: ﴿**واخشوني**﴾[7] أثبتت فيها الياء ولم تثبت في غيرها، وكل ذلك صواب، وإنما استجازوا حذف الياء لأن كسرة النون تدل عليها، وليست تَهيَّب العرب حذف الياء من آخر الكلام إذا كان ما قبلها مكسوراً، من ذلك: ﴿**ربي أكرمنِ - و - أهاننِ**﴾[8]، ومن غير النون ﴿**المناد**﴾[9] و﴿**الداع**﴾[10] وهو كثير، يكتفى من الياء بكسر ما قبلها، ومن الواو بضم ما قبلها، مثل قوله: ﴿**سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ**﴾[11] و﴿**يدع الإنسان**﴾[12] وما أشبهه، وقد تسقط

---

(١) معاني القرآن: ١/ ٢١٥ – ٢١٦.
(٢) نفسه: ١/ ٢٥٣.
(٣) نفسه: ١/ ٤٣٧.
(٤) نفسه: ١/ ٤٢٧.
(٥) نفسه: ٢/ ١٣٦.
(٦) نفسه: ٢/ ١٤٤.
(٧) سورة البقرة، من الآية: ١٥٠.
(٨) سورة الفجر، ١٥، ١٦.
(٩) سورة ق، من الآية: ٤١.
(١٠) سورة القمر، ٦، ٨.
(١١) سورة العلق، من الآية: ١٨.
(١٢) سورة الإسراء، من الآية: ١١.

العرب الواو وهي واو جماع، اكتفي بالضمة قبلها فقالوا في ضربوا: قد ضربُ... وتفعل ذلك في ياء التأنيث»[1].

وإنما يكون الحذف استثقالاً، أو مراعاة لرؤوس الآيات، أو لكثرة الاستعمال[2] ويجوز حذف إحدى التاءين من بداية الكلمة طلباً للخفة وإن لم يصرح بهذا السبب، وذلك في قوله: «وكل موضع اجتمع فيه تاءان جاز فيه إضمار إحداهما، مثل قوله: ﴿لعلكم تَذَكَّرون﴾[3]، ومثل قوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ﴾»[4] وأما الزيادة فقد تكون في الكلمة عوضاً من حرف محذوف لعلة صرفية في بناء الكلمة، وهي التي تعرف بزيادة العوض التي ينص عليها الفراء في قوله: «وأما قوله: ﴿وإقام الصلاة﴾[5] فإن المصدر من ذوات الثلاثة إذا قلت: أفعلت كقيلك: أقمت وأجرت وأجبت يقال فيه كله: إقامة وإجارة وإجابة لا يسقط منه الهاء، وإنما أدخلت لأن الحرف قد سقطت منه العين، كان ينبغي أن يقال: أقمته إقواماً وإجواباً فلما سكِّنت[6] الواو وبعدها ألف الإفعال فسكِّنتا سقطت الأولى منهما، فجعلوا فيه الهاء كأنها تكثير للحرف، ومثله مما أسقط منه بعضه فجعلت فيه الهاء قولهم: وعدته عِدة ووجدت في المال جِدةً... لما أسقطت الواو من أوله كثُر من آخره بالهاء، وإنما استجيز سقوط الهاء من قوله: «وإقام الصلاة» لإضافتهم إياه»[7].

---

(١) معاني القرآن: ١ / ٩٠ – ٩١.
(٢) نفسه: ١ / ٢٠١.
(٣) سورة الأنعام، من الآية: ١٥٢.
(٤) سورة هود، من الآية: ٥٧. وانظر: معاني القرآن: ١ / ٢٨٤.
(٥) سورة النور، من الآية: ٣٧.
(٦) أي بعد نقل حركتها إلى ما قبلها.
(٧) معاني القرآن: ٢ / ٢٥٤.

وقد ينص على موضع الهمز، وتركه تخفيفاً لكثرة الاستعمال كما في قوله: «﴿سَلْ بَنِي إِسْرائيلَ﴾[1] لا تهمز في شيء من القرآن، لأنها لو همزت كانت (اسأل) بألف، وإنما ترك همزها في الأمر خاصة، لأنها كثيرة الدور في الكلام، فلذلك ترك همزه كما قالوا: كل وخذ، فلم يهمزوا في الأمر، وهمزوه في النهي وما سواه، وقد تهمزه العرب، فأما في القرآن فقد جاء بترك الهمز»[2]. وربما كان أصل الاسم الممدود مهموزاً فيبين ذلك: «وقوله: ﴿فيذهب جفاء﴾[3] ممدود أصله الهمز يقول: جفأ الوادي غثاءه جَفْئا، وقيل: الجُفاء كما قيل الغثاء»[4]. أو يكون أصل الفعل مهموزاً ثم ترك همزه فيشير إلى هذا: «وقوله: ﴿أُولَئِك هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾[5]، البرية غير مهموز، إلا أن بعض أهل الحجاز همزها، كأنه أخذها من قول الله جل وعز بَرَأكم، وبَرَأ الخلق، ومن لم يهمزها فقد تكون من هذا المعنى، ثم اجتمعوا على ترك همزها كما اجتمعوا على يرى وترى ونرى»[6].

ويذكر وزن الأسماء الصرفي ليبين أصل الكلمة المقروء بها كقوله: «وصورة القيوم: الفيعول، والقيام الفيعال وهما جميعاً مدح، وأهل الحجاز أكثر شيء قولاً: الفيعال من ذوات الثلاثة فيقولون للصواغ: الصياغ»[7].

---

(١) سورة البقرة، من الآية: ٢١١.

(٢) معاني القرآن: ١/ ١٢٤ – ١٢٥، وينظر: ٣/ ٢٦٦.

(٣) سورة الرعد، من الآية: ١٧.

(٤) معاني القرآن: ٢/ ٦٢.

(٥) سورة البينة، من الآية: ٧.

(٦) معاني القرآن: ٣/ ٢٨٢.

(٧) نفسه: ١/ ١٩٠، وينظر: ٣/ ٩٨.

كما يميز بين المصدر واسم المرة[1] ويقف على اسم المرة[2] ويفرق بين اسم المكان والمصدر[3] والاسم والمصدر[4] واتفاقهما في لفظ واحد[5] وصيغة قياسية واحدة، يقول: «وقوله: ﴿وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً﴾[6] جاء العتو بالواو لأنه مصدر مصرح، وقال في مريم: ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيّاً﴾[7]، فمن جعله بالواو كان مصدراً محضاً، ومن جعله بالياء قال: عاتٍ وعُتِيّ فلما جمعوا، بني جمعهم على واحدهم. وجاز أن يكون المصدر بالياء أيضاً لأن المصدر والأسماء تتفق في هذا المعنى: ألا ترى أنهم يقولون: قاعد وقوم قعود، وقعدت قعوداً، فلما استويا هاهنا في القعود لم يبالوا أن يستويا في العتو والعتي»[8] ويرى أن المصدر يكفي من الأسماء، والأسماء تكفي من المصدر حيث يكون المعنى معروفاً بهما[9] كما أنه –أي المصدر– لا يجمع بل يلزم لفظاً واحداً في الإفراد والتثنية والجمع، العرب تقول: «نحن منك البراء والخلا، والواحد والإثنان والجميع من المؤنث والمذكر يقال فيه: براء لأنه مصدر»[10]. والنسبة إلى مصدر اسم موضوع تكون على فُعُولة وفُعُولية. يقول: «والعرب تقول: فعل ذلك في غلوميته وفي غلومته، وفي غلاميته وسمع

---

(١) معاني القرآن: ١/ ١٥٢، وينظر: ٢/ ١٩٠ – ٦٢ – ٢٤٥.
(٢) نفسه: ٢/ ٢٧٨.
(٣) نفسه: ٣/ ٤٤.
(٤) نفسه: ٢/ ٣٠٢.
(٥) نفسه: ٢/ ٢٣٤.
(٦) سورة الفرقان، من الآية: ٢١.
(٧) سورة مريم، من الآية: ٦٩.
(٨) معاني القرآن: ٢/ ٢٦٥.
(٩) نفسه: ١/ ٤٢٧.
(١٠) معاني القرآن: ٣/ ٣٠، وينظر: ٢/ ٥٤ – ٢٦٣ – ٢٦٤.

الكسائي العرب تقول: فعل ذلك في وليديته يريد: وهو وليد، أي: مولود، فما جاءك من مصدر لاسم موضوع فلك فيه: الفُعُولة، والفعولية، وأن تجعله منسوباً على صورة الاسم، من ذلك أن تقول: عبد بين العبودية والعبودة»[1].

أضف إلى ذلك أنه يوضح الفارق بين جمع التكسير والسالم[2] والجمع واسم الجمع، وإن لم يصرح بلفظ الأخير فإنه يستشف من السياق: «وقوله: ﴿**عظاماً ورفاتاً**﴾، الرفات: التراب لا واحد له، بمنزلة الدقاق والحطام[3]، وعنده أن اسم الفاعل يدل على الحدوث والصفة المشبهة تدل على الثبوت[4] وقد أدرك الرَّوْم وأراده في تفسيره وإن لم يذكره صراحة، وقوله: «﴿**إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ**﴾[5] إن تركت الهمز من براء أشرت إليه بصدرك، فقلت: براء. وقال الفراء: مدة، وإشارة إلى الهمز، وليس يضبط إلا بالسمع»[6]. والقاعدة في الإمالة أن الألف التي أصلها ياء تجوز إمالتها وفتحها، والألف التي أصلها واو يجب فتحها منفردة، ويجوز إمالتها إذا اختلطت بما أصله ياء.. يقول: «وقوله: ﴿**والشمس وضحاها**﴾[7] ضحاها: نهارها، وكذلك قوله ﴿**والضحى**﴾[8] هو النهار كله بكسر[9] الضحى: من ضحاها

---

(١) نفسه: ٣/ ١٣٧.

(٢) نفسه: ١/ ١٣٠ – ١٣١.

(٣) نفسه: ٢/ ١٢٥.

(٤) نفسه: ٢/ ٢٨٠.

(٥) سورة الممتحنة، من الآية: ٤.

(٦) معاني القرآن: ٣/ ١٤٩.

(٧) سورة الشمس، من الآية: ١.

(٨) سورة الضحى، من الآية: ١.

(٩) أي إمالة ألف الضحى.

وكل الآيات التي تشاكلها، وإن كان أصل بعضها بالواو، ومن ذلك: تلاها، وطحاها، ودحاها لما ابتدئت السورة بحروف الياء والكسر اتَّبَعَها ما هو من الواو، ولو كان الابتداء للـواو لجاز فتح ذلك كله، وكان حمزة يفتح ما كان من الواو – ويكسر ما كان من الياء – وذلك من قلة البصر بمجاري كلام العرب، فـإذا انفرد جنس الواو فتحته، وإذا انفرد جنس الياء، فأنت فيـه بالخيار إن فتحـتَ وإن كسرتَ فصواب»[1].

وفضلاً عن أن الفراء يسن القـواعد الصرفيـة[2] فإنه في الأعم الأغلب يصوغ تلك القواعد بعـد عرض الشواهد[3]، وقـد يدعمها بالمأثور عـن القراء وصولاً إلى النبي عليه السلام[4].

ولعلي أكون، في هذا العرض السريع وبما أوردته من كتاب (معاني القرآن) قد كشفت عن منهج أبي زكريا الفراء، وطرق تفكيره في كل من التفسير والقراءات واللغة والصرف.

---

(١) معاني القرآن: ٣/٢٦٦.

(٢) نفسه: ٢/٤٧.

(٣) معاني القرآن: ٢/٣٩٩.

(٤) المصدر نفسه: ٣/١٠٧.

الفصل الثالث

في البلاغة ومصطلحاتها

عند الحديث في نشأة البلاغة، لا يمكن إنكار الدور الذي لعبه اللغويون والنحاة والجهود التي بذلوها في تأسيس بنيانها الذي اكتمل وتطاول في مراحل لاحقة، ذلك أن: «من أكبر العاملين في بناء البلاغة جماعة اللغويين، والنحاة.. فقد عني اللغويون والنحاة ببحث الألفاظ ودلالتها، والعربية وقواعد بيانها، وعرضوا لما في النصوص من بلاغة عند شرحها»[1].

وإن للقرآن الكريم أيضاً فضلاً لا ينكر في هذا المجال حين (شعر العلماء بواجبهم نحو القرآن فانصرفوا يؤلفون في مجازه، ومعانيه، ولغته وغريبه، ووجوه إعجازه، وانكبوا على دراسته بما يملكون من مواهب وطاقات عقلية ونفسية، وبما وسعته علومهم وأعمارهم، فكانت لنا من ذلك علوم التفسير والفقه والقراءات وعلوم النحو والبلاغة)[2].

ومما يجدر كذلك بالبيان فضل المتكلمين في نشوء البلاغة إذ كان لهم أكبر الأثر في تاريخ البلاغة العربية، فقد عنوا بالجدل الطويل حول تافه

---

(١) البلاغة العربية في دور نشأتها، د. سيد نوفل، ص: ٣٦.

(٢) الموجز في تاريخ البلاغة، د. مازن المبارك، ص: ٣٧ – ٣٨.

المسائل وعظيمها، واتخذوا من الألفاظ وفهم دلالتها وعرضها على ألوان شتى وسيلتهم إلى الغلب في هذا الميدان[1].

وبهذا فأبو زكريا واحد من علماء المعتزلة الذين اشتغلوا بقضايا القرآن الكريم وألفوا فيها كتباً في البلاغة، أو على الأقل فيما يتصل بها[2].. ونحن (حين نستعرض مادة هذه الكتب القرآنية نجد فيها إشارات كثيرة إلى أمور أصبحت فيما بعد أنواعاً بلاغية ذات أسماء أو اصطلاحات محددة، ففي (معاني القرآن) يقول الفراء: «وقوله: ﴿فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾[3]، ربما قال القائل: كيف تربح التجارة؟ وإنما يربح التاجر، وذلك من كلام العرب، ربح بيعك، وخسر بيعك، فحسن القول بذلك، لأن الربح والخسران إنما يكونان في التجارة فعلم معناه، ومثله من كلام العرب: هذا ليل نائم، ومثله من كتاب الله: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾[4]، وإنما العزيمة للرجال»[5].

وهذا ذكر واضح للمجاز، وإن لم يسمه الفراء[6].. فالفراء – في النص السابق – أدرك العلاقة بين المجاز والحقيقة في إسناد الفعل إلى غير فاعله، لعلاقة بين الفاعل الأصلي والفاعل النحوي مع قرينة مانعة من إرادة الإسناد الحقيقي، وهذا ما عرف بالمجاز العقلي[7].

---

(١) البلاغة العربية في دور نشأتها، ص: ٢٥، وينظر: علوم البلاغة العربية، ص: ٩.

(٢) البلاغة العربية في دور نشأتها، ص: ٣٨.

(٣) سورة البقرة، من الآية: ١٦.

(٤) سورة محمد، من الآية: ٢١.

(٥) معاني القرآن: ١/ ١٤.

(٦) الموجز في تاريخ البلاغة، ص: ٣٩ – ٤٠.

(٧) وينظر في المجاز العقلي أيضاً معاني القرآن: ٢/ ٣٦٣ – ٣/ ١٨٢.

وتوقف الفراء أيضاً «أمام مـا سيطلق عليه فيما بعد اسم (المجاز المرسل)، وذلك حين يتعرض لقوله تعالى: ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّـهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾[1]، حيث يقول: «السجود في هذا الموضع اسم للصلاة لا للسجود، لأن التلاوة لا تكون في السجود ولا في الركوع»[2] والعلاقة التي يشير إليها الفراء هنا هي علاقة تعبير الجزء عن الكل، فالسجود جزء من الصلاة ولذلك عبر عن الصلاة – الكل – بالسجود – الجزء، والقرينة التي تسمح بهذا التجوز أن التلاوة لا تكون في السجود ولا في الركوع، بل تكون في الصلاة عموماً ولهذا السبب – أي بسبب عدم غموض المعنى – جاز هذا التعبير»[3].

وتنبه كذلك إلى حالات بلاغية أخرى تحولت فيها الألفاظ عن معانيها على سبيل الرخصة والمجاز، وكما أشار إلى التعبير بالجزء عن الكل تنبه إلى أن الواحد يؤدي عن الجمع، والجمع يؤدي عن الواحد[4] وإنما يكتفى بذكر الواحد عن الجمع لاتفاق المعنى[5] وقد يعبر بالجمع عن المثنى[6] والمثنى عن الجمع[7] والجمع قد يراد به مفرد[8]، وربما كانت غاية ذلك تعظيم هذا المفرد[9].

---

(١) سورة آل عمران، من الآية: ١١٣.

(٢) معاني القرآن: ١/ ٢٣١.

(٣) الاتجاه العقلي في التفسير، ص: ١٠٥، وينظر: معاني القرآن: ٣/ ٢٧٧.

(٤) معاني القرآن: ١/ ٤٢٦.

(٥) نفسه: ١/ ٤٣٤، وينظر: ٢/ ٥ – ١١ – ١٩٩ – ٢٠١ – ٣/ ٣٢.

(٦) معاني القرآن: ١/ ٣٩٤.

(٧) نفسه: ٢/ ٣٩١

(٨) معاني القرآن: ٢/ ١٣ – ٢٣٧.

(٩) نفسه: ٢/ ٢٤٢.

وأشار أيضاً إلى «استعمال اللفظ في معنى الضد، يقول في الآية: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾[1]، والإستبرق ما غلظ من الديباج، وقد تكون البطانة ظهارة، والظهارة بطانة في كلام العرب، وذلك أن كل واحد منها قد يكون وجهاً، وقد تقول العرب – هذا ظهر السماء – وهذا بطن السماء ظاهرها الذي نراه. قال: «وأخبرني بعض الأعراب المحدثين عن ابن الزبير يعيب قتلة عثمان رحمه الله فقال: خرجوا عليه كاللصوص من وراء القرية فقتلهم الله عز وجل شر قتلة، ونجا من نجا منهم تحت بطون الكواكب، يريد هربوا ليلاً فجعل ظهور الكواكب بطونها، وذلك جائز على ما أخبرتك به[2]»[3].

وأما التشبيه فقد ورد في عدة مواضع من كتاب الفراء، ليدل على أن أبا زكريا أدرك الصور البيانية الناجمة عن التمثيل، فحاول أن يقف عليها ويوضح معناها، قال: «وقوله: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ﴾[4] أضاف المثل إلى الذين كفروا، ثم شبههم بالراعي، ولم يقل: كالغنم، والمعنى – والله أعلم – مثل الذين كفروا (كمثل البهائم) التي لا تفقه مما يقول الراعي أكثر من الصوت، فلو قال لها: ارعي أو اشربي، لم تدر ما يقول لها، فكذلك مثل الذين كفروا فيما يأتيهم من القرآن وإنذار الرسول، فأضيف التشبيه إلى الراعي، والمعنى – والله أعلم – في المرعي، وهو ظاهر في كلام العرب أن يقولوا: فلان يخافك كخوف الأسد، والمعنى: كخوفه الأسد، لأن الأسد هو المعروف بأنه المخوف»[5].

---

(١) سورة الرحمن، من الآية: ٥٤.

(٢) معاني القرآن: ٣/ ١١٨.

(٣) أثر القرآن في تطور النقد العربي، ص: ٦٠.

(٤) سورة البقرة، من الآية: ١٧١.

(٥) معاني القرآن: ١/ ٩٩، وينظر: ٢/ ٣٣٠.

وربما فصل في التشبيه أكثر من النص السابق، فبين أركانه، وكأنه فيما يلي يريد التشبيه المجمل الذي حذف منه وجه الشبه، وإن لم يصرح بذلك، يقول: «وقوله: ﴿كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾[1] فإن فيه في العربية ثلاثة أوجه، أحدها: أن تشبه طلعها في قبحه برؤوس الشياطين، لأنها موصوفة بالقبح، وإن كانت لا ترى... والأوجه الثلاثة يذهب إلى معنى واحد في القبح»[2].

ولننظر إليه يفسر التشبيه تفسيراً بيانياً يظهر حسن تذوقه ووقوفه على مواطن الجمال فيه، وهو مثل سابقه تشبيه مجمل بين وجه شبهه المحذوف قائلاً: «وقوله: ﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾[3]، أراد بالوردة الفرس، الوردة تكون في الربيع وردة إلى الصفرة، فإذا اشتد البرد كانت وردة حمراء فإذا كان بعد ذلك كانت وردة إلى الغبرة، فشبه تلون السماء بتلون الوردة من الخيل، وشبهت الوردة في اختلاف ألوانها بالدهن واختلاف ألوانه»[4].

ولعله أدرك ما أطلق عليه البلاغيون فيما بعد اسم التشبيه التمثيلي وإن لم يصرح به، وذلك أن يكون طرفا التشبيه مركبين ووجه الشبه منتزعاً من متعدد[5]، يقول: «وقوله: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾[6]، يحمل من صلة الحمار... شبه اليهود ومن لم يسلم إذ لم ينتفعوا بالتوراة والإنجيل – وهما دليلان على النبي (ﷺ) بالحمار الذي يحمل كتب العلم ولا يدري ما عليه»[7].

---

(١) سورة الصافات، من الآية: ٦٥.
(٢) معاني القرآن: ٢/ ٣٨٧، وينظر: ٣/ ١١٥.
(٣) سورة الرحمن، من الآية: ٣٧.
(٤) معاني القرآن: ٣/ ١١٧.
(٥) ينظر: جواهر البلاغة: ٢٠٠، وعلوم البلاغة: ١٩٨ – ١٩٩.
(٦) سورة الجمعة، من الآية: ٥.
(٧) معاني القرآن: ٣/ ١٥٥، وينظر: ٣/ ٢٨٦.

والتشبيه البليغ أيضاً أراده، وإن لم يسمه، حين وقف على قوله تعالى: ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَا﴾[1] قائلاً: «كانت كصفاء القوارير، وبياض الفضة فاجتمع فيها صفاء القوارير، وبياض الفضة»[2].

وبعد هذا يمكن القول إن محاولة الفراء في فهم التشبيه جديدة، وخطوة متقدمة عن فهم أبي عبيدة له، وهو الذي لم يشر إلى التشبيه غير إشارات عابرة باعتباره مجازاً، ولم يفصِّل فيه تفصيل الفراء عن فهم ودراية[3].

وأما (الكناية) فقد ورد لفظها «في مواضع عديدة من الكتاب، وهو يدل عنده بصفة عامة على المعنى المعروف في البلاغة... والظاهر أن هذا التعبير لكثرة ما ورد في اللغة وكلام الناس، في عصور متقدمة كان معروفاً عندهم، فالكناية ضرورة تعبيرية للتعبير عمّا لا يراد إظهاره للناس كرهاً لنبوه عن الذوق، أو لما فيه من كشف عن غير مستحب كشفه، أو محاولة للتأنق والإغراب في التعبير، وهي بهذا المعنى معروفة عند قدماء اللغويين، وها هو ذا صاحب (معاني القرآن) يفسر قوله تعالى: ﴿سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ﴾[4]، الجلد هاهنا – والله أعلم – الذَّكَر، وهو ما كنى عنه، كما قال: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾[5]، والغائط: الصحراء، والمراد من ذلك: أو قضى أحدكم حاجة[6].

---

(١) سورة الإنسان، من الآية: ١٥.

(٢) معاني القرآن: ٣/ ٢١٧.

(٣) أثر القرآن في تطور النقد العربي: ٥٥.

(٤) سورة فصلت، من الآية ٢٠، وتمام الآية: ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ﴾.

(٥) سورة المائدة، من الآية: ٦.

(٦) أثر القرآن في تطور النقد العربي، ص: ٥٣.

ومن ذلك ما قاله في الآية الكريمة: ﴿وَلَكِنْ لا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً﴾[1]: السر في هذا الموضع النكاح[2]، ويروي بيت امرئ القيس شاهداً على هذه الكناية:

ألا زعمت بسباسة اليومَ أنني كبرت وألا يشهد السِّرَّ أمثالي[3]

«والكناية –عنده– أيضاً بمعنى السَّتر أو الإخفاء عامة، فهي إخفاء معنى، أو إخفاء لفظ أو استبدال غيره به، كما أخفى القول وجيء مكانه بالكتاب في قوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾[4]، فالكتاب يجري مجرى القول[5]، وقد يختفي اللفظ ويبدل به ضمير مثلما في قوله: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾[6]، جلى الظلمة، فجاز الكناية عن الظلمة ولم تذكر لأن معناها معروف، ألا ترى أنك تقول: أصبحت باردة، وأمست باردة، وهبت شمالاً، فكنى عن مؤنثات لم يجر لهن ذكر لأن معناهن معروف[7]»[8].

ونبحث عن الاستعارة في الكتاب فنرى الفراء يشير إليها ويشرحها، من غير أن يسميها أو ينص عليها صراحة، وأوضح مثال لذلك حين تعرض لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾[9]: «القراء مجتمعون على رفع الياء، حدثنا محمد

---

(١) سورة البقرة، من الآية: ٢٣٥.
(٢) معاني القرآن: ١/ ١٥٣.
(٣) المصدر نفسه: ١/ ١٥٣.
(٤) سورة المجادلة، من الآية: ٢١.
(٥) معاني القرآن: ٣/ ١٤٢.
(٦) سورة الشمس، الآية: ٣.
(٧) معاني القرآن: ٣/ ٢٦٦.
(٨) أثر القرآن في تطور النقد العربي: ٥٣.
(٩) سورة القلم، من الآية: ٤٢.

قال: حدثنا الفراء قال: عن ابن عباس أنه قرأ: ﴿**يوم تَكشِفُ عن ساق**﴾ يريد القيامة والساعة لشدتها، قال وأنشدني بعض العرب لجد أبي طرفة:

كشفت لهم عن ساقها وبدا من الشر البراح[1]

وتنبه الفراء إلى أن الصورة البيانية هنا تعبِّر عن الشدة، ولم يسم الصورة بالاستعارة، ولم يشأ الفراء في هذا الموقف أن ينفرد بالتفسير، بل روى عن ابن عباس كي لا يقع في التشبيه فيقع في الحرج»[2].

وتقسيم البلاغيين الكلام إلى خبر وإنشاء لم يفت صاحبنا، فهو قد ميّز بين هذه الضربين في كثير من المواضع، نفهم منه ذلك وإن لم يصرح بالإنشاء، كأن يفرق مثلاً بين الخبر والإنشاء الذي غرضه الأمر في الفعل ﴿**واتخذوا**﴾ من الآية الكريمة: ﴿**وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى**﴾[3] قائلاً: «وقد قرأت القراء بمعنى الجزم[4]، ومن قرأ (واتخذوا) ففتح الخاء كان خبراً»[5].

أو يفرق بين الخبر والإنشاء الذي غرضه النداء[6] أو الدعاء[7] أو الاستفهام[8] ويفصل في الإنشاء أكثر من هذا حيث يبين المعاني التي يخرج إليها، من ذلك إشارته (في مواضع كثيرة من كتابه إلى خروج الاستفهام عن معناه الأساسي

---

(١) معاني القرآن: ٣/ ١٧٧.
(٢) أثر القرآن في تطور النقد العربي: ٥٦، وينظر: المعاني في ضوء أساليب القرآن، ص: ١٤.
(٣) سورة البقرة، من الآية: ١٢٥.
(٤) أي بالأمر.
(٥) معاني القرآن: ١/ ٧٧.
(٦) نفسه: ٢/ ٣٥٩.
(٧) نفسه: ٣/ ٢٩٨.
(٨) نفسه: ١/ ٣٣٥ – ٢/ ٨٤ – ٢٩٢.

كما في قوله: «وقوله: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ﴾[1] وهو استفهام ومعناه أمر، ومثله قول الله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾[2] استفهام وتأويله انتهوا[3]»[4].

ويشير إلى خروج الاستفهام أيضاً (إلى معان أخرى كالتوبيخ في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾[5]، يقول: «قرأ الأعمش وعاصم ونافع والمدني بغير استفهام وقرأ الحسن وأبو جعفر المدني بالاستفهام أأذهبتم، والعرب تستفهم بالتوبيخ ولا تستفهم [6]»[7].

يضاف إلى ما تقدم أن الاستفهام يخرج إلى التعجب[8] والنفي[9] كما يأتي تقريرياً لا يبتغي السؤال عن مجهول بل يهدف إلى إثبات أمر معلوم، ومنه قول الله تعالى لعيسى: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾[10]. قال الفراء في هذه الآية: «هو يعلم ما يقول وما يجيبه به، فرد عليه عيسى وهو يعلم أن الله لا يحتاج إلى إجابته، فكما صلح أن يسأل عمّا يعلم ويلتمس من عبده ونبيه الجواب، فكذلك يشرط من فعل نفسه ما يعلم، حتى كأنه عند الجاهل لا يعلم»[11].

---

(١) سورة آل عمران، من الآية: ٢٠.
(٢) سورة المائدة، من الآية: ٩١.
(٣) معاني القرآن: ١/ ٢٠٢.
(٤) الموجز في تاريخ البلاغة، ص: ٤٠، وينظر: معاني القرآن: ٣/ ١٥٤.
(٥) سورة الأحقاف، من الآية: ٢٠.
(٦) معاني القرآن: ٣/ ٥٤.
(٧) أثر القرآن في تطور النقد العربي: ٥٩، وينظر: معاني القرآن: ٣/ ٨٤ – ١٧٤.
(٨) معاني القرآن: ١/ ٢٣ – ١٧٠ – ٤٢٣ – ٤٦٧ – ٣/ ٢٥٨.
(٩) معاني القرآن: ١/ ٤٢٣ – ٢/ ٨٤ – ٣/ ٢١٣ – ٢٧٨.
(١٠) سورة الدخان، من الآية: ٤٩.
(١١) معاني القرآن: ٢/ ٣٦١.

والأمر يخرج كذلك من أصل معناه، كأن يأتي أمراً في لفظه، ومعناه الجزاء، يقول: «وقوله: ﴿أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾[1] وهو أمر في اللفظ وليس بأمر في المعنى، لأنه أخبرهم أنه لن يتقبل منهم، وهو في الكلام بمنزلة (إن) في الجزاء، كأنك قلت: إن أنفقت طوعاً أو كرهاً فليس بمقبول منك، ومثله ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾[2] ليس بأمر، إنما هو على تأويل الجزاء»[3] أو يأتي الأمر مراداً به الدعاء: «ثم استأنف موسى بالدعاء عليهم فقال: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾[4] يقول: غيرها»[5] أو التهديد كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً﴾[6] فهذا تهديد وليس بأمر محض، وكذلك قوله: ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[7] وما أشبهه»[8] وكذلك خروجه إلى التوبيخ: «وقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾[9] فمعناه – فيما نرى والله أعلم – أنه توبيخ أي ذق فإنك كريم كما زعمت، ولست كذلك»[10].

ويطرأ على الكلام حالات مختلفة لأمور بلاغية تتعلق بالأسلوب، فمن البلاغة أن يحذف ما لا حاجة إلى ذكره طلباً للإيجاز، وهو ما يعرف بإيجاز الحذف،

---

(١) سورة التوبة، من الآية: ٥٣.

(٢) سورة التوبة، من الآية: ٨٠.

(٣) معاني القرآن ١/ ٤٤١، وينظر: المعاني: ٢/ ٣١٤.

(٤) سورة يونس، من الآية: ٨٨.

(٥) معاني القرآن: ١/ ٤٧٧، وينظر: المعاني: ٣/ ٥٨.

(٦) سورة الزمر، من الآية: ٨.

(٧) سورة النحل، من الآية: ٥٥، وسورة الروم، من الآية: ٣٤.

(٨) معاني القرآن: ٢/ ٤١٦، وينظر: ٣/ ٨٠.

(٩) سورة الجاثية، من الآية: ٤٩.

(١٠) معاني القرآن: ٣/ ٤٤، وينظر: ٢/ ٣١٩.

وذلك حين يكون المحذوف معلوماً، يقول: «وقوله: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ﴾[1] ذكر المشي وحده، ولم يذكر أنها مشت حتى دخلت على آل فرعون فدلتهم على الظئر، وهذا في التنزيل كثير، وهو من كلام العرب: أن تجتزئ بحذف كثير من الكلام وبقليله إذا كان المعنى معروفاً»[2]، ومثل ذلك أن يحذف جواب الشرط والقسم للعلم به: «والعرب تحذف جواب الشيء إذا كان معلوماً إرادة الإيجاز»[3]، أو يكون الحذف لوجود قرينة دالة على المحذوف[4] غير أن الحذف لا يكون لمعرفة المحذوف ووضوح المعنى فقط، إذ ربما كان لمشاكلة رؤوس الآيات[5]. وكل ذلك جائز إذا أمن اللَّبْس، وإلا فالحذف والاختصار لا يجوزان إذا أديا إلى الغموض والمعنى المشكل، فالوضوح شرط أساس للحذف، وهذا ما بيّنه أبو زكريا ونص عليه في قوله تعالى: ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾[6]. قال: «ولم يقل: قال الذي لم يتقبل منه (لأقتلنك) لأن المعنى يدل على أن الذي لم يتقبل منه هو القائل لحسده لأخيه: لأقتلنك، ومثله في الكلام أن تقول: إذا اجتمع السفيه والحليم حمد، تنوي بالحمد الحليم... للمعنى الذي لا يشكل، ولو قلت: مرّ بي رجل وامرأة فأعنت، وأنت تريد أحدهما لم يجز حتى يبين، لأنهما ليس فيهما علامة تستدل بها على موضع المعونة، إلا أن تريد فأعنتهما جميعاً»[7].

---

(١) سورة طه، من الآية: ٤٠.

(٢) معاني القرآن: ٢/ ١٧٩، وينظر: ٢/ ٢٧٨ – ٣٩٥ – ١/ ٢٢٨ – ٢٢٩ – ٣/ ١٩.

(٣) معاني القرآن: ٢/ ٦٣، وينظر: ٢/ ٢٤٧ – ٣٠١ – ١/ ٣٣١ – ٣/ ٢٣١.

(٤) نفسه: ١/ ٢٣٠ – ٢٣١ – ٣/ ٢٥٦.

(٥) نفسه: ٣/ ٢٧٤.

(٦) سورة المائدة، من الآية: ٢٧.

(٧) معاني القرآن، ١/ ٣٠٥.

ومثلما كان الحذف اختصاراً عند معرفة المحذوف من بلاغة الكلام، فإن الإطناب من بلاغة الكلام أيضاً إذا قام على زيادة إبلاغه وإيضاحه.. يقول: «وأما قوله: ﴿وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾[1]، فإن الطائر لا يطير إلا بجناحيه، وهو في الكلام بمنزلة قوله: ﴿لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً [أنثى] وَلِيَ نَعْجَةٌ﴾[2] وكقولك للرجل: كلمته بِفِيَّ، ومشيت إليه على رجليَّ، إبلاغاً في الكلام»[3].

وقد تكون الزيادة لتوكيد المعنى المعلوم ، فتحمل فائدة للكلام: «وقوله: ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾[4]... قراءة عبد الله (فإنه لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) والقلب لا يكون إلا في الصدور، وهو توكيد مما تزيده العرب على المعنى المعلوم، كما قيل: ﴿فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾[5]، والثلاثة والسبعة معلوم أنهما عشرة، ومثل ذلك نظرت إليك بعيني»[6]. ويدخل في الزيادة التكرار، ومن أغراضه التخويف[7] أو التغليظ، وهو من أساليب العرب[8].

ومن سمات كلام العرب وأساليبها التقديم والتأخير في الألفاظ لأسباب بلاغية مختلفة، والفراء قد ينص على مواضع التقديم والتأخير في القرآن من دون

---

(١) سورة الأنعام، من الآية: ٣٨.
(٢) سورة ص: الآية: ٢٣، وهذه قراءة ابن مسعود.
(٣) معاني القرآن: ١/ ٣٣٢.
(٤) سورة الحج، من الآية: ٤٦.
(٥) سورة البقرة، من الآية: ١٩٦.
(٦) معاني القرآن: ٢/ ٢٢٨.
(٧) المعاني: ٣/ ٢٨٧.
(٨) نفسه: ٣/ ٢٨٨، وينظر: اثر القرآن في تطور النقد العربي ، ص: ٦١، ومناهج في التفسير، ص: ٥٤ – ٥٥.

ذكر الأسباب. يقول: «وقوله: ﴿فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾[1]، يقول: لا يضيق صدرك بالقرآن بأن يكذبوك، ﴿لتنذر به﴾ مؤخر، ومعناه: (المص، كتاب أنزل إليك لتنذر به فلا يكن في صدرك حرج منه)[2].

وقد يعلل بالتفسير ما أخر ومعناه التقديم نحو قوله تعالى: ﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[3]. يقول: «معناه: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا. هذا معناه، ولكنه أخر ومعناه التقديم – والله أعلم – لأنه إنما أراد: لا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة»[4]، ومثل ذلك ما قدم وحقه التأخير[5].

ومما وقف عليه الفراء من الأساليب وتنبه إليه ما يعرف بـ(الالتفات) في «الانتقال من مخاطبة الشاهد إلى الغائب في قوله عز وجل: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾[6] رويت عن علي بن أبي طالب رحمه الله: (بل تحبون، وتذرون) بالتاء، وقرأها كثير: (بل يحبون)، والقرآن يأتي على أن يخاطب المنزل عليهم أحياناً، وحينا يجعلون كالغَيب، كقوله: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾[7]»[8].

---

(١) سورة الأعراف، من الآية: ٢.
(٢) معاني القرآن: ١/ ٣٧٠، وينظر: ٢/ ١٩٥ – ٣/ ٢١٤ – ٢٥٦.
(٣) سورة براءة، من الآية: ٥٥.
(٤) معاني القرآن: ١/ ٤٤٢.
(٥) نفسه: ٣/ ٢٨٤.
(٦) سورة القيامة، الآيتان: ٢٠ – ٢١.
(٧) سورة يونس، من الآية: ٢٢ ، وانظر: معاني القرآن: ٣/ ٢١١ – ٢١٢.
(٨) أثر القرآن في تطور النقد العربي: ٥٩.

«ومن لطائف أسلوب القرآن التي يذكرها الفراء، أسماء العذاب والقيامة، يقول: «قوله عز وجل: ﴿تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾[1]، والفاقرة الداهية وقد جاءت ألفاظ القيامة والعذاب بمعاني الدواهي وأسمائها.

وهذه التفاتة طريفة من الفراء لتنبهه إلى ما لهذا الاستعمال القرآني من أثر في نفوس العـرب إذ يثير بهذه الألفاظ استدعاءات وجدانية تروع الناس وتخوفهم، لأنهم اعتادوا أن يقرنوا بين الألفاظ وبين مدلولاتها من الدواهي، وجاءت في القرآن تؤدي دورهـا في إثارة معاني الفزع والخوف، وتعويد النفوس رهبة يوم القيامة لتبتعد عن المعاصي وتترك الذنوب»[2].

ويتعرض الفراء لأماكن استعمال الحروف، فيخوض في علم المعاني من خلال مواقع استخدام تلك الحروف[3]، وجواز تعاقب أكثر من واحد منها على موضع واحد[4].

• **الفراء والفاصلة القرآنية:**

تظهر جهود الفراء واضحة جلية في وقوفه على الفواصل القرآنية، وإدراك أهميتها من حيث ارتباطها بمعنى الآية وجمال التعبير واتساق الألفاظ، ولذلك يمكن القول بأن: «الفاصلة في ختام الآية القرآنية تكون مكان القافية في الشعر، تكمل معناها، ويتم بها النغم، ويتسق الوزن، وهي

---

(١) سورة القيامة، الآية: ٢٥، وتمام الآية: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ (القيامة: ٢٤).

(٢) أثر القرآن في تطور النقد العربي: ٦١.

(٣) معاني القرآن: ٣/ ١٣٩.

(٤) نفسه: ١/ ٦٣ – ٢/ ٩ – ١٨٦ – ٢٦١.

تأتي مستقرة في قرارها، مطمئنة في مواضعها، غير نافرة ولا قلقة، يتعلق معناها بمعنى الآية كلها، ولو طرحت لاختل المعنى، فهي في مكانها تؤدي جزءاً من معنى الآية، ينقص ويختل بنقصانها، وقد يشتد تمكن الفاصلة في مكانها حتى إن السامع ليشعر به قبل نطقها»[1].

والفاصلة كانت مدار علل كثيرة لظواهر مختلفة عند أبي زكريا، كحذف الياء من أواخر بعض الفواصل، مراعاة لبقية فواصل السورة، يقول: «وقال إبراهيم: ﴿**ربنا وتقبل دعاء**﴾[2] بغير ياء، وقال في سورة الملك: ﴿**كيف كان نكير**﴾[3] و﴿**نذير**﴾[4] وذلك أنهن رؤوس الآيات، لم يكن قبلهن ياء ثانية فأجرين على ما قبلهن، إذ كان ذلك من كلام العرب»[5].

وقراءة أهل المدينة ﴿**ورِئْيا**﴾[6] بغير همز، وأهل المدينة يقرؤونها بغير همز ﴿**وريّا**﴾ وهو وجه جيد، لأنه مع آيات لسن بمهموزات الأواخر[7]. وعدم همز الفراء ﴿**شان**﴾ في قوله: ﴿**كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ**﴾[8]، غير مهموز، قال: وسألت الفراء عن (شان) فقال: أهمزه في كل القرآن إلا في سورة الرحمن، «لأنه مع آيات غير مهموزات»[9]، وصرف ما لا ينصرف في الفواصل

---

(١) ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن، د. عبد الفتاح لاشين: ٢١١.

(٢) سورة إبراهيم، من الآية: ٤٠.

(٣) سورة الملك، من الآية: ١٨.

(٤) سورة الملك، من الآية: ١٧.

(٥) معاني القرآن: ١/ ٢٠١، وينظر: ٣/ ٢٦٠ – ٢٩٧.

(٦) سورة مريم، من الآية: ٧٤.

(٧) معاني القرآن: ٢/ ١٧١، وينظر: ٢/ ١٧٦.

(٨) سورة الرحمن، من الآية: ٢٩.

(٩) معاني القرآن: ٣/ ١٦.

للوقوف عليها[1]، وقراءة رؤوس الآيات بالتخفيف والتثقيل لمناسبة أغلب المقاطع التي نزلت بها[2]، وعدم تحبيذه قراءة رأس آية بما يخالف رؤوس سائر الآيات تخفيفاً أو تثقيلاً[3]، وتفضيله قراءة رأس الآية بما يوافق رؤوس الآيات الأخرى[4]، وإضافة المصدر إلى صاحبه لموافقة رؤوس الآيات[5]... وغير ذلك من الأمور التي كانت الفاصلة القرآنية علة لها، و «الجديد في كتاب الفراء والجدير بالاهتمام أنه لاحظ هذا النسق الصوتي، وحاول أن يتتبعه، ونراه في ملاحظاته التي أوردها مدركاً تماماً لوزن القرآن مدركاً الغاية التي عمد إليها في التزام وزن بعينه، وهو الترابط بين الكلمات وانسجام النغم، وتوافق الفواصل في آخر الآيات، وإذ تسترعي انتباهه هذه الظاهرة يحاول أن يضبطها ويقارنها بما عرف عند العرب من أوزان الشعر[6]، وهكذا وضع أمامنا قواعد عامة للتغيرات التي يمكن أن تطرأ على الكلمات، والتي قد يعمد إليها القرآن أحياناً للتوافق الموسيقي في نظمه، وصلة تلك التغيرات بما يطرأ على القافية في الشعر لإقامة الوزن[7].

ويُعَدُّ الفراء، في بحثه فواصل القرآن، خطوة متقدمة عمن عاصروه وتقدموه[8]، وأول من عرض للفاصلة وقال بنظامها، وليس أبو الحسن علي بن

---

(١) نفسه: ٣/ ٢١٤.
(٢) نفسه: ٣/ ٢٢٤.
(٣) نفسه: ٣/ ٢٢٥.
(٤) نفسه: ٣/ ٢٢٦ – ٢٣١.
(٥) نفسه: ٣/ ٢٨٣.
(٦) أثر القرآن في تطور النقد العربي: ٦٢.
(٧) أثر القرآن في تطور النقد العربي: ٦٦.
(٨) ينظر: المعاني في ضوء أساليب القرآن: ١٤.

إسماعيل الأشعري **(ت ٣٣٠ هـ)** هو أول القائلين بنظام الفاصلة في القرآن كما ذكر الدكتور محمد زغلول سلام[١]، وذلك: «أن مصطلح الفاصلة لم يستقر نهائياً، حتى اذا جاء الفراء استخدم عدداً من المصطلحات للدلالة على نهايات الآيات حتى ظن أنه لم يعرف مصطلح الفاصلة بل «رؤوس الآيات»[٢] وهذا خلاف الحقيقة، والصواب أن الفراء عرض للفاصلة من خلال المصطلحات التالية:

أ - **رؤوس الآيات:** ورد هذا المصطلح في أربعة مواضع، مثل قوله: «وإن شئت جعلتها ياء إضافة حولت ألفاً لرؤوس الآيات»[٣].

ب - **فصول:** ورد هذا المصطلح في موضعين أحدهما: «وهذا في القرآن كثير بغير الفاء، وذلك لأنه جواب يستغني أوله عن آخره بالوقفة عليه فيقال: ماذا قال لك؟ فيقول القائل: قال كذا وكذا، فكأن حسن السكوت يجوز به طرح الفاء، وأنت تراه في رؤوس الآيات– لأنها فصول –حسناً»[٤].

جـ - **آخر الآية**[٥].

د - **آخر الحروف، أواخر الحروف**[٦].

إذن لم يقتصر الفراء على مصطلح **(رؤوس الآيات)**، ولم يجهل مصطلح **(الفاصلة)** الذي تضمنه القول بـ **(الفصول)**، وإن كانت الفصول واحدها

---

(١) أثر القرآن في تطور النقد العربي: ٢٤٢.

(٢) المرجع السابق.

(٣) معاني القرآن: ٢/١٧٦.

(٤) نفسه: ١/٤٣ – ٤٤.

(٥) نفسه: ١/١٦ – ٢٠٠ – ٢٠١.

(٦) نفسه: ١/٢٠٠ – ٢٠١.

(الفصل) بينما الفواصل واحدتها الفاصلة، لكن المادة اللغوية واحدة وهي (فصل) ويبدو أن ترادف (الفصول) و (الفواصل) لدى الفراء لم يكن بدعاً.

على أن فصل الخطاب في أمر الفراء ما نقله الزركشي في (البرهان) حول قوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿**ولمن خاف مقام ربه جنتان**﴾[1]، قال الفراء: «وإنما ثناهما هنا لأجل الفاصلة، رعاية للتي قبلها والتي بعدها على هذا الوزن، والقوافي تحتمل في الزيادة والنقصان ما لا يحتمله سائر الكلام، ثم ما نقله السيوطي في (الإتقان) حول قوله تعالى: ﴿**إذا انبعث أشقاها**﴾ قال الفراء: لم يقل أشقياها للفاصلة»[2].

هذه هي الجوانب البلاغيـة التي وردت في (معاني القرآن)، فحسبي ما عرضت منها، وحسب الفراء أنه فصل ما أجمله سواه، وأضاف جديداً على سابقيه ومعاصريه فدفع البلاغة خطوة إلى الأمام.

---

(١) سورة الرحمن، من الآية: ٤٦.

(٢) الفاصلة في القرآن، محمد الحسناوي، ص: ٣٧ – ٣٨ – ٣٩.

الفصل الرابع

منهجه في النحو

أولاً: أصوله ومقاييسه:

مما لا شك فيه أن العَالِم الذي يبتغي أن يكون رأس مذهب أو مدرسة لابد له من أصول يستند إليها، وأسس يرسي عليها قواعد مذهبه الذي يدين به، والمدرسة التي إليها ينتمي. وإذا كان كتاب سيبويه قد احتوى المذهب البصري في النحو واللغة، فإن كتاب الفراء (معاني القرآن) قد ضمّ جلّ مذهب أهل الكوفة، وهو الكتاب الرائد في هذا المجال، ولعل أحد الباحثين ذهب إلى أبعد من ذلك فرأى في هذا الكتاب أصولاً جعلته ينسب وضع الأصول إلى مؤلفه، الذي سبق ابن السراج بنحو قرن من الزمان قائلاً: «وبعد.. فكثير من الباحثين ينسبون إلى ابن السراج أنه أول من وضع أصول العربية والنحو في كتاب الأصول، وقد ذكر شيئاً من ذلك محققو كتاب (سر صناعة الإعراب) في مقدمته [1]، ولا بد هنا أن نعترف ليحيى بن

---

(١) مصطفى السقا وآخرون: سر صناعة الإعراب – المقدمة ص: ٦، وينظر: الرأي نفسه لعلي أبو المكارم في (أصول التفكير النحوي) ص: ٤، ومحمد عيد في (أصول النحو العربي) المقدمة، ص: ٢.

زياد الفراء في هذا الميدان، وأنه سبق ابن السراج في وضع أصول العربية بنحو قرن من الزمان»[1].

وقبل التعرف إلى أصول الفراء ومقاييسه، أرى من الضرورة أن أحدد المقصود بالأصول والمقاييس وما ينضوي تحتهما حتى نقف، في ضوء ذلك، على ما ورد منهما في كتاب الفراء، ونكون في عصمة من الإيهام أو الوقوع في التضليل.

لقد عرَّف ابن الأنباري أصول النحو بأنها: «أدلة النحو التي تفرعت منها فروعه وفصوله، كما أن أصول الفقه أدلة الفقه التي تنوعت عنها جملته وتفصيله»[2]. وكما يراد بالأصول الأدلة فهي تعني أيضاً القواعد العامة والقوانين والحجج والمعايير التي يعتمدها النحاة في استنباط قواعد اللغة، وإصدار الأحكام، والاحتجاج لها، وحسم الخلاف مع المذاهب الأخرى، ومما جاء في (الكليات) أن: «الأصل هو أسفل الشيء، ويطلق على الراجح بالنسبة إلى المرجوح، وعلى القانون والقاعدة المناسبة المنطبقة على الجزئيات[3]، كما جاء في كتاب أصول الفقه أن لكلمة (أصل) عدة معان منها القاعدة... فيقال: الأصل أن الأمر يقتضي الوجوب، والأصل أن الفاعل مرفوع يعني أن القاعدة كذلك، كما يقولون هذه المسألة على خلاف الأصل، مريدين بذلك أنها خلاف القاعدة»[4].

وأما كلمة (المقاييس) فهي لا تختلف في معناها عن (الأصول)، وهي جمع (مقياس) وهو ما يقاس به كما يقول ابن منظور[5] يعني أداة القياس وآلته،

---

(١) أبو علي الفارسي: ٢٦٨.

(٢) لمع الأدلة، ص: ٨٠.

(٣) الكليات. مادة الأصل: ١ /١٨٨.

(٤) أصول الفقه، بدران أبو العينين، المقدمة، ص: ٢٢.

(٥) لسان العرب، مادة: قيس.

وعليه فإن المقاييس هي أدوات القياس وآلاته، وقد شاع في كلام العرب استعمال كلمات مترادفات بالمجاورة، أو الإضافة، أو العطف لتقوية المعنى الواحد، يقول الفراء: «يضاف الشيء إلى نفسه إذا اختلف لفظه، كما اختلف الحق واليقين، والدار والآخرة، واليوم والخميس، فإذا اتفقا لم تقل العرب: هذا حق الحق، ولا يقين اليقين، لأنهم يتوهمون إذا اختلفا في اللفظ أنهما مختلفان في المعنى»(١).

وإذا تذكرنا أن القاعدة أو الأصل إنما هي مقياس لتمييز فاسد الكلام من صحيحه، أدركنا أن الأصول والمقاييس من الكلمات المترادفة ذات المعنى الواحد، وفي ذلك يقول ابن فارس: «إن للغة العرب مقاييس صحيحة، وأصولاً تتفرع منها فروع، وقد ألَّف الناس في جوامع اللغة ما ألَّفوا، ولم يعربوا في شيء من ذلك عن مقياس من تلك المقاييس، ولا أصل من الأصول»(٢).

ولا خلاف بين الباحثين في أن السماع والقياس من أصول النحو بل هما الأصلان الرئيسان اللذان أرسيت عليهما قواعد اللغة، وأما العلة فقد اختلفوا فيها بين من جعلها أصلاً في حد ذاتها فألحقها بالأصول، وبين من عدها جزءاً من أصل على أنها أحد أركان القياس الأربعة (أصل وفرع وحكم وعلة جامعة)(٣). والأمر سيان، في كلتا الحالتين، لأن العلة في نهاية المطاف تلحق بالأصول، ولا غنى للقياس عنها لأنه بحاجة إليها إذ لا يحمل

---

(١) معاني القرآن: ١/ ٣٣٠ – ٣٣١.

(٢) معجم مقاييس اللغة: ١/ ١.

(٣) في أصول النحو، ص: ١٠٨.

شيء على شيء إلا لعلة فينسب عندئذٍ حكم الأول للثاني»[1]. وفائدة تلك الأصول هي: «التعويل في إثبات الحكم على الحجة والتعليل»[2].

وإذا كان العامل قد طرحه معظم الباحثين من أصول النحو فلا يجوز لنا إهماله لأهميته في الأصول[3]، ولأنه يرتبط بالعلة ارتباطاً وثيقاً، وفكرة العامل هي: «المحور الذي دار النحو حوله، وتركزت عليه أبحاثه، حتى كانت نظرية العامل شاملة للنحو كله، وحتى كان النحويون يطلقون اسم العوامل ويريدون بها النحو كله، كما فعل الجرجاني حين أطلق على رسالته اسم (العوامل المئة) وكانت شاملة لأبواب النحو جميعاً»[4].

وبعد ذلك سنرى ما ورد في كتاب الفراء من أصول، وكيف كان يضع القواعد، ويقر الأحكام، استناداً إلى السماع، والقياس، والعوامل، والعلل.

أ – السماع والقياس:

مما يجدر التنبيه عليه أننا لا نستطيع الحديث عن السماع دون القياس، أو القياس دون السماع، لأنهما صرحان كبيران قام النحو عليهما، فإغفال أحدهما يمس صناعة النحو وقد يهز أركانها، وكثيراً ما اتكأ القياس على السماع في وضع القاعدة، كقول الفراء في قوله تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾[5] وقوله: ﴿إِنَّهُ أَنَا اللَّـهُ الْعَزِيزُ الْـحَكِيمُ﴾[6]: «تذكر الهاء وتوحدها، ولا يجوز تثنيتها ولا

---

(١) الأصول، د. تمام حسان، ص: ٩٣.
(٢) لمع الأدلة، ص: ٨٠.
(٣) ينظر: أصول النحو العربي، د. محمد خير حلواني، ص: ٥.
(٤) النحو العربي، د. مازن المبارك، ص: ٨٤.
(٥) سورة لقمان، من الآية: ١٦.
(٦) سورة النمل، من الآية: ٩.

جمعها مع جمع ولا غيره، وتأنيثها مع المؤنث وتذكيرها مع المؤنث جائز، فتقول: إنها ذاهبة جاريتك، وإنه ذاهبة جاريتك، فإن قلت: كيف جاز التأنيث مع الأنثى، ولم تجز التثنية مع الاثنين؟ قلت: لأن العرب إنما ذهبت إلى تأنيث الفعل وتذكيره، فلما جاز ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾[1] وأخذت، جاز التأنيث، والتذكير.. ولما لم يجز قاما أخواك ولا قاموا قومك، لم يجز تثنيتها ولا جمعها»[2].

كما أنهما قد يذكران جنباً إلى جنب كقول الفراء: «وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ﴾[3]، أدخلت العرب الفاء في خبر (إن) لأنها وقعت على الذي، والذي حرف يوصل، فالعرب تدخل الفاء في كل خبر كان اسمه مما يوصل، والقاؤها صواب، ومن أدخل الفاء ذهب بالذي إلى تأويل الجزاء إذا احتاجت إلى أن توصل، ومن ألقى الفاء فهو على القياس»[4].

وسوف أقف على السماع والقياس منفردين طلباً للتفصيل والإيضاح، فأبين ما ورد منهما في كتاب (معاني القرآن) وأجلو منهجه في التعامل مع هذين الأصلين.

١- السماع:

تنشأ الدراسة اللغوية من تأملات يسيرة في اللغة المحكية، ثم يتسع مداها على الأيام فتنتقل من التأملات إلى الملاحظات، فالاستقراء، فوضع القاعدات والأصول... وهذا العمل يحتاج إلى زمن غير قصير، فلابد للغوي في البدء من

---

(١) سورة هود، من الآية: ٦٧.

(٢) معاني القرآن: ١/ ٣٦١.

(٣) سورة الجمعة، من الآية: ٨.

(٤) معاني القرآن: ٣/ ١٥٥ - ١٥٦.

جمع المادة اللغوية، ولا شك أن اللغة المحكية أو المنظومة، ذات قوانين يراعيها المتكلم بدقة، ويصدر عنها في كلامه، ولكنه لا يشعر بالعناء، بل إنه لا يكاد يفكر فيها، ولابد إزاء هذه المهمة من أن يكون اللغوي دقيق الملاحظة ثاقب النظرة، متصفاً بالصبر والأناة، وعلى هذا يكون السماع عملية صعبة، فهو مجموعة من الأعمال تبدأ بالتأملات، وتنتهي بالكشف عن القواعد، ويقوم بين البدء والانتهاء والتصنيف، والتقييم والاستقراء... إنه في مرحلة النشأة لا يزيد على استنباط القوانين في اللغة المحكية[1].

وللسماع أهمية كبيرة عند الفراء، فقد لا يقر الكسائي فيما سمعه من العرب لأنه يتشدد فيعتمد على ما سمعه من العرب بنفسه، لا على ما سمعه الكسائي ورواه فيقول: «وقوله: ﴿فَمَا آتَانِيَ اللَّـهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ﴾[2]، زعم الكسائي أن العرب تستحب نصب الياء عند كل ألف مهموزة سوى الألف واللام، مثل قوله: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾[3] و: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّـهَ﴾[4]. ولم أر ذلك عند العرب، رأيتهم يرسلون الياء فيقولون: عندي أبوك، ولا يقولون: عنديَ أبوك بتحريك الياء، إلا أن يتركوا الهمز فيجعلوا الفتحة في الياء في هذا ومثله. وأما قولهم: لِيَ ألفان، وبيَ أخواك كفيلان، فإنهم ينصبون في هذين لقلتهما فيقولون: بِيَ أخواك كفيلان، ولِيَ ألفان لقلتهما، والقياس فيهما وفيما قبلهما واحد»[5].

---

(١) أصول النحو العربي، د. حلواني: ١٥ – ١٦.

(٢) سورة النمل، من الآية: ٣٦.

(٣) سورة يونس، من الآية: ٧٢.

(٤) سورة الأنفال، من الآية: ٤٨، وسورة الحشر، من الآية: ١٦.

(٥) معاني القرآن: ١/ ٢٩ – ٣٠.

والرواية التي كانت سبيل العرب لجمع اللغة وصوغ قواعدها، لم يكن ليقبل بها الفراء ما لم يدعمها السماع الذي هو شرط لجواز الرواية المأخوذ بها. قال: «يقولون: ما كنت دانئاً ولقد دنات، والعرب تترك الهمزة. ولا أراهم رووه إلا وقد سمعوه»[1].

وهذه الرواية لا ضير في قبولها متعددة الوجوه لأن: «النحاة في القرنين الأول والثاني لا يبالون أن تتعدد رواية النص المنقول، بل كانوا يأخذون بها جميعاً، ويبنون عليها قواعدهم، إلا إذا كانت الظاهرة في إحداها قليلة، فيسمونها لغة، واحتج الفراء بقول الشاعر:

أحب لحبها السودان حتى أحب لحبها سود الكلاب

فقبل إنشاد أبي ثروان العكلي بنصب أحب بعد حتى وقبل إنشاد بعض أسد برفعه»[2]. وليس هناك ما يدفع الفراء إلى رفض رواية مسموعة مادام لها وجه في العربية.

وإذا ما وجد للغة نظائر مسموعة في كلام العرب كانت صحتها مرجحة: «وقوله: ﴿**فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ**﴾[3]، من أشمت. حدثنا الفراء عن مجاهد أنه قرأ: ﴿**فلاَ تشمِتْ بي**﴾ ولم يسمعها من العرب، فقال الكسائي: ما أدري لعلهم أرادوا: (فلاَ تشمَت بي الأعداءُ) فإن تكن صحيحة فلها نظائر، العرب تقول: فرَغت، وفرِغت. فمن قال فَرغت قال: أنا أفرُغ، ومن قال فرِغت قال: أنا أفرَغ، وركَنت وركِنت، وشَملهم شر وشمِلهم في كثير من الكلام»[4].

---

(١) معاني القرآن: ١/ ٤٢.

(٢) نفسه: ١/ ١٣٥: وأصول النحو العربي، د. حلواني: ٧٢ – ٧٣.

(٣) سورة الأعراف، من الآية: ١٥٠.

(٤) معاني القرآن: ١/ ٣٩٤.

وهو في مثل الحالة المذكورة يحتمل أن تكون اللغة صحيحة فيرجح ولا يجزم، لأنه لم يسمعها بنفسه من العرب فيقول: «وما أبعد أن يكون فيها... ولم أسمعها»[1]. وبالتالي فليس ثمة شك لديه في إيراد لغة وشرح معناها لسماعه إياها، مؤكداً ذلك السماع بقوله: (سمعته من العرب)[2].

ولكن ليس كل مسموع مقبولاً عند الفراء ما لم يكن سماعه من الرواة الثقات المشهود لهم بين العلماء كقوله: «وأما قوله: (فضحكت) حاضت فلم نسمعه من ثقة»[3]. وهذا ما يدعوه في أحيان كثيرة إلى مناقشة ما قاله بعض المفسرين فيعارضه ويرده لأنه يخالف ما سمع من العرب، وقواعد العربية فيقول: «قوله عز وجل: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾[4]، ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾[5] سمعت وحق لها ذلك، وقال بعض المفسرين: جواب (إذا السماء انشقت) قوله: (وأذنت) ونرى أنه رأي ارتآه المفسر، وشبهه بقول الله تبارك وتعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾[6]، لأنا لم نسمع جواباً بالواو في (إذْ) مبتدأة، ولا قبلها كلام، ولا في (إذا) إذا ابتدئت، وإنما تجيب العرب بالواو في قوله: حتى إذا كان، و (فلما أن كان) لم يجاوزوا ذلك»[7].

أضف إلى ذلك أنه يذكر ما سَمِعَ من لغات بعض المناطق العربية مما يتعلق بحالات الإعراب، ثم يقر بأقوى الوجوه لكثرة وروده مسموعاً من

---

(١) نفسه: ١/ ٣٨٢.
(٢) نفسه: ١/ ٣٩٩.
(٣) نفسه: ٢/ ٢٢.
(٤) سورة الانشقاق، الآية: ١.
(٥) سورة الانشقاق، الآية: ٢.
(٦) سورة الزمر، من الآية: ٧٣.
(٧) معاني القرآن: ٣/ ٢٤٩.

العرب فيقول: «وقوله: ﴿مَا هَذَا بَشَراً﴾[1] نصبت (بشراً) لأن الباء قد استعملت فيه، فلا يكاد أهل الحجاز ينطقون إلا بالباء، فلما حذفوها أحبوا أن يكون لها أثر فيما خرجت منه فنصبوا على ذلك، ألا ترى أن كل ما في القرآن أتى بالباء إلا هذا، وقوله: ﴿مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ﴾[2]، وأما أهل نجد فيتكلمون بالباء وغير الباء فإذا أسقطوها رفعوا، وهو أقوى الوجهين في العربية أنشدني بعضهم»[3].

وقد يكون المسموع قليلاً ومحصوراً في ألفاظ محدودة فيذكره الفراء، ويدعو إلى قبوله وعدم رفضه، دون القياس عليه. يقول: «فإذا كان مضموم العين مثل يدخل ويخرج آثرت العرب في الاسم منه والمصدر فتح العين، إلا أحرفاً من الأسماء ألزموها كسر العين في مفعل، من ذلك المَسْجِد والمَطْلِع فجعلوا الكسر علامة للاسم، والفتح علامة للمصدر، وربما فتحه بعض العرب في الاسم وقد قرئ مسكِن ومسكَن، وقد سمعنا المسجِد والمسجَد وهم يريدون الاسم، والمطلَع والمطلِع، والنصب كله جائز، وإن لم تسمعه فلا تنكرنه إن أتى»[4].

ومثل هذا الأخذ شيء محمود، إذ يدل على رغبة في الانتفاع بكل ما ورد عن العرب، وتأكد سماعه منهم «وإن في الانتفاع بالوارد المسموع على الوجه السالف، لتيسيرا لغوياً محموداً، لا يسيء إلى اللغة وإنما

---

(١) سورة يوسف، من الآية ٣٠.

(٢) سورة المجادلة، من الآية: ٢.

(٣) معاني القرآن: ٢/ ٤٢ – ٤٣ – ٤٤.

(٤) معاني القرآن: ٢/ ١٤٨ – ١٤٩.

يمنحها قوة، وسعة، وقدرة على مسايرة الحياة المتجددة، وإلا أصيبت بالجمود، والركود، والتخلف، وهذا شر ما تصاب به اللغة وينظمها في عداد اللغات الميتة»[1].

وهكذا فإن الإطار العام الذي التزمه أبو زكريا فيما يخص أصل السماع في كتاب المعاني، هو التسليم بما سمعه من العرب وعدم رد ما رواه الثقات منهم ولو قليلاً، وتخريجه على وجه من وجوه النحو واللغة، ولكن ما هي مصادر احتجاجه في هذا السماع؟ وكيف كان يستعملها ويحتج بها؟

- **مصادر الفراء في السماع:**

لا يختلف اثنان في أن اللغة ونظامها أسبق وجوداً من القواعد والضوابط التي وضعها – في مرحلة لاحقة – علماء النحو واللغة، الذين دعتهم أسباب عديدة إلى التأمل فيما ورد منها من نصوص مختلفة، ليقعدوا القواعد ويستنبطوا القوانين التي تعصم المتكلمين من الوقوع في اللحن، وتنأى بهذه اللغة عن التشتت والفوضى... وكان في طليعة هذه الأسباب الرغبة في عصمة الألسنة من الوقوع في اللحن في قراءة القرآن، بعد أن كثر الموالي، ودخل الإسلام أقوام لا يتقنون العربية إتقان العلماء وأصحاب الدراية بها، فوقعوا في أخطاء قرآنية كثيرة أفسدت معنى الآيات بتغيير بعض حركات الإعراب على غير الوجه السليم نتيجة الجهل بقواعد اللغة، مما جعل العلماء يشمرون عن ساعد الجد، فينظرون فيما بين أيديهم من نصوص مروية ويضعون القواعد من خلالها، وكانت هذه النصوص:

---

(١) اللغة والنحو بين القديم والحديث، عباس حسن، ص: ٦٢.

أ – القرآن الكريم وقراءاته.

ب – الحديث الشريف.

جـ - كلام العرب.

وقد كانت الرواية هي الطريقة التي يفضلها العلماء في النصوص التي يستقرئونها و «الأخذ من الكتب من غير قراءة على الشيوخ مما يستهجن في البيئة اللغوية آنذاك... فالشعر إمّا مأخوذ من الرواة المحترفين، وإمّا من البداة الفصحاء، أما القرآن الكريم فلا يؤخذ من الصحف، بل من أفواه المقرئين وهم ليسوا من أهل البادية، إلا أن ثقة النحوي كانت تنصب على صحة نقل المقرىء عن شيوخه، وصحة نقل شيوخه عن شيوخهم، حتى تصل الرواية إلى رسول الله (ﷺ)»[1].

أ – القرآن الكريم وقراءاته:

يمكن القول بأن الفراء نظر إلى مصادره نظرة عالم واع بما يحكم كل نص من ظروف حين أولى القرآن وقراءاته أهمية أولى، خلافاً لكثير من علمـاء اللغة الذين جعلوا الشعر أول مصادرهم للاستشهاد على ما يذهبون إليه، ذلك أنه صرح في كتابه بأن القرآن أعرب وأقوى في الحجة من الشعر[2]، كما أنه نزل على كلام العرب الفصيح الجيد[3]، وكذا القراءات فهي واردة عمن يشهد لهم بالعلم والثقة، متواترة عن الرسول في أسانيدها

---

(١) أصول النحو العربي، د. حلواني: ٣٠-٣١.

(٢) معاني القرآن: ١/ ١٤.

(٣) نفسه: ١/ ٢٢.

ومشهور بين الناس أمرها، والقرآن وقراءاته كلاهما لا يخضعان للضرائر[1] التي يخضع لها الشعر، شأنها شأن النثر[2] الذي تحكمه قوانين الاستعمال اللغوي لا الضرورات، ولذا فهو أحرى بالاحتجاج من الشعر وعلم اللغة الحديث يؤيد هذا الكلام.

والقرآن نفسه – عند الفراء – شاهد على القرآن في سن قاعدة، كدخول الباء في الثمن لا المبيوع[3] في قوله تعالى: ﴿وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً﴾[4]. يقول: «وكل ما في القرآن من هذا قد نصب فيه الثمن وأدخلت الباء في المبيوع أو المشترى، فإن ذلك أكثر ما يأتي في الشيئين لا يكونان ثمناً معلوماً مثل الدنانير والدراهم، كما قال في سورة يوسف: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾[5]، لأن الدراهم ثمن أبداً، والباء إنما تدخل في الأثمان، فذلك قوله: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾[6]، ﴿اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾[7]»[8].

---

(١) نفسه: ١/ ٣١٥.

(٢) معاني القرآن: ١/ ٤٢٨.

(٣) هذه الكلمة أوردتها كما وردت في نص الفراء، وهي شاذة في الاستعمال والقياس، والأصل أن تحذف عين اسم المفعول من الثلاثي المعتل العين طلباً للخفة فيكون اسم المفعول من باع: مبيع، وحكي أن تتميم عين مفعول من الثلاثي المعتل العين لغة تميمية. (ينظر: الخصائص: ١/ ٢٦٠، والمزهر: ١/ ١١٢).

(٤) سورة البقرة، من الآية: ٤١.

(٥) سورة يوسف، من الآية: ٢٠.

(٦) سورة التوبة، من الآية: ٩.

(٧) سورة البقرة، من الآية: ٨٦.

(٨) معاني القرآن: ١/ ٣٠، وينظر: ١/ ٣٥.

وما دام القرآن نزل على لغة العرب[1]، وعلى كلامهم الفصيح الجيد[2] فإنه حجة دامغة يستخدمها لإثبات رأيه وما يذهب إليه في التفسير ووضع القواعد اللغوية، والتفريق بين الألفاظ: «وقوله: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾[3]، والإجماع: الإعداد والعزيمة على الأمر... فإذا أردت جمع الشيء المتفرق قلت: جمعت القوم فهم مجموعون، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾[4] وإذا أردت كسب المال قلت: جمَّعت المال، كقول الله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ﴾[5]، وقد يجوز جمع مالاً وعدده، وهذا من نحو قتَلوا وقتَّلوا»[6].

والرسم القرآني حجة له أيضاً في ترجيح الوجه الذي يميل إليه، كترك صرف ما لا ينصرف من أسماء البلدان فيقول: «وتصديق ذلك أنها في سورة يوسف بغير ألف»[7].

والقرآن والقراءة معاً قد يكونان دليلاً للفراء فيما يراه من وجوه الإعراب كقراءة (تكتموا) على الجزم في: «قوله: ﴿وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[8]، إن شئت جعلت (وتكتموا) في موضع جزم، تريد منه:

---

(١) معاني القرآن: ١/ ٦٠ – ٦١.
(٢) نفسه: ١/ ٣٢.
(٣) سورة يونس، من الآية: ٧١.
(٤) سورة هود، من الآية: ١٠٣.
(٥) سورة الهمزة: الآية ٢.
(٦) معاني القرآن: ١/ ٤٧٣.
(٧) نفسه: ١/ ٤٣.
(٨) سورة البقرة، من الآية: ٤١.

ولا تَلْبِسوا الحق بالباطل ولا تكتموا الحق، فتلقي **(لا)** لمجيئها في أول الكلام، وفي قراءة أبي: ﴿**وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَتَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً**﴾[1]، فهذا دليل على أن الجزم في قوله: **(وتكتموا الحق)** مستقيم صواب، ومثله: ﴿**وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ**﴾[2]»[3].

والقراءات القرآنية كثيراً ما يستشهد بها ويحتج على ما يدلي به، من ذلك جواز فتح الياء وسكونها قبل ألف ولام فيقول: «وأما نصب الياء من **(نعمتي)**[4] فإن كل ياء كانت من المتكلم ففيها لغتان: الإرسال والسكون، والفتح، فإذا لقيتها ألف ولام، اختارت العرب اللغة التي حركت فيها الياء وكرهوا الأخرى، لأن اللام ساكنة فتسقط الياء عندها لسكونها، فاستقبحوا أن يقولوا: نعمتي التي، فتكون كأنها مخفوضة على غير إضافة، فأخذوا بأوثق الوجهين وأبينهما، وقد يجوز إسكانها عند الألف واللام، وقد قال الله: ﴿**يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ**﴾[5] فقرئت بإرسال الياء ونصبها، وكذلك ما كان في القرآن مما فيه ياء ثابتة ففيه الوجهان»[6].

وقد تحدثت عن موقف الفراء ومنهجه في الاحتجاج بالقراءات المتواترة والشاذة بشكل مفصل بما يغني عن التكرار.

---

(١) سورة البقرة، من الآية: ١٨٨. وأصل الآية في القرآن: ﴿**وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً**﴾.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٤١.

(٣) معاني القرآن: ١/ ٣٣.

(٤) الآية: ﴿**اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم...**﴾ سورة البقرة، من الآية ٤٠.

(٥) سورة الزمر، من الآية: ٥٣.

(٦) معاني القرآن: ١/ ٢٩.

ب – الحديث الشريف:

لم يكن موقف متقدمي النحاة واللغويين من الاحتجاج بالحديث كموقفهم من الاحتجاج بالقرآن وكلام العرب وفصحائها فقد كانوا، عامة، يعرضون عن الاستشهاد بالحديث، حجتهم في ذلك أنه مروي عن الرسول بمعانيه لا بألفاظه، ويفسر د. محمد خير حلواني سبب هذا الإعراض بأن: «السبيل إلى قراءاته على أصحابه لم تكن ميسرة، ما عدا أحاديث قليلة صحت عندهم أوردوا بعضاً منها شواهد على ظواهر نحوية، كما فعل سيبويه في كتابه المشهور، والفراء في معاني القرآن»[1].

ولكن فريقاً من النحاة استشهد بالحديث وأجاز الاحتجاج به وكانت له حجة أيضاً[2]، والفراء ليس ممن يمنعون الاحتجاج بالحديث، كما أنه لم يكن – فيما يبدو – من دعاة الاستشهاد به، وآية ذلك ما ورد عنده من أحاديث نبوية تعد نزرة يسيرة إذا ما قيست بما احتج به من القرآن وكلام العرب، ولكن ما أورده في كتاب المعاني من هذه الأحاديث زاد على ما ورد في كتاب سيبويه: «ففي كتاب سيبويه كله لا ترى غير ثمانية أحاديث لم ينسبها إلى الرسول ولم يصرح بأنها أحاديث نبوية، كما أنه لا يحتج بها جميعاً، بل يستأنس ببعضها، ويخرج بعضها الآخر، ثم جاء الفراء فزادت عنايته بالحديث على عناية سيبويه، فقد جاء في كتابه (معاني القرآن) ما يربي على ثلاثة عشر حديثاً احتج بأربعة منها صراحة»[3].

---

(١) أصول النحو العربي، ص: ٣١.

(٢) ينظر في مذهب مانعي الاحتجاج بالحديث ومجيزيه، كتاب دراسات في العربية وتاريخها لمحمد الخضر حسين ١٦٦ – ١٨٠ و (في أصول النحو) ص: ٤٦ وما بعد.

(٣) أصول النحو العربي، د. حلواني، ص: ٥٢.

فهو يستشهد بما جاء في الحديث على أسلوب في النهي لا يراد به النهي المحرم فيقول في قوله تعالى: ﴿وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾[1]: «ليس هذا بنهي محرم، إنما هو من الله أدب، وإنما قالت أم سلمة وغيرها: ليتنا كنا رجالاً فجاهدنا وغزونا وكان لنا مثل أجر الرجال، فأنزل الله تبارك وتعالى ﴿ولا تتمنوا ما فضل الله﴾، وقد جاء –أي في الحديث -: لا يتمنين أحدكم مال أخيه، ولكن ليقل: اللهم ارزقني اللهم أعطني»[2].

والخوف الوارد في القرآن يفسر بمعنى الظن، ودليله ما ورد في الحديث الشريف فيقول: «وقوله: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾[3]، جاء التفسير أن معنى تخافون: تعلمون، وهي كالظن، لأن الظان كالشاك والخائف قد يرجو، فلذلك ضارع الخوف الظن والعلم... ونقلنا في الحديث أن رسول الله (ﷺ) قال: [أمرت بالسواك حتى خفت لأَدْرَدَن][4] كقولك: حتى ظننت لأدردن»[5].

والمُقيت هو المقتدر الذي يقدم القوت لمن يعيل: «وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً﴾[6]، المقيت: المقدر والمقتدر كالذي يعطي كل رجل قوته. وجاء في الحديث: [كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يُقيت، ويقوت][7].

---

(١) سورة النساء، من الآية: ٣٢.

(٢) معاني القرآن: ١/ ٢٦٤ – ٢٦٥.

(٣) سورة النساء، من الآية: ٣٤.

(٤) الدَّرَد: ذهاب الأسنان.

(٥) معاني القرآن: ١/ ٢٦٥ – ٢٦٦، وينظر: ١/ ١٤٦.

(٦) سورة النساء، من الآية: ٨٥.

(٧) معاني القرآن: ١/ ٢٨٠.

ومعنى الصنوان النخلات ذوات الأصل الواحد: والصنوان النخلات يكون أصلهن واحداً، وجاء في الحديث عن النبي (ﷺ): [إن عم الرجل صنو أبيه] [1]، كما أن الغيض معناه النقصان، يثبت ذلك ما جاء في الحديث، يقول «وقوله: ﴿وما تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾[2]، تغيض: يقول فما تنقص من التسعة الأشهر التي هي وقت الحمل (وما تزداد) أي تزيد على التسعة أو لا ترى أن العرب تقول: غاضت المياه أي نقصت، وفي الحديث: [إذا كان الشتاء قيظاً أو الولد غيظاً، وغاضت الكرام غيضاً، وفاضت اللئام فيضاً]. فقد تبين النقصان في الغيض»[3].

وأحاديث أخرى وردت بألفاظها[4] أو رواية قصتها[5]، للاحتجاج بها على ظواهر لغوية عامة، وما أوردته منها كاف للقول بأن أبا زكريا الفراء لم يكن متطرفاً في موقفه من الحديث النبوي قبولاً ورفضاً، وإنما كان يبيح الاستشهاد به، ولكن بقدر.

جـ - كلام العرب:

يراد بكلام العرب ما روي عنهم من شعر ونثر، ولم يكن كل ما وصل منهم - على قلَّته - مما يحتج به لدى علماء النحو واللغة، الذين نظروا فيما وصلهم نظرة تنم عن عمق رأي وبعد نظر، عندما أدركوا أن القبائل العربية ليست سواء في الفصاحة

---

(١) نفسه: ٢/٥٩.
(٢) سورة الرعد، من الآية ٨.
(٣) معاني القرآن: ٢/٥٩.
(٤) نفسه: ٣/٢٨٨.
(٥) نفسه: ١/٣٢١.

والخلو من الشوائب، وأن الزمن يفعل فعله السلبي في التأثير على نقاء الفصحى وسلامتها، فكلما ابتعَدَت عن العصر الجاهلي والإسلامي صارت أكثر عرضة للدخيل، ولذلك: «اقتصر العلماء على تدوين كلام العرب الضاربين في وسط الجزيرة: كأسد وقيس وتميم وهذيل[1] وقريش، وردوا كلام القبائل التي على السواحل أو في جوار الأعاجم[2]، كما أنهم قبلوا الاحتجاج بأقوال عرب الجاهلية وفصحاء الإسلام حتى منتصف القرن الثاني سواء أسكنوا الحضر أو البادية»[3].

ولكن هذا التحديد اختص بالاحتجاج باللغة لفظاً، أما الاحتجاج باللغة معنى فقد أجازوا الاحتجاج بكلام المولدين بعد هذا التاريخ[4]، والحديث هنا عن احتجاج الفراء بكلام العرب على ألفاظها.

ولأبدأ أولاً بما استنبطه الفراء من نثر العرب الفصحاء وأمثالهم لأثني بعد ذلك بما استنبطه من أشعارهم، تمثيلاً لا حصراً للتعرف على منهجه في الاحتجاج بالنثر والشعر.

---

(١) في أصول النحو: ٥٩.

(٢) نفسه: ٢١.

(٣) نفسه: ١٩.

(٤) الخصائص: ١/ ٢٤. يقول ابن جني بعد احتجاجه بمعنى للمتنبي: ولا تستنكر ذكر هذا الرجل – وإن كان مولَّداً – في أثناء ما نحن عليه من هذا الموضع وغموضه، ولطف متسرَّبه، فإن المعاني يتناهبها المولَّدون كما يتناهبها المتقدمون، وقد كان أبو العباس (المبّرد ٢٨٥ هـ) وهو الكثير التعقب لجلّة الناس، احتج بشيء من شعر حبيب بن أوس الطائي في كتابه (الاشتقاق)، لما كان غرضه فيه معناه دون لفظه، فأنشد له:

لو رأينا التوكيد خطة عجز ... ما شفعنا الأذان بالتثويب

وإياك والحنبلية بحتاً، فإنها خلق ذميم، ومطعم على علاّته وخيم.

فمن الأفعال ما يتعدى بنفسه وبالحرف، والفعل (أنفخ) من هذه الأفعال في قوله تعالى: ﴿كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ﴾[1] وصحت قراءاته (فأنفخها) لمجيء نظيره عن العرب، يقول في الآية: «يذهب إلى الطين، وفي المائدة ﴿فتنفخ فيها﴾[2] ذهب إلى الهيئة، فأنث لتأنيثها، وفي إحدى القراءتين (فأنفخها) وفي قراء عبد الله (فأنفخها) بغير في، وهو مما تقوله العرب: رب ليلة قد بت فيها وبتها»[3].

وهو يرى الكاف زائدة في (كم) وأن أصلها (ما) وصلت من أولها بكاف، ولما كثر الكلام بـ(كم) حذفت ألفها وسكنت ميمها، ودليله ما سمع من بعض العرب، يقول: «وقال بعض العرب في كلامه وقيل له: منذ كم قعد فلان؟ فقال: كمذ أخذت في حديثك، فرده الكاف في (مذ) يدل على أن الكاف في (كم) زائدة، وإنهم ليقولون: كيف أصبحت، فيقول: كالخير، وكخير، وقيل لبعضهم: كيف تصنعون الأَقِط؟ فقال: كَهَيِّن»[4].

ويجوز استخدام (مَنْ) لغير الناس إذا تميزت فاجتمعت مع (من) التي تدل على العاقل، يقوّي ذلك قول العرب: «اشتبه عليَّ الراكب وحِمْلُه فما أدري مَنْ ذا مِنْ ذا، حيث جمعهما، وأحدهما إنسان صلحت (مَنْ) فيهما جميعاً»[5].

---

(١) سورة آل عمران، من الآية: ٤٩.

(٢) سورة المائدة، من الآية: ١١٠.

(٣) معاني القرآن: ١/٢١٤، وينظر: احتجاجه بكلام العرب لمثل هذه الحالة: ١/٢٢٨ و٢٣٣.

(٤) معاني القرآن: ١/٤٦٦، وينظر أيضاً رأيه في أصل (الآن) ونصبها، واستشهاده بما سمعه من العرب: ١/٤٦٨ – ٤٦٩.

(٥) معاني القرآن: ٢/٩٨، وينظر في احتجاجه بقول العرب: ١/٩٦ – ٢٦٨ – ٢/٢٧٧ – ٢٨٣ – ٢٩٧ – ٣٠٠ – ٣٩٣.

ولكن أبا زكريا لا يظل يغفل تحديد العرب الذين ينقل عنهم ويبني على أقوالهم قواعده، إذ نجده يسمي القبائل التي يروي عنها إحدى اللغات كجواز الوقوف على (أنا) بغير ألف في غير القرآن كما في لغة عليا تميم وسفلى قيس، فيقول: «ومن العرب من يقول إذا وقف: أَنَهْ وهي في لغة جيدة، وهي في عليا تميم وسفلى قيس»[1].

ولعله – دائماً – يريد بـ (بعض العرب) الأعراب الفصحاء الذين يُسَتْشهد بكلامهم، فحين يقول: «والحَسّ أيضاً: العطف والرقة، وسمعت بعض العرب يقول: ما رأيت عقيلياً إلا حسَسْتُ له»[2]. فإنما يريد ببعض العرب أبا الجراح كما ورد في اللسان[3] وأبو الجراح العقيلي أعرابي يُحْتج بكلامه ويذْكره صراحة في مواضع كثيرة من الكتاب كقوله: «ويقولون: ما ظلمك أن تفعل، يريدون: ما منعك أن تفعل، والأرض المظلومة: التي لم ينلها المطر، وقال أبو الجراح: ما ظلمك أن تقيء، لرجل شكا كثرة الأكل»[4].. كما اعتمد على هذا الأعرابي حيث قرر أن (غدوة) لا تدخلها الألف واللام لأنها معرَّفة إذ تدل على وقت معلوم، وهي ممنوعة من الصرف، لا تضيفها العرب قائلاً: «والعرب لا تدخل الألف واللام في الغدوة، لأنها معرَّفة بغير ألف ولام، سمعت أبا الجراح يقول: ما رأيت كغدوة قط، يعني غداة يومه، وذاك أنها كانت باردة، ألا ترى أن العرب لا تضيفها فكذلك لا تدخلها الألف واللام»[5] وهناك أعراب آخرون يَحْتج بهم كأبي ثروان[6] وقد لا يسمي

---

(١) معاني القرآن: ٢/ ١٤٤.
(٢) نفسه: ١/ ٢١٧.
(٣) اللسان: حسس.
(٤) معاني القرآن: ١/ ٣٩٨.
(٥) نفسه: ٢/ ١٣٩.
(٦) نفسه: ١/ ٢١٢، وينظر: ٢/ ١٤٤.

الأعرابي[1] أو يسمي قبيلته كأن يقول: «وقد قال أعرابي من بني نمير»[2]، وربما استشهد بما سمعه من امرأة تكلم عطاراً[3].

ثم إنه يستعين بالأمثال ويستشهد بها على ما يذهب إليه: «وكان النحاة الأوائل يعيشون في محيط يعنى بالأمثال، يدلك على ذلك أن شيخهم الكبير أبا عمرو بن العلاء جمع فيها كتاباً خاصاً»[4].

ومما أورد من أمثال العرب قولهم: وجِّه الحجر فله جهة[5] وشر ما ألجأك إلى مخة عرقوب[6] ووُلْدُكِ من دَمَّى عَقِبَيْكِ[7] وبعد اطِّلاع إيناسُ[8] واذهب فاستأنس هل ترى أحداً[9] والنقد عند الحافرة[10]، وقد يروي قصة المثل أيضاً[11].

وأما الشعر ففي كتاب الفراء منه نسبة كبيرة أيضاً يحتج بها لدعم ما يقول، والقرآن نزل على لغة العرب، ولذا فقد وردت فيه ألفاظ مختلفة

---

(١) نفسه: ٢/ ٣٠٥.
(٢) نفسه: ٢/ ٣٤٢.
(٣) نفسه: ٢/ ٣٤٤.
(٤) أصول النحو العربي، د. حلواني: ٢٦.
(٥) معاني القرآن: ١/ ٩٠.
(٦) المعاني: ٢/ ١٦٤.
(٧) نفسه: ٢/ ١٧٣.
(٨) نفسه: ٢/ ١٧٤. الاطِّلاع هنا: النظر، والإيناس: الوجود واليقين.
(٩) نفسه: ٢/ ٢٤٩. أي: انظروا مَن في الدار.
(١٠) نفسه: ٣/ ٢٣٢. قيل: لنفاسة الفرس عند العرب لم يكونوا يبيعونها إلا نقداً، والحافر والحافرة هي الفرس لأنها تحفر الأرض مكان دوسها.
(١١) نفسه: ٢/ ٤٠٢.

ومعناها واحد كما ورد في الشعر، وفي هذا يقول: «وإن العرب لتجمع بين الحرفين وإنهما لواحد إذا اختلف لفظاهما، كما قال عدي بن زيد:

وقـــدمت الأديـــم لراهـــشيه وألفـــى قولهـــا كـــذباً ومينـــا»[1]

وقد لا يكتفي بإيراد شاهد شعري واحد على القاعدة، فكثيراً ما أورد شواهد شعرية كثيرة، كما فعل مثلاً حين أجاز التعبير بالجزء عن الكل أو النعت بالمذكر والمؤنث قياساً على المعنى أو اللفظ[2] وكذلك حين جوز تأنيث الفعل وفاعله مذكر مضاف إلى مؤنث[3] أو جر ما حقه النصب، على المجاورة[4].

ولكنه قد لا يسمي الشاعر صاحب الشاهد فيقول: أنشدني بعض العرب[5]، وسمعت بعض العرب ينشد[6]، وأنشدني فيورد شطراً فيه موضع الشاهد ويعترف بنسيان الشطر الأول[7] وقد يستشهد بما استشهد به سيبويه في كتابـه[8].

ويمكن القول بأن ما احتج به الفراء لم يخرج عن دائرة الاحتجاج التي اتفق عليها العلماء زمناً وقبائل، وإذا كان لم يسم في بعض الأحيان الشاعر

---

(١) نفسه: ١/٣٧.

(٢) معاني القرآن: ١/٢٠٩.

(٣) نفسه: ٢/٣٧.

(٤) نفسه: ٢/٧٤.

(٥) نفسه: ١/٣٢.

(٦) نفسه: ٣/١١١.

(٧) نفسه: ٣/٢٩٥.

(٨) نفسه: ٢/٣٨٦ – ٣/١٧.

الذي يحتج به، أو يحدد القبيلة أو الأعرابي، أو يستشهد بامرأة عربية فإنهم ممن كان يحتج بهم، ودليل ذلك أن بيتاً لم ينسبه الفراء إلى شاعر نسبه سيبويه إلى الفرزدق[1]، ولذلك: «فإن بعض الذين اعتمدوا هذا الأصل في رفض الشواهد يتورطون في تعجلهم الأحكام، فالبيت الذي رفضه الزجاج وتبعه الزمخشري وهو ما أنشده الفراء، إنما ينسب إلى شاعر يحتج به، هو الأغلب العجلي[2]، كما أن الفراء نفسه لم ينشده إلا بعد أن سمعه من العرب، قال: وقد سمعت بعض الأعراب ينشد:

قال لها هل لك يا تا في　　　قالت له: ما أنتَ بالمرضي[3]

وهكذا يكون البيت المجهول مما يحتج به إذا جاء في كتب القدماء، أي كتب سيبويه والأخفش والكسائي والفراء»[4].

فقبوله ما ورد عن العرب إذاً لم يكن من غير ضوابط كما يظن، وإنما كان محدداً بما سمع منهم، فاحتج بهم لشهرتهم بالفصاحة، ومما عرف عنه أنه كان يلازم أعراباً فصحاء يثق بهم ويأخذ عنهم «مثل أبي الجراح، وأبي ثروان... وأبي زياد الكلابي»[5]، كما أخذ عن الكسائي الذي «أنفذ خمس عشرة قنينة حبر في الكتابة عن العرب سوى ما حفظ»[6].

---

(١) الكتاب: ١/٣٧٣، ومعاني القرآن: ١/٩٠.

(٢) ينظر: خزانة الأدب: ٢/٢٥٧.

(٣) معاني القرآن: ٢/٧٦.

(٤) أصول النحو العربي، د. حلواني: ٦٩.

(٥) المزهر: ٢/٢٠٧.

(٦) معجم الأدباء: ١٣/١٦٩.

وبعد ذلك فمما يسجل لأبي زكريا الفراء أنه احتج بالنثر من قرآن وحديث وكلام الفصحاء، بما يفوق احتجاجه بالشعر الذي يخضع لضرورات، يظل الطرف الأول في منجاة من الخضوع لها[1].

٢- القياس:

لا أظن أحداً يستطيع أن ينكر أن اللغة ظاهرة اجتماعية تتطور وفق تطور المجتمع، لتواكب مستجداته، وتساير ركبها، وتلبي حاجة المتكلمين منها... ومن الخطل الاقتصار على ما ورد عن العرب من كلام حتى عصر الاحتجاج الذي حدد بسنة (١٥٠ هـ)، لأن من غير المعقول أن يكون كلامنا كله بمفرداته وتراكيبه وارداً عن العرب، فالعرب إذا قالت مثلاً (كتب زيد): «فإنه يجوز أن يسند هذا الفعل إلى عمرو وبشير وأرد شير، إلى ما لا يدخل تحت الحصر، وإثبات ما لا يدخل تحت الحصر بطريق النقل محال[2]»[3]. ولذلك كان لابد من وجود القياس لكسر الطوق الذي يعوق حركة اللغة، ويمنعها من مسايرة تطور الحياة: «والقياس أمر ضروري لنماء اللغة، إذ كيف يمكن للغة أن تزداد وتنمو لتساير التطور إن لم يكن لها ضوابط قياسية تسير عليها»[4]، وقد رأى أهل القياس أن: «ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب، ألا ترى أنك لم تسمع أنت ولا غيرك اسم كل فاعل ولا مفعول وإنما سمعت بعضها فقست عليه

---

(١) ينظر: أصول النحو العربي د. حلواني، ص: ٧٧.

(٢) الاقتراح، ص: ٤٧.

(٣) في أصول النحو: ٧٩ – ٨٠، وينظر: دراسات في العربية وتاريخها، ص: ٢٥.

(٤) النحو العربي، ص: ١٦٤.

غيره[1]، وإليهم يرجع الفضل في حياة اللغة الحياة النشيطة حتى أيامنا هذه، فقد حافظوا على روحها وتعهدوها بالغذاء فنمت وبسقت وأظلت فروعها حضارات مختلفات، ومع انتسابهم جميعاً إلى مذهب القياس يتفاتون فيما بينهم توسيعاً وتضييقاً»[2].

وعرَّفوا القياس بأنه: «حمل غير المنقول على المنقول في حكم لعلة جامعة»[3]، وهو إلى ذلك أساس النحو عند بعض النحاة، ومنهم أستاذ الفراء الذي ذاع عنه قوله:

إنـــما النحـــو قيـــاس يتبـــع وبـــه في كـــل أمـــر ينتفـــع[4]

ولست هنا بمعني بتاريخ القياس، وأول الآخذين به، فذلك خارج عن إطار هذا البحث، ولكن ما يجب قوله هو أن الفراء من أئمة القياس وأعلامه[5]، حتى قيل بأن «الفرق بين الفراء والكسائي كالفرق بين المأمون والرشيد، وكالفرق بين محافظة الرشيد وحرية العقل عند المأمون، كالفرق بين الحركة العلمية الناشئة في عهد الرشيد، والناضجة في عهد المأمون»[6].

وقد لا يكون تعليل هذا الأمر صعباً إذا تذكرنا أن الفراء معتزلِيّ، والاعتزال هو «منهج تحكيم العقل مع المحافظة على أصل الدين، وهو منهج

---

(١) الخصائص: ١/ ٣٥٧ – ٢/ ٢٥.

(٢) في أصول النحو: ٨٠.

(٣) نفسه، ص: ٧٨.

(٤) مطلع قصيدة نسبت إلى الكسائي في إنباه الرواة: ٢/ ٢٦٧.

(٥) في أصول النحو: ١٢٣.

(٦) ضحى الإسلام: ٢/ ٣٠٧.

البحث والتجربة والاستدلال العقلي والشك والقياس... وقد كان للمعتزلة أثر كبير في القياس في اللغة، يظهر في قولهم بأن اللغة اصطلاحية من وضع البشر لا توقيفية»[1].

ومن المفيد أن أشير هنا إلى أثر العلوم الدينية عامة، في نشأة علوم اللغة، وما الاعتزال إلا فلسفة نشأت في حجر الدين، وكانت من أجل العقيدة، وتجلى أثر الفقه واضحاً في أصول النحو، إذ حاكى النحاة الفقهاء «في وضعهم أصولاً تشبه أصول الفقه، وتكلموا في الاجتهاد فيه كما تكلم الفقهاء، وكان لهم طرازهم في بناء القواعد على السماع والقياس والإجماع كما بنى الفقهاء استنباط أحكامهم على السماع والقياس والإجماع»[2].

(والطريف أنهم سجلوا للنحو شيئاً من رد الدين، فهذا الفراء يناظر محمد ابن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة قائلاً: «قلَّ رجل أنعم النظر في باب من العلم فأراد غيره إلا سهل عليه»، امتحنه محمد في مسألة فقهية أجابه عليها من فن النحو قال محمد: «ما تقول في رجل صلى فسها، فسجد سجدتين للسهو فسها فيهما؟ ففكر الفراء... ثم قال: لا شيء عليه . فقال له محمد: ولم؟ قال: لأن التصغير عندنا لا تصغير له، وإنما السجدتان تمام الصلاة، فليس للتمام تمام. فقال محمد: ما ظننت آدمياً يلد مثلك»[3]. واشتهرت هذه الحادثة في زمانها وبعده،

---

(١) مدرسة القياس في اللغة، أحمد أمين، مجلة مجمع اللغة العربية ج٧ ص: ٣٥٥. وينظر (الفراء والتفسير) من هذا البحث.

(٢) في أصول النحو: ١٠٤ – ١٠٥، وينظر فصل أثر الفقه والكلام في النحو، في كتاب (النحو العربي) د. مازن المبارك، ص: ٧٩ وما بعدها.

(٣) وفيات الأعيان: ٢/ ٣٣٩ – ٣٤٠، وينظر: تاريخ بغداد: ١٤/ ١٥١ – ١٥٢

وقامت دليلاً على لطف نظر النحاة، وإشارة إلى ما بين الفقه والنحو من أخذ وعطاء استمرا مع تقدم الفنين»[1].

وأما صاحبنا ففي كتابه أنماط كثيرة من القياس الذي أَوردَه هنا وهناك لتعليل ظاهرة، وتقرير قاعدة، أسوق بعضها لكشف منهجه، وبعد غور ذهنه في هذا الأصل.

فمما استَعْمل فيه القياس، استناداً إلى القراءة، جواز نصب ياء المتكلم وسكونها متصلة باسم مضاف إلى معرف بأل، ووجوب إرسالها إذا كانت محذوفة «وكذلك ما كان في القرآن مما فيه ياء ثابتة ففيه الوجهان، وما لم تكن فيه الياء لم تنصب، وأما قوله: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ* الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾[2]، فإن هذه بغير ياء، فلا تنصب ياؤها وهي محذوفة، وعلى هذا يقاس كل ما في القرآن منه»[3].

وربما خلص إلى قاعدة مستقرأة من القرآن وكلام العرب فيدعو إلى القياس عليها كجواز إثبات (أن) وإسقاطها بعد القول وما في معناه قائلاً: «فعلى هذا يبنى ما ورد من نحوه»[4] أو «فقس بهذا ما ورد عليك»[5]، وعدم جواز النصب بفعل القول إلا لاسم فيه معنى القول: «وقوله: ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ﴾[6]، رفع بإضمار مَكْنِي من أسمائهم، كقولك: لا تقولوا: هم أموات بل

---

(١) في أصول النحو: ١٠٥.

(٢) سورة الزمر، الآيتان: ١٧ – ١٨.

(٣) معاني القرآن: ١/ ٢٩.

(٤) معاني القرآن: ١/ ٨٠.

(٥) نفسه: ١/ ٨١.

(٦) سورة البقرة، من الآية: ١٥٤.

هم أحياء.. ولا يجوز في الأموات النصب، لأن القول لا يقع على الأسماء إذا أضمرت وُصُوفُها أو أظهرت، كما لا يجوز قلت عبد الله قائماً، فكذلك لا يجوز نصب الأموات، لأنك مضمر لأسمائهم، إنما يجوز النصب فيما قبله القول إذا كان الاسم في معنى قول، من ذلك: قلت خيرا، وقلت شرا، فترى الخير والشر منصوبين، لأنهما قول، فكأنك قلت: قلت كلاماً حسناً أو قبيحاً... فابنِ على ذا ما ورد عليك»[1].

وعنده أن القراء اجتمعوا على رفع الدال واللام من قوله تعالى ﴿الحمدُ للهُ﴾[2] قياساً على: «المثال الأكثر من أسماء العرب الذي يجتمع فيه الضمتان، مثل الحُلُم والعُقُب»[3]، وأن من أهل البدو من يخفض الدال واللام من هذه الآية قياساً على اجتماع الكسرتين في (إبِل) ذاكراً أن (الحمد لله) «كثرت على ألسن العرب حتى صارت كالاسم الواحد، فثقل عليهم أن يجتمع في اسم واحد من كلامهم ضمة بعدها كسرة، أو كسرة بعدها ضمة، ووجدوا الكسرتين قد تجتمعان في الاسم الواحد مثل إبل، فكسروا الدال ليكون على المثال من أسمائهم»[4].

والأصل أن النون والواو تستعملان لجمع ذكور العقلاء، ولكن يجوز استعمالهما لغير العقلاء إذا وصفوا بأفاعيل الآدميين قياساً على قوله تعالى: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾[5] وقوله: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾[6]،

---

(١) معاني القرآن: ١/ ٩٣، وينظر: ١/ ٩٦ – ١٤٩.
(٢) سورة الفاتحة، الآية: ٢.
(٣) معاني القرآن: ١/ ٤، والعقب: العاقبة.
(٤) معاني القرآن: ١/ ٣.
(٥) سورة يوسف، من الآية: ١٤.
(٦) سورة فصلت، من الآية: ٢١.

و﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾[1]، قائلاً: «فما أتاك مواقعاً لأفعال الآدميين من غيرهم أجريته على هذا»[2].

والاستئناف غير العطف والفارق بينهما أن الأول لا يشاكل ما قبله في المعنى فلا يشاركه في الإعراب، والثاني يشاكل المعطوف عليه معنى وإعراباً، وتطّرد هذه القاعدة قياساً على القرآن والشعر. يقول: «فإذا رأيت الفعل منصوباً وبعده فعل قد نسق عليه بواو أو فاء أو ثم... فإن كان يشاكل معنى الفعل الذي قبله نسقته عليه، وإن رأيته غير مشاكل لمعناه استأنفته فرفعته... ومنه قول الله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾[3]... رفعت (ويريد الذين) لأنها لا تشاكل (أن يتوب) ألا ترى أن ضمك إياهما لا يجوز، فاستأنفت أو رددته على قوله: (والله يريد) ومثله: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ﴾[4]، فيأبى في موضع رفع لا يجوز إلا ذلك.

ومثله قولـه:

والشعر لا يسطيعه من يظلمه يريد أن يعربه فيعجِمُه»[5]

---

(١) سورة النمل، من الآية: ١٨.

(٢) معاني القرآن: ٢/ ٣٤ – ٣٥.

(٣) سورة النساء، من الآية: ٢٧.

(٤) سورة التوبة، من الآية: ٣٢.

(٥) معاني القرآن: ٢/ ٦٨، والبيت الوارد هنا للحطيئة، وقد ورد في خزانة الأدب: ٢/ ٣٦٠ كما يلي:

الشعر صعب وطويل سلمه إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه
زلت به إلى الحضيض قدمه يريد أن يعربه فيعجمه

ويجوز أن يأتي المصدر (مَفْعَلَة) في معنى اسم الفاعل فيكفي من الجمع والتأنيث قياساً على قول العرب، يقول: «فإذا وضَعْت مَفْعَلة في معنى فاعل كَفَتْ من الجمع والتأنيث، فكانت موحَّدة مفتوحة العين، لا يجوز كسرها، العرب تقول: هذا عُشْبٌ مَلْبَنَةٌ[1] مَسْمَنةٌ[2]، والولد مَبْخَلَة مَجْبَنَة.. فما ورد عليك منه فأخرجه على هذه الصورة»[3].

وهو يؤمن بأن ما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم و(الياس) اسم عبري لا ينصرف، ولكن يمكن أن يصرف قياساً على وزن (إِفْعَال) قائلاً في ذلك: «هذا الاسم اسم من أسماء العبرانية، كقولهم: إسماعيل وإسحاق والألف واللام منه، ولو جعلته عربياً من الأَلْيَس[4] فتجعله إفعالاً مثل الإخراج والإدخال لجرى[5]»[6].

وفي قوله تعالى: ﴿بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾[7] قرؤوا (نُصب) بضم النون وتسكين الصاد، وبفتح النون والصاد معاً، والقياس على هاتين اللغتين جائز لأنه جار على كلام العرب: «إذا فتحوا أوله ثقلوا، وإذا ضموا أوله خففوا... أنشدني بعض العرب:

لئن بَعَثتْ أمُّ الحُمَيْدَيْن مائرا لقد غنِيَتْ في غير بؤسٍ ولا جُحْدِ

---

(١) أي يغزر عليه اللبن إذا رعاه.

(٢) أي يكثر السمن في لبنه إذا رعاه.

(٣) معاني القرآن: ٢/ ١٢٦.

(٤) الأليس: الشجاع .

(٥) أي لصرف ونون.

(٦) معاني القرآن: ٢/ ٣٩١.

(٧) سورة ص، آية: ٤١.

والعرب تقول: جَحِد عيشُهم جَحَداً إذا ضاق واشتد، فلما قال: جُحْد وضَمَّ أولَه خَفَّف، فابنِ على ما رأيتَ من هاتين اللغتين»[1].

ووزن (فَعَلة) إنما هو جمع مفرده (فاعِل) وهو قياس العربية، وما جاء جمعاً على هذا الوزن، وليس الواحد منه على وزن (فاعل)، أُوِّلَ على هذا القياس، يقول: «والبَرَرَة: الواحد منهم في قياس العربية بارّ، لأن العرب لا تقول: فَعَلَة ينوون به الجمع إلا والواحد منه فاعل، مثل: كافِر وكَفَرة، وفاجِر وفَجَرة.. فهذا الحكم على واحده بار، والذي تقول العرب: رجل بَرّ، وامرأة بَرَّة، ثم جمع على تأويل فاعل، كما قالوا: قوم خَيِّرَة وبَرَرَة، سمعتها من بعض العرب، وواحد الخَيِّرَة: خَيِّر، والبَرَرَة: بَرّ»[2].

ووقف بإزاء قراءة الآية: ﴿**فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لا تَخَافُ دَرَكاً وَلا تَخْشَى**﴾[3]، ملاحظاً أن الفعل الأخير في هذه القراءة (ولا تخش) معطوف على فعل مجزوم وأثبتت فيه الألف، ووجه ذلك بأنه قد يكون مستأنفاً وقد يكون في موضع جزم وإن كانت فيه الياء، واحتج بأن العرب قد تصنع ذلك، مورداً قول بعض بني عبس:

ألم يأتيكَ والأنباء تَنْمي ... بما لاقت لبونُ بني زياد

فأثبتت الياء في (يأتيك) وهي في موضع جزم، وأورد في ذلك أيضاً قول بعض الشعراء:

هجوتَ زبَّان ثم جئت معتذراً ... من سَبِّ زبَّان لم تهجو ولم تَدعِ

---

(١) معاني القرآن: ٢/ ٤٠٦.

(٢) نفسه: ٣/ ٢٣٧.

(٣) سورة طه، من الآية: ٧٧.

إذْ أثبت الواو في (تهجو) مع وجود لم الجازمة»[1].

وبعد أن عرضت نماذج من قياس الفراء، أرى من الضرورة أن أبين منهجه في هذا القياس، ولاسيما في تعامله مع المقيس عليه، وخروجه بحكم مطرد من خلاله، فكيف كان ينظر إلى المقيس عليه من حيث القلة والكثرة؟ وما مدى صحة قول القدماء: «لو سمع الكوفيون بيتاً واحداً فيه جواز شيء مخالف للأصول جعلوه أصلاً وبوبوا عليه»[2]. وأن من عادة الكوفيين إذا سمعوا لفظاً في شعر أو نادر كلام جعلوه باباً أو فصلاً[3]. وإن لم يكن الفراء وحده معنياً بهذا الكلام، فإنه معني به على أية حال، لأنه رأس المذهب الكوفي من جهة، ولأن كتابه أول كتاب واف شمل هذا المذهب من جهة أخرى، وسوف أجلو هذا الجانب معتمداً على ما ورد في (معاني القرآن).

لا بد من القول أولاً بأن الفراء لا يمانع في القياس على القليل، ولكنه قد لا يتحمس في الدعوة إليه، مثل جواز عدم التصريح بالحكاية قبل الكلام المحكي، مع أنه قليل في الشعر وغيره. يقول: «وقوله: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾[4]. فقوله: يريد أن يخرجكم من أرضكم (من الملأ)، فماذا تأمرون (من كلام فرعون) جاز ذلك على كلامهم إياه، كأنه لم يُحْك وهو حكاية، فلو صَرَّحْت بالحكاية لقلت: يريد أن يخرجكم من أرضكم، فقال: فماذا تأمرون،

---

(١) المدارس النحوية: ٢١٦ – ٢١٧، وينظر: معاني القرآن: ١/١٦١، ولمزيد من الأمثلة عن استخدام الفراء القياس ينظر: المعاني: ١/٦٨ – ٢٣٨ – ١٣١ – ٢/٣٩٦ – ٣/٥٧ – ١٧٢ – ٢٣٧ – ٢٨١.

(٢) الاقتراح: ٨٤.

(٣) همع الهوامع: ١/٤٥، نقلاً عن المدارس النحوية: ١٦١ – ١٦٢.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١١٠.

ويحتمل القياس أن تقول على هذا المذهب، قلت لجاريتك قومي فإني قائمة (تريد: فقالت: إني قائمة) وقلما أتى مثله في شعر أو غيره، قال عنترة:

الشاتِمَيْ عرضي ولم أشتمهما والناذِرَيْن إذا لقيتهما دمي

فهذا شبيه بذلك، لأنه حكاية وقد صار كالمتصل على غير حكاية، ألا ترى أنه أراد: الناذرين إذا لقينا عنترة لنقتلنه، فقال: إذا لقيتهما، فأخبر عن نفسه، وإنما ذكراه غائباً، ومعنى لقيتهما: لقياني»[1].

وقد ينص على الشاذ في الاستعمال والقياس معاً دون أن يدعو إلى القياس عليه[2] ولا يمنع أن يكون قول العوام أقوى في قياس العربية[3]، وربما كان القليل هو القياس قائلاً: «وهو القياس وإن كان قليلاً»[4]، «وذلك – وإن كان قليلاً – أقيس»[5]، لأن صحة القياس – عنده – تبيح استعمال القليل المسموع عن العرب[6].

ولعل ما أوردته من قول القدماء في الكوفيين بعيد عن الصواب من جهتين:

الأولى: هي أنه: «ليس من شرط المقيس عليه الكثرة، فقد يقاس على القليل لموافقته للقياس ويمتنع على الكثير لمخالفته له... مثال الأول (شَنَئِيّ نسبة

---

(١) معاني القرآن: ١/ ٣٨٧.

(٢) معاني القرآن: ٣/ ١٩٨.

(٣) معاني القرآن: ٣/ ٢٨١.

(٤) نفسه: ٢/ ١٤٨.

(٥) نفسه: ٢/ ١٨٤.

(٦) ينظر معاني القرآن: ١/ ٣٥٨.

إلى شَنُوءة) اكتفى سيبويه بهذا الوارد لأن السماع لم يرد بخلافه لا في هذا اللفظ ولا فيما كان من نوعه، فقاس عليه وجعله وزن (فَعَلِيّ) قياساً في (فَعُولة) مع أنه لم يقع إليه من شواهده إلا هذه الكلمة المفردة، فهو يقول في النسب إلى (رَكُوبة، حَلُوبة: رَكَبي، حَلَبي»[1].

والثانية: هـي في التعميم، وذلك أن الفراء، على الغالب، يحبذ القياس على الكثير الشائع ويدعو إليه مادام له وجه، ويكره القياس على القليل معلناً: «ولست أستحب ذلك لقلته»[2] وقد وقف مع الكسائي الذي عاب دخول لام الأمر على المضارع الوارد بصيغة المخاطب لأنه قليل في كلام العرب قائلاً: «وكان الكسائي يعيب قولهم (فلتفرحوا) لأنه وجده قليلاً فجعله عيباً، وهو الأصل»[3].

وأرى أن موقف الفراء هذا متفق مع موقفه الذي تبين لنا من التفسير والقراءات والسماع... والذي يلخصه القول بأنه (نقلي متحرر)، فمثلما حرص على مأثور التفسير رفض بعض وجوهه محكِّما عقله.. وكما اعتد بالقراءات المتواترة، والشاذة، ردّ بعضها ونعت أصحابها بالخطأ أو الوهم، وكذا الحال في حرصه على الاعتداد بالمسموع، ولكن ليس كل مسموع بل الذي توافرت فيه شروط الاحتجاج زمناً وقبائل، وهكذا أمره في موقفه من القياس، فهو لا يقيس على كل لغة واردة عن العرب وإن كان نص على كثير منها... وذلك منهج سليم لأنه قائم على مراعاة واقع الاستعمال اللغوي

---

(١) في أصول النحو: ١٠٩.

(٢) معاني القرآن: ١/ ١٩.

(٣) نفسه: ١/ ٤٦٩ – ٤٧٠.

الذي يتأبى في أحيان كثيرة الخضوع للقواعد النظرية المرسومة، والحرص – في الوقت نفسه – على النأي باللغة عن الفوضى بجعلها تحت مراقبة الفكر الذي يضع لها الضوابط اللازمة لذلك، وهذا المنهج هو منهج المعتزلة الذي يعمد إلى تحكيم العقل مع المحافظة على أصل الدين «وإذن فما يتردد في بعض الكتابات من أن البصرة كانت تخطِّئ العرب، بينما كانت الكوفة تقبل كل ما يروى عنهم، حتى لربما بنت على الشاهد الواحد، قاعدة غير صحيحة، وهي حقاً قد تتوسع في القياس... ولكن ليس معنى ذلك أنها كانت تصنع ذلك بكل شاهد»[1].

ب – العوامل والعلل:

ثمة علاقة بين العوامل والعلل كما بين السماع والقياس، وتلك العلاقة بين العامل والعلة تبدو في أن الاثنين كليهما يتعلقان بالاستدلال الذهني الذي كان يتفتق عنه ذهن علماء العربية، وأنهما «نابعان من معين واحد، هو العقل البشري الذي من طبيعته التساؤل عن الأسباب الكامنة وراء أية ظاهرة مهما كان نوعها، وبالتالي طموحه إلى تفسيرها وإخضاعها لأحكام منطقه، ويبدو لنا أن العلل النحوية بصورتها البسيطة، وهي التي يسميها الزجاجي (العلل التعليمية) قد رافقت في الأساس نظرية العوامل، بل هي امتزجت بها، حتى ليصعب على المرء التمييز بينهما»[2]. كما أن العامل قد يكون علة أولى فيربطه، في هذه الحال بالعلل رباط واشج.

---

(١) المدارس النحوية: ٢١٨، وينظر: مقال (القياس وصيغ المبالغة) لصلاح الدين الزعبلاوي، في مجلة التراث العربي، العددان ١١-١٢، ص: ٢١٧.

(٢) تجديد النحو العربي، د. عفيف دمشقية، ص: ٥٩.

١ – العوامل:

عرف صاحب الكشاف العامل بقوله: «العامل هو عند النحاة ما أوجب كون آخر الكلمة على وجه مخصوص من الإعراب»[١] و«العامل بسببه يحدث المعنى المقتضى لكون آخر الكلمة على وجه مخصوص من الإعراب»[٢]، وهذا يعني أن العامل هو محدث حركات الإعراب التي تكمن أهميتها في الكلام باعتبارها إبانة عن الوظيفة الذاتية للكلمة، وبكونها تحمل دلالات خاصة.

ولا يحتاج المرء إلى كثير من التأمل في كتاب (معاني القرآن) ليدرك أن أبا زكريا يولي العوامل أهمية في تعليل حركات الإعراب، ومواقع الكلم الإعرابية، ولم يكن بدعاً في ذلك الأمر، فعلى أساس نظرية العامل أرسى الخليل قواعد النحو ثم توسع فيها تلميذه سيبويه من بعده، فكانت له عمدة في توزيع أبواب الكتاب[٣] ولكنها ليست واضحة في كتاب الفراء وضوحها في كتاب سيبويه، لأن كتاب الفراء ليس مقصوراً على النحو، لهذا نجدها مبثوثة هنا وهناك في مواضع مختلفة منه.

ومعلوم أن العوامل عند النحاة قسمان: (لفظية وهي ما يتلفظ بها حقيقة أو حكماً، ومعنوية وهي ما لا يكون لها أثر في اللفظ أصلاً لا حقيقة ولا حكماً... وقد يطلق العامل المعنوي على ما لا يكون عامليته باعتبار لفظ الكلام ومنطوقه، بل باعتبار معنى خارج يفهم من فحوى الكلام، ويقابله العامل اللفظي بمعنى ما يكون عامليته باعتبار لفظ الكلام ومنطوقه، سواء كان ملفوظاً أو حكماً)[٤].

---

(١) كشاف اصطلاحات الفنون: ٤/ ١٠٤٥.

(٢) نفسه: ٤/ ١٠٤٦.

(٣) ينظر: كتاب سيبويه: ١/ ١٣.

(٤) كشاف اصطلاحات الفنون: ٤/ ١٠٤٦، وينظر في معنى العامل المعنوي واللفظي كتاب الخصائص: ١/ ١٠٩، وما بعدها.

أما العوامل المعنوية فمشهور منها عند عامة النحاة اثنان: رافع المبتدأ، ورافع الفعل المضارع، وفي كتاب الفراء منها: رافع الفعل المضارع، والخلاف أو الصرف، والتقريب.

أما رافع المبتدأ فهو عند نحاة البصرة عامل الابتداء، وعند الفراء وأهل الكوفة عامل آخر هو الخبر وهو من العوامل اللفظية لا المعنوية، ومذهبهم في ذلك أن المبتدأ يرفع الخبر، والخبر يرفع المبتدأ فهما مترافعان[1].

وأما الفعل المضارع فأصله البناء كباقي الأفعال، ولكن أعربوه لمضارعته اسم الفاعل لفظاً ومعنى[2] وأصل إعرابه الرفع، ولكن إذا دخل عليه جازم أو ناصب عمل فيه عمله، أما الكوفيون فذهبوا إلى أن عامل الرفع فيه هو تجرده من دخول عامل عليه، فالتجرد هو العامل المعنوي عند الكوفيين. يقول الفراء: «وقوله: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرائيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّـهَ**﴾[3]، رفعت (تعبدون) لأن دخول (أن) يصلح فيها، فلما حذف الناصب رفعت»[4].

وعلى الرغم من سيادة معظم الآراء البصرية في النحو الحديث، لا نجد لهذا الرأي ظلاً، بل ساد في رافع المضارع مذهب نحاة الكوفة، وهو التجرد من عوامل النصب والجزم[5].

---

(١) ينظر: معاني القرآن: ١/ ٢٤٠-٣٢٦-٣٦٩-٢/ ٥٧، والإنصاف، المسألة: ٥.

(٢) وهو مذهب البصريين، الإنصاف: المسألة: ٧٤، وينظر: الخصائص: ١/ ٦٣.

(٣) سورة البقرة، من الآية: ٨٣.

(٤) معاني القرآن: ١/ ٥٣.

(٥) أصول النحو العربي، د. حلواني، ص: ١٧٦.

والصرف أو الخلاف عامل معنوي آخر عند الفراء: «ويقصد به النصب في بابين هما باب الفعل المضارع المنصوب بعد الواو والفاء وأو، وباب المفعول معه، إذ يُصرف المضارع والمفعول معه عمّا قبله، فلا تكون الواو فيهما عاطفة، بل تكون واو صرف لهما عمّا قبلهما، ومثلها الفاء وأو، ويشرح ذلك مع الواو وأو فيقول: (الصرف: أن تأتي بالواو معطوفة على كلام في أوله حادثة لا تستقيم إعادتها على ما عطف عليها، كقول الشاعر:

لا تنه عن خلق وتأتيَ مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

ألا ترى أنه لا يجوز إعادة (لا) في (تأتي مثله) فلذلك سمي صرفاً إذا كان معطوفاً ولم يستَقِم أن يعاد فيه الحادث الذي قبله، ومثله من الأسماء التي نصبتها العرب وهي معطوفة على مرفوع قولهم: (لو تركت والأسدَ لأكلك) و(لو خليت ورأيَك لضللت). والعرب تقول: (لست لأبي إن لم أقتلك أو تذهبَ نفسي)، ويقولون: (والله لأضربَّنك أو تسبقَنِّي في الأرض) فهذا مردود (معطوف) على أول الكلام، ومعناه الصرف لأنه لا يجوز على الثاني إعادة الجزم بلم ولا إعادة اليمين على الله لتسبقَنِّي، وتجد ذلك إذا امتحنت الكلام»[1].

ويقول في موضع ثان: الصرف أن يجتمع الفعلان بالواو أو ثم أو الفاء أو أو وفي أولهما جَحْد (نفي) أو استفهام ثم ترى ذلك الجحد أو الاستفهام ممتنعاً أن يكرَّ في العطف فذلك الصرف[2]»[3].

---

(١) معاني القرآن: ١/ ٣٤.

(٢) نفسه: ٢/ ٢٣٥.

(٣) المدارس النحوية: ١٩٨ – ١٩٩، وينظر: الإنصاف، المسألة: ٢٩.

وليس عامل النصب أو الخلاف مقصوراً على نصب المفعول معه من الأسماء، وإنما ينصب أيضاً: «الظرف الواقع خبراً، مثل: الكتاب أمامَك، والمستثنى مثل: ما لكم به من علم إلا اتباعَ الظنِ. أما الظرف (أمامك) فقد وقع بعد المبتدأ وهو خبر له، والمعروف أن المبتدأ هو الخبر نفسه في المعنى، ولهذا تكون الحركة الإعرابية واحدة، وهي الرفع... ولكن الظرف (أمامك) وأمثاله ليس هو المبتدأ، إنه غيره، فلا يمكن أن يعطى اللفظان حركة واحدة، ولهذا نصب الظرف على الخلاف. وكذلك ترى في جملة الاستثناء (اتباع الظن) مخالفاً للعلم، ولهذا كان النصب وسيلة لهذا المعنى، أو لباساً له»[1].

وأما عامل التقريب فيريد به: «اسم الإشارة حين يليه الخبر وحال منصوبة في مثل: (هذا زيد شاعراً) و (هذا الأسد مخوفاً) فإنه لم يكن يعرب الجملة على هذا النحو الذي ذكرناه، أو بعبارة أخرى على نحو ما كان يعربها سيبويه، بل كان يجعل اسم الإشارة كأنه مُشْبِهٌ لكان إذ يليه – مثلها – مرفوع ومنصوب، ويقول إن المنصوب ينصب بخلوه من العامل، كما نصب خبر كان، أي لعدم وجود رافع له يرفعه[2]... أما هذا فيعرب تقريباً»[3].

هذا ما يتعلق بما ورد من عوامل معنوية في كتاب الفراء أما العوامل اللفظية فأكثر من المعنوية ومنها الأفعال، والأسماء والحروف. والأفعال هي العوامل الأصول «لأننا لا نجد فعلاً غير عامل إلا الأقل، لإخراجه عن

---

(١) أصول النحو العربي، د. محمد خير حلواني: ١٧٨ – ١٧٩.

(٢) معاني القرآن: ٢/١٦٨ – ١/١٢.

(٣) المدارس النحوية: ١٩٨.

أصله لمعنى عرض له، وهو ضربان لازم ومتعـد، فنقول على هذا: الرفع في الأفعال عام والنصب فيها خاص»[1].

والفراء ينص على ذلك فيقول مثلاً: «ثم تعمل الأفعال في الأسـماء، فإن كانت رافعـة رفعت، وإن كانت ناصبة نصبت»[2]، ويقول أيضاً: «وإذا لم تر قبل (إلا) اسماً فأعمل مـا قبلها فيما بعدهـا، فتقول: ما قام إلا زيد، رفعت (زيداً) لإعمالك (قام)، إذ لم تجد (قام) اسماً بعدها، وكذلك: ما ضربت إلا أخاك، وما مررت إلا بأخيك»[3].

ولكن ليست الأفعال المتعدية جميعاً تتعدى بنفسها، بل منها ما لا يتعدى إلى مفعوله إلا بالحرف، وهذا الصنف لا يستقل بنفسه وإنما هو محتاج إلى حرف يصله بما بعده، وفي ذلك يقول: «لا يكون (باؤوا) مفردة حتى توصل بالباء، فيقال: باء بإثم»[4].

وأما الأسماء فقد تكون عاملة أيضاً، ورأينا كيف يعمل المبتدأ في الخبر والخبر في المبتدأ فيرتفع كل منهما بالآخر، ومن ذلك أيضاً اسم الفاعل الذي يعمل عمل فعله فيرفع معموله أو ينصبه. يقول: «﴿**فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّـهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ**﴾[5]، أضفت (مخلف) إلى الوعد ونصبت الرسل على التأويل، وإذا كان الفعل يقع على شيئين مختلفين مثل كسوتك الثوب وأدخلتُكَ الدار فابدأ

---

(١) المرتجل لابن الخشاب: ١١٦.

(٢) معاني القرآن: ١/ ١٠٠.

(٣) نفسه: ١/ ١٦٧.

(٤) نفسه: ١/ ٦٠.

(٥) سورة إبراهيم، من الآية: ٤٧.

بإضافة الفعل إلى الرجل فيقول: هو كاسي عبدِ الله ثوباً، ومدخِلُه الدار، ويجوز: هو كاسي الثوبِ عبدَ الله ومدخِلُ الدارِ زيداً، جاز ذلك لأن الفعل قد يأخذ – أي ينصب – الدار كأخذه عبد الله فتقول: أدخلت الدار وكسوت الثوب... وزعم الكسائي أنهم يؤثرون النصب إذا حالوا بين الفعل – أي اسم الفاعل – المضاف بصفة فيقولون: هو ضاربُ في غير شيء أخاه، يتوهمون إذ حالوا بينهما أنهم نوَّنوا – أي اسم الفاعل -»[1].

وأما القسم الأخير من العوامل فهو الحروف «والعامل منها ما اختص بالفعل أو الاسم، والمهمل هو غير المختص بأحدهما، إلا أن بعض الحروف قد تكون مختصة وهي غير عاملة، وعلة ما جاء من هذا الضرب في امتناعه عن العمل أن يتصل بما اختص به اتصالاً شديداً، حتى يتنزل لشدة اتصاله به منزلة الجزء منه»[2]. وهذه ثلاثة:

ما ينصب الاسم ويرفع الخبر وهي الحروف المشبهة بالفعل، ثم حروف الجزم وأدوات الشرط، وحروف الخفض، وكلها معروفة، وسوف أمثل لما ورد في كتاب المعاني من هذه العوامل.

ذهب الفراء إلى أن (لولا) ترفع ما بعدها يقول: «وقوله: ﴿**وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ**﴾[3] رفعهم بـ (لولا)، ثم قال: ﴿**أن تطئوهم**﴾ فأن في موضع رفع بـ (لولا)»[4].

---

(١) معاني القرآن: ٢/ ٧٩ – ٨١.

(٢) المرتجل: ١٦٨ و ٢٢٧.

(٣) سورة الفتح، من الآية: ٢٥.

(٤) معاني القرآن: ١/ ٤٠٤.

ومشهور موقفه من إعمال (حتى)[1] حتى ذاع عنه قوله: «أموت وفي نفسي شيء من (حتى)، لأنها تخفض وتنصب وترفع»[2].

«ومن ذلك تعليقه على الآية الكريمة: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّـهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللَّـهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾[3]، فقد وقف بإزاء (أنْ) في قوله تعالى: ﴿بغيا أن ينزل الله﴾ ملاحظاً أنها تفيد الجزاء مثل (إنْ)، ومن هنا كانا يتعاوران الموضع الواحد في الكلام، ويفرق بينهما في الاستعمال على هذا النحو: (إذا كان الجزاء لم يقع عليه شيء قبله، وكان يُنوى بها الاستقبال، كَسَرْتَ (إن) وجزمت بها فقلت: أكرمُك إنْ تأتِني، فإن كانت ماضية قلت: أكرمك أنْ تأتِيَني، وأبيَنُ من ذلك أن تقول: أكرمك أنْ أتيتَني)[4]»[5].

والعامل قد يحذف من الكلام ويظل أثره موجوداً فيعمل عمله مقدراً، ومن ذلك أن الفراء يقدر العوامل اللفظية في تعليل حركات الإعراب[6] ونصب كلمة (ملة) من قوله تعالى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾[7]، بفعل محذوف. يقول: «فإن نصبتها بـ(نكون) كان صواباً، وإن نصبتها بفعل مضمر كان صواباً،

---

(١) نفسه: ١/ ١٣٢ – ١٣٨.

(٢) إنباه الرواة: ٤/ ٩.

(٣) سورة البقرة، من الآية: ٩٠.

(٤) معاني القرآن: ١/ ٥٨.

(٥) المدارس النحوية: ٢١٢ – ٢١٣.

(٦) معاني القرآن: ١/ ٣٩.

(٧) سورة البقرة، من الآية: ١٣٥.

كقولك بل نتبع **(ملة إبراهيم)**»[1] كما يكون الضمير المحذوف عاملاً في الخبر فيذكر ذلك: «وقوله: ﴿**وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ**﴾[2]، رفع بإضمار مَكْنِي من أسمائهم، كقوله: لا تقولوا: هم أموات بل هم أحياء»[3]. وغير ذلك كثير مما يقدر فيه العوامل المحذوفة[4].

ولكن ليست العوامل اللفظية جميعها مما يضمر مع بقاء عملها في حالة الإضمار، لأن منها العامل الضعيف كـ **(أن)** الخفيفة التي ذهب البصريون فيها إلى أنها لا تعمل مع الحذف من غير بدل، أما الفراء والكوفيون فأجازوا إعمالها محذوفة لوجود دليل فقالوا: «الدليل على أنه يجوز إعمالها مع الحذف قراءة عبد الله بن مسعود: ﴿**وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدوا إلا الله**﴾ فنصب **(لا تعبدوا)** بأن مقدرة، لأن التقدير فيه: أن لا تعبدوا إلا الله، فحذف **(أن)** وأعملها مع الحذف، فدل على أنها تعمل النصب مع الحذف، وقال طرفة:

ألا أيهذا الزاجري أحضرَ الوغى وأن أشهدَ اللذاتِ هل أنت مُخْلِدي؟

فنصب **(أحضر)** لأن التقدير فيه: أن أحضر، فحذفها وأعملها مع الحذف، والدليل على صحة هذا التقدير أنه عطف عليه قوله: **(وأن أشهد اللذات)** فدل على أنها تنصب مع الحذف»[5]، وقد وردت هذه الحجة عند الفراء في كتابه حيث قال: «ألا ترى أن ظهور **(أن)** في آخر الكلام يدل على

---

(١) معاني القرآن: ١/ ٨٢.

(٢) سورة البقرة، من الآية: ١٥٤.

(٣) معاني القرآن: ١/ ٩٣.

(٤) ينظر مثلاً معاني القرآن: ١/ ١٤١ – ١٥٣ – ١٥٦ – ١٨٨ – ٣٩٦ – ٣/ ١٩ – ٧٦ – ٢٩/٣ – ٣٨ – ٨٧.

(٥) الإنصاف، المسألة: ٧٧.

أنها معطوفة على أخرى مثلها في أول الكلام وقد حذفها»[1]. ولست أدري كيف رأى الدكتور محمد خير حلواني أن جمهور الكوفة رفض رواية النصب في بيت طرفة[2] المذكور وقد احتجوا به؟!.

وأما الخافض فأمره مختلف في إعماله محذوفاً، إذ لا يجوز إضماره وإعماله، لأن الخافض مع المخفوض بمنزلة الحرف الواحد[3].

«وهناك أصل آخر فسر به النحويون مجموعة من الظواهر الإعرابية هو أن العامل إذا لم يظهر عمله في معمول يليه جاز أن يهمل عمله في معمول آخر يقع بعده، فبهذا الأصل فسروا مثل قول زهير:

وإن أتــاه خليــل يــوم مــسغبة يقــول لا غائــب مــا لي ولا حــرم

فـ (إن) الجازمة، وقع بعدها فعل ماض، وهو مبني لا تظهر عليه علامة الجزم، ولذلك جاز للشاعر أن يجعل جواب الشرط – وهو فعل مضارع معرب – غير متأثر بالعامل (إن).

وكذلك فسر به الفراء جواز العطف على اسم (إن) بالرفع في مثل الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى﴾[4]، فذكر أن اسم (إن) وهو (الذين) على جهة واحدة في رفعه ونصبه وخفضه، أي أن عمل العامل لا يظهر فيه لبنائه، ولذلك جاز عنده رفع المعطوف عليه وهو (الصابئون)»[5].

---

(١) معاني القرآن:: ٣/ ٢٦٥.

(٢) أصول النحو العربي، ص: ١٩٧.

(٣) معاني القرآن: ١/ ١٩٦.

(٤) سورة المائدة، من الآية: ٦٩، وانظر: معاني القرآن: ١/ ٣١٠ – ٣١١.

(٥) أصول النحو العربي، د. حلواني: ٢٠٠.

والفراء، في تقديره العوامل المحذوفة، معتدل لم يكن يوغل ويتمحل كما كان يفعل متأخرو النحاة... الذين بالغوا بأمر العامل، وشعبوا وجوه القول فيه، وأسقموا النحو بمصطلحات المنطق وعلم الكلام، متأثرين بالثقافات العربية والأعجمية السائدة في عصورهم، ومما يسجل للرجل أنه لم يكن – كغيره – مفتوناً بأثر العامل اللفظي، معتداً به على أنه صناعة لفظية ليس غير... بل كان يولي المعنى أهمية أولى، ويرى العامل سبباً في تغير المعنى، ودليلاً على ما يريد المتكلم، وهذا يعني أنه كان دائماً يضع نصب عينيه أن النحو يخضع للمعنى، وأن المتكلم اتخذ من العوامل آلات للتعبير عمّا في نفسه[1]، «ونحن نجد في كتابه **(معاني القرآن)** ما يؤيد ذلك، انظر مثلاً إلى مراعاته للمعنى في تعليل الضم في **(أيهم)** في قولنا: **[**سل أيُّهم قام**]** فلفظة **[**أيهم**]** يعمل فيها ما بعدها، ولا يعمل فيها ما قبلها لأنك إذا سلطت عليها الفعل الذي قبلها أخرجتها عن معنى الاستفهام إلى معنى **(مَنْ)** و **(الذي)** كقولك لأضربن أيهم فعل ذلك [2]»[3].

ومثل ذلك الموقف يدل على حس لغوي سليم ونظرة واعية مصيبة لواقع التركيب اللغوي، ويجعلني أرى أن الفراء قد سبق ابن جني المتوفى سنة **(٣٩٢هـ)** بقوله في العامل: «فأما في الحقيقة ومحصول الحديث، فالعمل من الرفع والنصب والجر والجزم، إنما هو للمتكلم نفسه لا لشيء غيره، وإنما

---

(١) ينظر: شرح الرضي على الكافية: ١/ ٢٥ و ص: ٢١٤، من مقال: **(**نحو منهج تكاملي لعلوم اللغة العربية**)** للدكتور مازن المبارك – مجلة المعرفة السورية- العددان: ٢٨٩ – ٢٩٠ لعام ١٩٨٦.

(٢) معاني القرآن: ١/ ٤٦ وما بعدها.

(٣) النحو العربي: ٦٦ – ٦٧.

قالوا: لفظي ومعنوي لما ظهرت آثار فعل المتكلم بمضامّة اللفظ للفظ، أو باشتمال المعنى على اللفظ»[1].

٢- العلل:

من طبيعة الإنسان أن يسأل عن السبب ويستقصي العلة، ومن طبيعة العقل أن يتتبع الجزئيات، ويجمع ما تشابه منها ليطلق عليها حكماً عاماً فيصل بالظاهرة إلى القاعدة العلمية، ولذلك فليس غريباً أن يكون السؤال عن العلة قديماً، وأن يكون التعليل مرافقاً للحكم النحوي منذ وجد، وغرض التعليل هو أن يُظهِر خضوع الظاهرات لقواعد العلم وأحكامه، ثم إن النحو لم يلبث أن تأثر بعلوم الدين والكلام فاستمد منها رغبة البحث عن العلة، وأسلوب النظر فيها[2].

والعلل ثلاثة أضرب كما أوردها الزجاجي في الإيضاح: «علل تعليمية وعلل قياسية وعلل جدلية نظرية، فأما التعليمية فهي التي يتوصل بها إلى تعلم كلام العرب، فمن هذا النوع من العلل قولنا: قام زيد، إن قيل: لم رفعتم زيداً؟ قلنا: لأنه فاعل اشتغل فعله به، فهذا وما أشبهه من نوع التعليم وبه ضبط كلام العرب، أما العلة القياسية فأن يقال لمن قال: نصبت زيداً بإنَّ في قوله: إنَّ زيداً قائم، ولم وجب أن تنصب (إنَّ) الاسم؟ فالجواب في ذلك أن يقول: لأنها وأخواتها ضارعت الفعل المتعدي إلى مفعول فحملت عليه، فأعملت إعماله لَمَّا ضارعته.. أما العلة الجدلية النظرية فكل ما يعتل به في باب (أن) بعد هذا، مثل أن يقال: فمن أي جهة

---

(١) الخصائص: ١/ ١١٠.

(٢) النحو العربي: ٥١.

شابهت هذه الحروف الأفعال؟ وبأي الأفعال شبهتموها؟ أبالماضية، أم المستقبلية، أم الحادثة في الحال أم المتراخية؟ وحيث شبهتموها بالأفعال لأي شيء عدلتم بها إلى مقدم مفعوله على فاعله، وهلاَّ شبهتموها بما قدم فاعله على مفعوله؟»[1].

إن معظم ما ورد في كتاب الفراء من علل هو من العلل التعليمية البسيطة، وقليل ما أتى من العلل القياسية، أما العلل الجدلية النظرية فهي من نتاج عصور متأخرة عن عصر الفراء، وشأنه في هذا شأن معاصريه ومتقدميه من النحاة: «على أنه إن كانت هـذه العلل غير فلسفية في طبيعتها فإن هذا لا يعني أنها – في نشأتها – بنت التفكير النحوي الصرف، إذ حسبها أنها (علة) يسأل عنها، وتستقصى أسبابها، لتكون مقتبسة من أسلوب الفكر المتطلع إلى ما وراء الطبيعة، أي من أسلوب الفكر الفلسفي، وليس في هذا شيء من العجب، فلقد تأثر النحو بالفلسفة، والمنطق منذ عصر مبكر عن طريق المتكلمين وعلماء الجدل»[2]. والفراء عرف بميله إلى الاعتزال، وحسبي أن أورد بعض علله لنعرف طابعها واتجاهه في التعامل معها.

فمن العلل القياسية تعليل اختيار العرب رفع (السارق والسارقـة) في قولـه تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾[3] قياساً على (مَنْ) الشرطية التي لا تحمل معنى التخصيص[4]، وتعليل عمل اسم الفاعل

---

(١) الإيضاح في علل النحو: ٦٤ – ٦٥.

(٢) النحو العربي: ٥٧ – ٥٨.

(٣) سورة المائدة، من الآية: ٣٨.

(٤) معاني القرآن: ١/ ٣٠٦.

المحذوف التنوين في الجمع بحمله على مفرده المحذوف التنوين[1]، وهو في ذلك يقيس الفرع على الأصل مع التعليل.

وأما العلل التعليمية فهي كثيرة غالبة على علل الفراء، وكثيراً ما أوردها ليعمم عليها قاعدة، من ذلك عدم إجازته جمع فعل أو خبر (كل أو أحد) إذا كان المراد بـ (كل أو أحد) مفرداً لا جمعاً، وإجازته الجمع إذا كان (كل أو أحد) مفرداً وجمعاً في النية. يقول: «وقوله: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ﴾[2] (يأتين) فعل النوق... ولو قال: وعلى كل ضامر تأتي تجعله فعلاً موحداً لأن (كل) أضيفت إلى واحدة (أي لجاز) وأشد منه في الجواز قوله: ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾[3]، وإنما جاز الجمع في (أحد)، وفي (كل) رجل لأن تأويلهما قد يكون في النية موحداً وجمعاً، فإذا كان (أحداً) وكل متفرقة من اثنين لم يجز إلا توحيد فعلهما من ذلك أن تقول: كل رجل منكما قائم، وخطأ أن تقول قائمون أو قائمان لأن المعنى قد ردّه إلى الواحد، وكذلك ما منكما أحد قائمون أو قائمان، خطأ لتلك العلة»[4].

ومن ذلك تعليله فتح عين (مفعل) اسماً ومصدراً، مما كانت لامه ياء أو واواً، بسقوط الياء والواو للتنوين عند الوقف، يقول: «وما كان من ذوات الياء والواو من دَعَوت وقضيت فالمفعل منه مفتوح اسماً كان أو مصدراً... وإنما امتنعوا من كسر العين في الياء والواو لأن الياء والواو

---

(١) نفسه: ٢/ ٢٢٦.

(٢) سورة الحج، من الآية: ٢٧.

(٣) سورة الحاقة، الآية: ٤٧.

(٤) معاني القرآن: ٢/ ٢٢٤.

تذهبان في السكت للتنوين الذي يلحق، فردوها إلى الألف إذ كانت لا تسقط في السكوت»[1]، وغير ذلك من العلل التي تتخلل كلامه»[2].

وقد رأيناه يعلل بعلة واحدة، ولكنه قد يعلل بأكثر من علة، كتعليل عدم صرف كلمة (مواطن) من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾[3]، بقوله: «نصبت المواطن لأن كل جمع كانت فيه ألف قبلها حرفان وبعدها حرفان فهو لا يُجرى، وإنما منعهم من إجرائه أنه مثال لم يأت عليه شيء من الأسماء المفردة، وأنه غاية للجماع، إذا انتهى الجماع إليه فينبغي له ألا يجمع»[4].

وقد وجدته في كل علله يعتمد أربعة أسباب يعزو إليها تلك العلل، وهذه الأسباب التي ارتكز عليها هي: الخفة والثقل، وكثرة الاستعمال، ومراعاة المعنى، والعِوَض، والخفة والثقل هي أكثر ما يدور في كتب النحاة لتعليل الظواهر اللغوية وتقرير القواعد وتعميمها، ولا عجب أن تكون النفوس ميالة إلى الخفة في نطق الكلام، نافرة من ثقيلة، لما ينجم عن ذلك من راحة العضلات في بذلها أقل جهد يؤدي إلى عملية النطق، يؤكد هذا ما ورد عن العرب، ونطق به الفصحاء «ومن الممكن أن نربط بين هذه العلة وما يسميه علم اللغة الحديث بقانون الاقتصاد اللغوي، ويعني به أن المتكلم يحاول أن يوصل ما في ذهنه من أفكار، أو ما في نفسه من إحساسات، مع أقل جهد

---

(١) المعاني: ٢/١٤٩.

(٢) لمزيد من العلل ينظر: معاني القرآن: ١/٣١ – ٣١١ – ٣٤٠ – ٢/٢٥٧ – ٣٥٤ – ٣/٨٥ – ١٨٩ – ٢٣٣ – ٢٤٧.

(٣) سورة براءة، من الآية: ٢٥.

(٤) معاني القرآن: ١/٤٢٨.

عضلي مبذول، وقد عبّر عنه القدماء بالاستخفاف، لأن المصطلحات العلمية تختلف باختلاف الأزمنة»[1].

فقد تحذف الياء من آخر الأفعال والأسماء طلباً للخفة وهرباً من الاستثقال: «فمن حذفها اكتفى بالكسرة التي قبلها دليلاً عليها، وذلك أنها كالصلة إذ سكنت وهي في آخر الحروف واستثقلت فحذفت»[2].

ويحتكم الفراء إلى قانون الخفة والثقل في تسكين المتحرك فيعلل تعليلاً دقيقاً قائلاً: «وقوله: ﴿أنلزمكموها﴾ العرب تسكن الميم التي من اللزوم فيقولون: أنلزمْكموها، وذلك أن الحركات قد توالت فسكنت الميم لحركتها وحركتين بعدها وأنها مرفوعة، فلو كانت منصوبة لم يُستَثْقل فتُخَفَّفَ، إنما يستثقلون كسرة بعدها ضمة أو ضمة بعدها كسرة أو كسرتين متواليتين أو ضمتين متواليتين، فإنما يستثقل الضم والكسر لأن لمخرجيهما مؤونة على اللسان والشفتين تنضم الرفعة بهما... ويمال أحد الشدقين إلى الكسرة فترى ذلك ثقيلاً، والفتحة تخرج من خَرْق الفم بلا كلفة»[3]، وغير ذلك كثير مما يتصل بالخفة والثقل في التعليل[4].

وأما كثرة الاستعمال فعلة رديفة للعلة السابقة، وهي تشترك معها فيما يعرف بقانون الاقتصاد اللغوي في علم اللغة الحديث، وقد علل بها النحاة

---

(١) أصول النحو العربي، د. حلواني: ١١٤.

(٢) معاني القرآن: ١/ ٢٠١.

(٣) معاني القرآن: ٢/ ١٢ – ١٣.

(٤) لمزيد من الأمثلة عن التعليل بالخفة ينظر: معاني القرآن: ٢/ ٩٦ – ١٣٠ – ٢٢٤ – ٣٣٠ – ٣/ ١١٤ – ٢٠٣ – ٢٢٣.

ظواهر كثيرة، وذلك أن تغييراً ما يطرأ على بعض الكلمات أو التراكيب اللغوية حين يكثر استعمالها، ويغدو أصلها معروفاً لهذه العلة. من ذلك حذف الياء المضافة في النداء، «وأكثر ما تحذف بالإضافة في النداء، لأن النداء مستعمل كثير في الكلام[1]، وحذف الياء المضافة في عم وأم من قولهم: يا بن عم ويا بن أم، وقوله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ﴾[2]، يقرأ (ابن أمَّ، وأمِّ) بالنصب والخفض[3]، وذلك أنه كثر في كلام العرب فحذفت العرب منه الياء، ولا يكادون يحذفون الياء إلا من الاسم المنادى يضيفه المنادي إلى نفسه، إلا قولهم: يا بن عم ويا بن أم، وذلك أنه يكثر استعمالهما في كلامهم»[4]. وحذف الميم من (لا جَرَمَ)، «ولكثرتها في الكلام حذفت منها الميم فبنو فزارة يقولون: (لا جَرَ أنك قائم»[5]، وكثرة الاستعمال قد تؤدي أيضاً إلى التخفيف: «وقوله: ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْـجُودِيِّ﴾[6]، ياؤه مشددة وقد حُدِّثْتُ أن بعض القراء قرأ (على الجودى) بإرسال الياء، فإن تكن صحيحة فهي مما كثر به الكلام عند أهله فخفف»[7].

---

(١) معاني القرآن: ١/ ٢٠١.

(٢) سورة الأعراف، من الآية: ١٥٠.

(٣) واختلفوا في ابن أم هنا وفي طه: يا ابن أم، فقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وأبو بكر: بكسر الميم في الموضعين، وقرأ الباقون بفتحهما فيهما. انظر: النشر في القراءات العشر: ٢/ ٢٦٢. وينظر: علة الوجهين في: الحجة في القراءات السبع، لابن خالويه: ١٣٩ – ١٤٠.

(٤) معاني القرآن: ١/ ٣٩٤.

(٥) نفسه: ٢/ ٩.

(٦) سورة هود، من الآية: ٤٤.

(٧) معاني القرآن: ٢/ ١٦.

وأما مراعاة الفراء للمعنى فلها نصيب من علله مثلما كان لها نصيب أيضاً في تقديره العوامل كما رأينا، وقد وعى أن النحو ليس صناعة لفظية فقط، وإنما هو خادم لمعاني الكلام وضابط لها في الدرجة الأولى، ومن أجل تلك المعاني وجد النحو وما يتصل به من أصول، وذاك ما لم يغرب عن بال أبي زكريا في التعليل، فهو يوجه الإعراب بحسب المعنى المراد، كتوجيهه رفع **(كلهن)** على هذه العلة في قوله تعالى: ﴿**وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ**﴾[1]، قائلاً فيها: «رَفْعٌ لاغير، لأن المعنى: وترضى كل واحدة، ولا يجوز أن تجعل **(كلهن)** نعتاً للهاء في الإيتاء، لأنه لا معنى له، ألا ترى أنك تقول: لأكرمن القوم ما أكرموني أجمعين، وليس لقولك: **(أجمعون)** معنى. ولو كان له[2] معنى لجاز نصبه»[3].

وانظر إلى مراعاته المعنى والذوق في تعليله جواز تذكير الفعل قبل الاسم المؤنث كما في قوله تعالى: ﴿**فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ**﴾[4] وعدم جواز ذلك إذا جاء بعده قال: «فإن قال قائل أرأيت الفعل إذا جاء بعد المصادر المؤنثة أيجوز تذكيره بعد الأسماء كما جاز قبلها؟ قلت: ذلك قبيح وهو جائز، وإنما قبح لأن الفعل إذا أتى بعد الاسم كان فيه مَكْنِي – أي ضمير – من الاسم فاستقبحوا أن يضمروا مذكراً قبله مؤنث، والذين استجازوا ذلك قالوا إنما يذهب به إلى المعنى وهو في التقديم والتأخير سواء[5]»[6].

---

(١) سورة السجدة، من الآية: ٥١.

(٢) الضمير هنا عائد على **(كلهن)** في الآية، وهو يريد أن نصب **(كلهن)** غير جائز في هذه الآية لكونه لا معنى له، وسلامة المعنى تقتضي رفع **(كلهن)** لا غير.

(٣) معاني القرآن: ٢/ ٣٤٦.

(٤) سورة البقرة، من الآية: ٢٧٥.

(٥) معاني القرآن: ١/ ١٢٨.

(٦) النحو العربي: ٦٧.

وأما علة **(العِوَض)** فهي أن يكون في الكلمة حرف زائد عوضاً عن حرف محذوف لعلة ما تتعلق ببناء الكلمة، كزيادة الهاء في آخر الكلمة تعويضاً عن فائها أو عينها المحذوفتين. يقول: «وأما قوله: ﴿**وإقام الصلاة**﴾[1]، فإن المصدر من ذوات الثلاثة إذا قلت: أفَعلْت كقيلك: أقمت وأَجَرْت وأجَبْت يقال فيه كله: إقامة وإجازة وإجابة لا يسقط منه الهاء، وإنما أدخلت لأن الحرف قد سقطت منه العين، كان ينبغي أن يقال: أقمته إقواماً وإجوابا فلما سكّنت الواو[2] وبعدها ألف الإفعال فسكنتا سقطت الأولى منهما، فجعلوا فيه الهاء كأنها تكثير للحرف، ومثله مما أسقط منه بعضه فجعلت فيه الهاء قولهم: وعدته عدة ووجدت في المال جدة... لما أسقطت الواو من أوله كُثِّر من آخره بالهاء، وإنما استجيز سقوط الهاء من قوله: **(وإِقام الصلاة)** لإضافتهم إياه»[3].

ومن البداهة أن تظهر آثار ثقافة العالم وميوله الفكرية في علمه وعلله «ولا شك أن عالماً كالفراء عرف بميله إلى الاعتزال، وشهر بالفلسفة في تصانيفه، لن تخلو علله من هذا الطابع الفلسفي، وإن كان في بعض الأحيان يلجأ إلى السهولة والوضوح في بسط العلة»[4]، فإذا هو يتمحل للعلة ويحتج لها ويدافع عنها دفاع المتكلم فتكون علته أقرب إلى التفلسف والفكر المجرد منها إلى واقع الاستعمال.

---

(١) سورة النور، من الآية: ٣٧.

(٢) أي بعد نقل حركتها إلى ما قبلها.

(٣) معاني القرآن: ٢/ ٢٥٤.

(٤) النحو العربي: ٦٦.

من ذلك تعليله نصب (مثل) بسقوط الكاف قائلاً: «وعلة النصب فيها أن الكاف قد تكون داخلة عليها، فتنصب إذا ألقيت الكاف.. فإن قال قائل: أفيجوز أن تقول: زيدٌ الأسدَ شدةً فتنصب الأسد إذا ألقيت الكاف؟ قلت: لا، وذلك أن مثل تؤدي عن الكاف، والأسد لا يؤدي عنها»[1]، ولكن مثل هذه العلة قليل في الكتاب، فالطابع العام لعلل الفراء هو العلل التعليمية والقياسية الواضحة المرتكزة على الخفة، وكثرة الاستعمال، ومراعاة المعنى، والعوض، والتي تبتغي الإجابة عمّا يمكن أن يثيره العقل البشري من تساؤل، ومن ثم الوصول بالظاهرة اللغوية إلى القاعدة العلمية.

ولعلي، فيما قدمت من أصول الفراء، أكون كشفت عن تلك الأصول ومنهجه في الاحتجاج لها، بما يؤيد الرأي القائل بوجود مدرسة كوفية لها أصولها وسماتها المستقلة، التي لا يمكن أن تكون لها لولا الفراء الذي تمتع بشخصية قوية وعقل خصيب، لم يتوافرا لأحد من رجالات المذهب الكوفي.

* * *

ثانياً – مذهبه النحوي:

لا ريب في أن الفراء ينتمي إلى مدرسة الكوفة ويذهب مذاهبها في النحو واللغة، وقد كانت له اليد الطولى في إرساء قواعدها، وتوطيد مصطلحاتها، ووسمها بميسم واضح وهوية مستقلة متميزة، فبذل جهوداً جمة ليكون المذهب الكوفي مذهباً قائماً برأسه يقف بمقاييسه، وقواعده، ومصطلحاته أمام المذهب البصري، تماماً كما كان يقف هذا الأخير.

---

(١) معاني القرآن: ٣/ ٨٥.

وليس من المبالغة في شيء أن يوصف (معاني القرآن) للفراء بأنه كتاب أهل الكوفة مثلما كان كتاب سيبويه كتاب أهل البصرة و «أن الفراء يقوم في الكوفة مقام سيبويه في البصرة، فهو الذي أعطى المدرسة الكوفية تشكلها النهائي، إلا بعض إضافات زادها الكوفيون بعده»[1].

ومن خطل الرأي أن يخرج الدكتور أحمد مكي الأنصاري الفراء من دائرة النحو الكوفي ومدرسته[2]، ويجعله «إمام المدرسة البغدادية التي تكونت بعده بنحو مئة عام، والتي أقامت مذهبها النحوي على عمد الانتخاب من آراء المدرستين الكوفية والبصرية، وإنما أوقعه في ذلك أنه رأى الفراء يتأثر المدرسة البصرية في بعض آرائه ومنازعه»[3].

ولو جاز ما ارتآه الدكتور الأنصاري لجاز لسواه أن يرى في أبي إسحاق الزجاج وأبي سعيد السيرافي البصريين عالمين من علماء المدرسة البغدادية أيضاً، لأخذهما في بعض الأحيان بمذهب أهل الكوفة، ومتابعتهم لهم مثلاً في القول بإعراب اسم (لا) النافية للجنس منصوباً بها، لا ببنائه على الفتح في محل نصب كما يرى جمهور البصريين[4]... ومثل ذلك يمكن أن يقال في أبي جعفر النحاس الذي استخدم بعض مصطلحات المذهب الكوفي[5].

كما يقال في كثير من النحاة الذين شهروا بانتمائهم إلى إحدى هاتين المدرستين ووجدت عندهم بعض آثار المدرسة الأخرى.

---

(١) المدارس النحوية: ١٥٦.

(٢) أبو زكريا الفراء ومذهبه في النحو واللغة، ص: ٣٧٧ وما بعدها.

(٣) المدارس النحوية: ١٥٦ – ١٥٧.

(٤) الإنصاف: المسألة: ٥٣، ومغني اللبيب، ص: ٣١٤.

(٥) التفاحة في النحو: ١٩.

ومن اليسير جلاء اللبس الذي وقع فيه الدكتور الأنصاري إذا تذكرنا أن الفراء «جمع إلى علم الكوفيين علم البصريين، فأخذ عن الكسائي كما أخذ عن يونس البصري»[1]، وأن الكسائي أستاذ الفراء قرأ على الأخفش سعيد بن مسعدة كتاب سيبويه ووهبه سبعين ديناراً[2]، وأن الفراء لما مات رفع فراشه الذي كان ينام عليه ليباع، فوجد تحت وسادته كتاب سيبويه[3] كل ذلك يدل دلالة قاطعة على أن الكوفيين كانوا قد تمثلوا مذهب البصريين في كتاب سيبويه ووعَوْا كل آرائهم وقواعدهم ثم شرعوا في بناء مدرسة جديدة لها آراؤها، وقواعدها، وتفردها كما كان للمدرسة البصرية آراؤها، وقواعدها، وتفردها.

وإذا كنا قد رأينا – فيما سبق – أن الفراء قد أخذ ببعض قراءات أهل البصرة، وربما أخذ أيضاً برأي البصريين في مسألة ما[4]، فما ذلك إلا لأنه إمام كبير له شخصيته وآراؤه التي يستقل بها، والأخذ بما يراه أقرب إلى المذاهب العربية، حتى إنه يخالف في كثير من الأحيان ما يراه الكوفيون، وعلى رأسهم الكسائي، مدلياً بقواعد جديدة تحمل اسمه، وتدل على قوة شخصيته ورجاحة عقله، فبز أستاذه وعلا صوته على أقرانه الكوفيين، بفضل ثقافته المتنوعة، وميله إلى الاعتزال، وتأثره بطريقة علماء المعتزلة في التفكير وعلم الكلام فجاز فيه وصف الواصف بأنه «كبير العقل بجانب سعة الاطلاع، فهو بحر في اللغة، ونسيج وحده في النحو، حتى يلقب بأمير المؤمنين في النحو، وفقيه عالم باختلاف

---

(١) ضحى الإسلام: ٢/ ٣٠٧.

(٢) طبقات النحويين واللغويين: ٧٤، ومعجم الأدباء: ١١/ ٢٢٩، وبغية الوعاة: ٢٥٨.

(٣) إنباه الرواة: ٤/ ٨.

(٤) معاني القرآن: ١/ ٢٠٣.

الفقهاء... وهو إلى ذلك متكلم يميل إلى الاعتزال، قد اتخذه المأمون مربي أولاده، وكان الفرق بين الفراء والكسائي كالفرق بين المأمون والرشيد وكالفرق بين محافظة الرشيد وحرية العقل عند المأمون، وكالفرق بين الحركة العلمية الناشئة في عهد الرشيد، والناضجة في عهد المأمون»[1].

على أن كل ذلك لا يخرج الفراء من دائرة النحـو الكوفي، وصفوة ما يقال فيه أنه: «ليس بصرياً ولا بغدادياً، وإنما هو كوفي، بل إن المدرسة الكوفية في النحو لم يتم تشكلها إلا به وبآرائه ومقاييسه وما اعتمده من تفسير لبعض الظواهر اللغوية، وما وضعه من مصطلحات نحوية خالف بها مصطلحات البصريين، مما يجعله الإمام الحقيقي لهذه المدرسة.

وحقاً سبقه فيها أستاذه الكسائي، ولكن لم يكن له دقة عقله وغور ذهنه، بحيث يرسـي قواعد المدرسة ويرفع أركانها، وينبغي أن يستقر في الأذهان أن المدرسة الكوفية لا تباين المدرسة البصرية في الأركان العامة للنحو، فقد بنت نحوها على ما أحكمته البصرة من تلك الأركان، غير أنها مع اعتمادها لتلك الأركان استطاعت أن تشق لنفسها مذهباً نحوياً جديداً، له طوابعه وله أسسه»[2]، وليت شعري ماذا يمكن أن يبقى للنحو الكوفي إذا جعلنا الفراء في مدرسة أخرى؟

إن في كتابه (معاني القرآن) من المذهب الكوفي، ما يثبت كوفيته من غير شك، وفيه من آرائه المستقلة ما يدل على أنه رجل فذ جهد في أن يضيف جديداً، ويكون فاعلاً لا يكتفي بما أتى به الآخرون.

---

(١) ضحى الإسلام: ٢/٣٠٧.

(٢) المدارس النحوية: ١٥٨.

ومما ذهب فيه مذهب الكوفيين أن (كم) الخبرية جر تمييزها بـ (من) المحذوفة [1]، على حين يرى البصريون أنه جر بإضافة (كم) إلى التمييز[2]. ومن ذلك أيضاً أن المبتدأ المتلو بواو المعية يستغني عن خبره بمعنى الاقتران والصحبة[3] بينما يقدر البصريون له خبراً محذوفاً[4] كما يرى أن (هلاّ) تدخل على الجملة الإسمية. يقول: «وقوله: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[5] فيها – أي النار – ثلاثة أوجه أجودها الرفع، على الابتداء، فإن قلت: فما تقول في قول الشاعر:

الآن بعد لجاجتي تلحونني هلاَّ التقدمُ والقلوبُ صحاح

بم رفع التقدم؟ قلت: بمعنى الواو في قوله: (والقلوب صحاح) كأنه قال: العظة والقلوب فارغة، والرطب والحر الشديد، ثم أدخلت عليها هلا وهي على ما رفعتها ولو نصبت التقدم بنية فعل كما تقول: أتيتنا بأحاديث لا نعرفها فهلا أحاديث معروفة»[6].

ومما ذهب إليه الفراء وأخذ به الكوفيون أن الميم المفتوحة في لفظة (اللهم) أصلية، وهي بقية كلمة، أما البصريون فرأوا في هذه الميم عوضاً عن (يا) النداء التي لا تدخل عليها، وقد ردّ الفراء رأي البصريين بدخول الـ (يا) على لفظة (اللهم) في قول الراجز:

---

(١) معاني القرآن: ١/ ١٦٩.
(٢) الإنصاف: المسألة: ٤١.
(٣) معاني القرآن: ١/ ١٩٨.
(٤) الإنصاف: المسألة: ٣٠.
(٥) سورة الحج، من الآية: ٧٢.
(٦) معاني القرآن: ١/ ١٩٨ وجواب لو محذوف أي لجاز.

وما عليكِ أن تقولي كلما صليتِ أو سبحت يااللهمَّ ما
أُردُدْ علينا شيخنا مسلما [1]

والمبتدأ الذي خبره جملة – عند الكوفيين – يرفع بما يعود عليه من الضمير في جملة الخبر: «وقوله: ﴿يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾[2]، ترفع الطائفة بقوله (أهمتهم) بما رجع من ذكرها»[3]. والفراء على المذهب الكوفي أيضاً في جواز رفع الفعل المضارع ونصبه وجزمه بعد (إذا) الواقعة في جواب الشرط، والبصريون لا يرون الفعل في هذا الموضع إلا مجزوماً[4].

والكوفيون يجيزون إضافة الموصوف للصفة فيظهر ذلك في أسلوب الفراء حيث يقول: «أشهر الحرم»[5]، ويذهبون إلى أن الاسم والمصدر مشتقان من الفعل الذي هو أصل لهما [6] وأن (كلا وكلتا) مثنيان لفظاً ومعنى، على حين أنهما مثنيان معنى مفردان لفظاً عند البصريين[7]، وأن اسم (يكون) في الاستثناء ضمير الشأن المجهول، والبصريون يجعلون اسمه مقدراً يفهم من المقام[8].

---

(١) معاني القرآن: ١/ ٢٠٣، والإنصاف: المسألة: ٤٧.

(٢) سورة آل عمران، من الآية: ١٥٤.

(٣) معاني القرآن: ١/ ٢٤٠.

(٤) معاني القرآن: ١/ ٢٧٣ – ٢٧٤.

(٥) نفسه: ١/ ٢٩٩.

(٦) نفسه: ٢/ ١٥١، والإنصاف، المسألة: ٢٨.

(٧) معاني القرآن: ٢/ ١٤٢ – ١٤٣، والإنصاف: المسألة: ٦٢.

(٨) نفسه: ١/ ٣٦١.

ومن ذلك أيضاً أن جواب الشرط – عند الكوفيين – قد يتقدم على فعله فيستغني عنه هذا الأخير[1]، والبصريون لا يجيزون تقدمه على فعله ويرونه دليل الجواب[2]، وأن الجر غير جائز بحرف محذوف[3]، وأن المبتدأ والخبر يرفع كل منهما الآخر فهما مترافعان[4]، وأن الخبر الجامد يتحمل ضميراً يعود إلى المبتدأ[5] وأن عامل التقريب ينصب الاسم الواقع خبراً لمبتدأ بعد اسم الإشارة **(هذا)**[6].

ويتمسك الفراء بمذهب الكوفيين في جواز النصب بـ **(أن)** مضمرة ودليل هذا الجواز نصب **(أحضر)** بإضمار **(أن)** في قول الشاعر:

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى[7]

بينما يرويه البصريون بالرفع[8].

أ – المصطلحات الكوفية:

وفي **(معاني القرآن)** طائفة من المصطلحات النحوية الجديدة التي تميز بها مذهب الكوفيين، وكانت في مدار الجهود التي بذلها الكوفيون ليرسموا

---

(١) نفسه: ٢/٧.

(٢) الإنصاف: المسألة: ٨٧.

(٣) معاني القرآن: ٢/٢٢.

(٤) نفسه: ٢/٥٧.

(٥) معاني القرآن: ٢/١٢٦، والإنصاف: المسألة: ٧.

(٦) معاني القرآن: ١/١٢ – ٢/١٦٨.

(٧) معاني القرآن: ٣/٢٦٥.

(٨) الإنصاف، المسألة: ٧٧.

لنحوهم صورة متميزة واضحة القسمات والملامح، وكان لأبي زكريا الفراء الفضل الأكبر في وضع هذه المصطلحات والأسماء الجديدة، حيث رسخ الموجود منها ووضحه، وأضاف إليها شارحاً ومعللاً، فجعل لنحو الكوفة شكله المتفرد الأخير، ويمكن أن تعد هذه المحاولة من جملة المساعي التي نهض بها الكوفيون عامة لتجديد النحو، وسد الثغرات التي كانوا يرونها في صرح نحو البصريين، وليس لمجرد الخلاف عليهم، وحسبهم أنهم جدّوا، واجتهدوا، وقدموا ما بوسعهم، وللمجتهد المخطئ أجر، وللمصيب أجران.

ومن هذه المصطلحات **(المفسِّر)** ويريد به التمييز، يقول في الآية: ﴿**إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ**﴾[1]. «العرب توقع سفه على **(نفسه)** وهي معرفة، وكذلك قوله: ﴿**بطرت معيشتها**﴾[2]، وهي من المعرفة كالنكرة، لأنه مفسر، والمفسر في أكثر الكلام نكرة، كقولك: ضقت به ذرعاً.. فالفعل للذَّرع، لأنك تقول: ضاق ذرعي به، فلما جعلت الضيق مسنداً إليك فقلت: ضقت، جاء الذرع مفسراً لأن الضيق فيه، كما تقول: هو أوسعكم داراً»[3].

ثم هو لا يقف عند ذلك فيلجأ إلى تعليل تسمية التمييز مفسراً بقوله: «وقوله: ﴿**فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَباً**﴾[4]، نصبت الذهب لأنه مفسر لا يأتي مثله إلا نكرة، فخرج نصبه كنصب قولك: عندي عشرون درهماً، وإنما ينصب على خروجه من المقدار الذي تراه قد ذكر قبله، كقولك: عندي

---

(١) سورة البقرة، من الآية: ١٣٠.

(٢) سورة القصص، من الآية: ٥٨.

(٣) معاني القرآن: ١/ ٧٩ – ١٥٢ – ٢٥٦ – ٢/ ٣٣.

(٤) سورة آل عمران، من الآية: ٩١.

قدر قفيز دقيقاً، وقدر حملة تبناً... فهذه مقادير معروفة يخرج الذي بعدها مفسراً، لأنك ترى التفسير خارجاً من الوصف يدل على جنس المقدار من أي شيء هو، كما أنك إذا قلت: عندي عشرون فقد أخبرت عن عدد مجهول قد تم خبره، وجهل جنسه وبقي تفسيره، فصار هذا مفسراً عنه»[1].

والقَطْع إنما يعني به الحال كما هو واضح في تخريجه نصب (هدى) على الحال من قوله تعالى: ﴿ذلك الكتاب... هدى للمتقين﴾[2]، قائلاً: «فأما النصب في أحد الوجهين فأن تجعل (الكتاب) خبراً لـ (ذلك) فتنصب (هدى) على القطع لأن (هدى) نكرة اتصلت بمعرفة قد تم خبرها فنصبتها، لأن النكرة لا تكون دليلاً على معرفة، وإن شئت نصبت (هدى) على القطع من الهاء التي في (فيه)، كأنك قلت: لا شك فيه هادياً»[3]، وقد يريد بالقطع الوقف حيث يستخدمه بجانب الوصل [4]، وربما استخدم لفظ (الفِعْل) دليلاً على الحال[5].

وقد مرّ بنا كيف أنه أطلق مصطلح الصرف أو الخلاف وأراد به نصب المضارع بعد الواو والفاء وأو، وكذلك المفعول معه[6] لصرف هذه الحروف ما بعدها عمّا قبلها في المعنى، وشرطها أن يتقدمها نفي أو طلب[7]، والنصب

---

(١) معاني القرآن: ١/ ٢٢٥ – ٢٢٦.

(٢) سورة البقرة، من الآية: ٢.

(٣) معاني القرآن: ١/ ١٢ وينظر: ٢/ ٦.

(٤) نفسه: ٢/ ٣٥٤.

(٥) نفسه: ٣/ ١٤٦ – ١٤٧.

(٦) الإنصاف، المسألة: ٣٠.

(٧) معاني القرآن: ١/ ٣٣، وينظر: ٢/ ٢٦٣، والإنصاف، المسألة: ٧٥.

على الصرف يخرج معنى الثاني من الأول[1] والخلاف أيضاً ينصب الظرف الواقع خبراً[2].

والمنصوب على الفعل[3] أو المنصوب على مذهب حقاً[4] هو المفعول المطلق أو المنصوب على المصدرية، والفعل قد يراد به المصدر[5] وكأن الفراء يستعمل لفظة الفعل بمعناها الأصلي فيريد بها ما يحمل معنى الحدث لا الفعل المتعارف عليه والذي يدل على حدث مقترن بزمان. «وسمى المفعول لأجله في بعض المواضع تفسيراً... يقول تعليقاً على الآية الكريمة: ﴿**يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْـمَوْتِ**﴾[6]، نصب (حذر) على غير وقوع من الفعل عليه، لم يرد يجعلونها حذراً، إنما هو كقولك: أعطيتك خوفاً وفَرَقاً، فأنت لا تعطيه الخوف، وإنما تعطيه من أجل الخوف، فنَصْبُه على التفسير ليس بالفعل (أي ليس مفعولاً به) كقولـه عز وجل: ﴿**وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً**﴾[7]، وكقوله: ﴿**ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً**﴾[8]، وأكثر من تسمية البدل تكريراً وتبييناً وتفسيراً وترجمة[9]، وكأنـه بكل ذلك كان يريد أن يشـرح معناه، ويستخدم كلمة الإتباع كثيراً للدلالة على أن

---

(١) نفسه: ١/ ١١٥، وينظر: في المصطلح الكوفي المدارس النحوية: ١٩٨ – ٢٠٢.

(٢) الإنصاف، المسألة: ٢٩.

(٣) معاني القرآن: ٢/ ٣٢٤.

(٤) نفسه: ٢/ ٣٤٥ – ٣٧٢.

(٥) معاني القرآن: ٢/ ٢٧٤ – ٣٢٩ – ٤٠٤ – ٤١١ – ١/ ١٥٢.

(٦) سورة البقرة، من الآية: ١٩.

(٧) سورة الأنبياء، من الآية: ٩٠.

(٨) سورة الأعراف، من الآية: ٥٥، ومعاني القرآن: ١/ ١٧.

(٨) معاني القرآن: ١/ ٧ – ٥١ – ٥٦ – ١٩٢ – ٣٢٠ – ٣٤٨، وينظر: ٢/ ٥٨ – ٦٩ – ١٣٨ – ١٧٨ – ٢٧٣ – ٣٦٠.

الكلمة من التوابع ومثلها كلمة الرد[1]، وهو أول من اصطلح على تسمية العطف بالحروف: الواو وأخواتها باسم عطف النسق[2]، وكذلك هو أول من اصطلح على تسمية النعت باسمه[3] وكان سيبويه والبصريون يسمونه الصفة»[4].

والتوكيد يسميه تشديداً[5] وحرف الجر صفة، يقول في الآية: ﴿**وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ**﴾[6]، يعني في الرحم (ومستودع) في صلب الرجل. ويقرأ (فمستَقِرّ) يعني الولد في الرحم، (ومستودع) في صلب الرجل، ورفعها على إضمار الصفة، كقولك: رأيت الرجلين عاقل وأحمق، يريد منهما كذا وكذا»[7].

وربما أراد بالصفات الظروف وحروف الجر[8]، ولكن أغلب تسمية يطلقها على الظرف هي المحل[9] ولام التعليل هي لام الشرط[10] أو لام في جهة كي[11]، ولا النافية للجنس يسميها تبرئة[12]، والجَحْد اصطلاح يريد به

---

(١) نفسه: ١/ ١٧ – ٧٠ – ٨٢ -، وينظر: ٢/ ٩٧.
(٢) نفسه: ١/ ٤٤ – ٧٢ – وينظر: ٢/ ٧٠.
(٣) نفسه: ١/ ١١٢ – ١٩٨ – ٢٧٧، وينظر: ٢/ ١٤٥ – ٢٥٠ – ٣٦٤ – ٣٦٦
(٤) المدارس النحوية: ٢٠١ – ٢٠٢.
(٥) معاني القرآن: ١/ ١٨٦.
(٦) سورة الأنعام، من الآية: ٩٨.
(٧) معاني القرآن: ١/ ٣٤٧.
(٨) نفسه: ١/ ٣٢٢ – ٣٧٥.
(٩) نفسه: ١/ ١١٩.
(١٠) نفسه: ١/ ١١٣.
(١١) نفسه: ١/ ٣١٢.
(١٢) نفسه: ١/ ٤٤٠، وينظر: ١/ ١٢٠ – ٣/ ٨٤.

النفي[1]، وضمير الجحد هو ضمير النفي[2]، والخفض هو الجر[3]، والخافض حرف الجر، وإلقاء الخافض نزع الجار[4]، وربما سمى الأسماء ضمائر[5]، والضمير مكنياً[6]، وضمير الفصل عماداً[7]، وكذلك ضمير الشأن[8]، والاسم الجاري أو ما يجري هو الذي ينصرف، وغير الجاري أو ما لا يجري هو الممنوع من الصرف[9]، والشرط قد يعبّر عنه بالجزاء[10]، وإذا استخدم تسمية فعل لم يسم فاعله فإنه يريد به الفعل المبني للمجهول[11] وأما الفعل الواقع فهو الفعل المتعدي، والفعل الذي لا يقع[12]، هو اللازم «وقد سمى حروف الزيادة حشواً ولغواً وصلة»[13]، وجمع التكسير جمعاً لم يُبْنَ على واحده[14]، والنصب يعني الفتح[15] والرفع يراد به الضم[16]، والدلالات

---

(١) نفسه: ١/ ٥٢ – ٢/ ٤٩.

(٢) معاني القرآن: ١/ ١٤٠.

(٣) نفسه: ١/ ٥٩ – ٩٦ – ٩٧ – ١٠٧ – ١٩٦ – ٢/ ٥٨.

(٤) نفسه: ٢/ ٣.

(٥) نفسه: ١/ ٣١٣.

(٦) نفسه: ١/ ١٢٨.

(٧) نفسه: ١/ ٢٤٨ – ٥١ – ١٠٤ – ٢/ ٢١٢.

(٨) نفسه: ٢/ ٢٢٨ – ٢٨٧.

(٩) معاني القرآن: ١/ ٤٢ – ٤٣.

(١٠) نفسه: ١/ ٨٥ – ٩٢ – ٢/ ٢٠٠ – ٢٠٢.

(١١) نفسه: ١/ ١٠٢ – ١١٢ – ١١٤ – ١٤٦.

(١٢) نفسه: ٢/ ١٥٠.

(١٣) نفسه: ١/ ٥٨ – ١٧٦ – ٢٤٥ -، المدارس النحوية، ص: ٢٠١.

(١٤) نفسه: ١/ ١٣٠.

(١٥) معاني القرآن: ١/ ٩٨ – ٢٦٠ – ٢/ ٧٨.

(١٦) نفسه: ٢/ ١٤ – ٧٩.

البناء[1] وغير ذلك من المصطلحات التي خالف بها الكوفيون البصريين كالفعل المُصَرَّح[2] أي الاسم الصريح، والنون[3]، أي التنوين وأداة ليست مأخوذة من فعل أي فعل جامد[4]، والفعل المجزوم، والفعل المنصوب أي المضارع والماضي[5]**...** الخ.

ب – موقفه من النحاة:

كنت قد أشرت، في موضع سابق، إلى أن أبا زكريا عالم كبير له شخصية مستقلة حيث يلقي رأيه الحر في خضم آراء العلماء الجهابذة الأفذاذ، فهو ليس ممن يتلقون آراء الآخرين فيرددونها مكتفين بالنقل والرواية، ولو كان منهم لما استحق أن تؤلف فيه الكتب أو تقام حوله الدراسات، ولذلك لا ضير عليه أن يأخذ – حيناً – برأي البصريين، ويدفع ما ذهبوا إليه أحياناً، ولا غرابة أن نجده – وهو الكوفي – يثني على بعض الكوفيين، ويرد بعض أقوال أئمتهم، ليدلي برأي مخالف يختص به.

ومما وافق فيه البصريين ورأى رأيهم أن الضمير **(هم)** أصله **(هوم)** وهو جمع **(هو)** فحذفت الواو وزيدت الميم للجمع[6] ويستشهد بما يرويه سيبويه من الجر على المجاورة بقوله: «ومما يرويه نحويونا الأولون أن العرب تقول: **(هذا جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ)**»[7].

---

(١) نفسه: ٢/ ٨٥.
(٢) نفسه: ٢/ ٢٢٢.
(٣) نفسه: ٢/ ٢٢٦.
(٤) نفسه: ٢/ ٢٣٥.
(٥) نفسه: ٢/ ٢٥٨.
(٦) معاني القرآن: ١/ ٢٠٣.
(٧) نفسه: ٢/ ٧٤.

ولكنه يرد كثيراً من مذاهب البصريين كرده رأي الخليل وسيبويه في زيادة الميم في لفظة (اللهم) عوضاً عن (يا) النداء[1]، ورأيه: «أنها كلمة ضم إليها، (أُم) تريد: يا الله أمنا بخير، فكثرت في الكلام فاختلطت»[2]. وأن: «قول العرب: (هلم إلينا) مثلها، أنما كانت (هل) فضم إليها أم فتركت على نصبها»[3].

«ومن ذلك (لكن) ذهب البصريون إلى أنها بسيطة، وذهب الفراء إلى أن أصلها (أن) زيدت عليها لام وكاف، وطرحت الهمزة للتخفيف، كما زيدت عليها اللام والهاء في بعض اللغات، فأصبحت (لَهِنَّك)»[4].

ومن ذلك (كم) ذهب البصريون إلى أنها بسيطة موضوعة للعدد، بينما ذهب الفراء إلى أنها مركبة من الكاف وما، وكثرت في كلامهم، فحذفت الألف تخفيفاً وسكنت الميم[5].

ورأى الخليل أن علّة منع صرف (أشياء): «أنه حدث فيها قلب أتاح لها منع الصرف، وذهب الفراء إلى أنها جمعت على أَفْعِلاء مثل بَيِّن وأَبْيِناء، فأصبحت أشيِئَاء، وحذفت الهمزة من وسطها لكثرتها في الاستعمال، فأصبحت أشياء»[6].

---

(١) نفسه: ١/٢٠٣.

(٢) معاني القرآن: ١/٢٠٣.

(٣) نفسه: ١/٢٠٣.

(٤) نفسه: ١/٤٦٥، وانظر: المدارس النحوية: ٢٠٣، والإنصاف، المسألة: ٢٥.

(٥) معاني القرآن: ١/٤٦٦، وانظر: الإنصاف، المسألة: ٤٠، عن المدارس النحوية ص: ٢٠٣.

(٦) نفسه: ١/٣٢١، عن المدارس النحوية، ص: ٢٠٤.

وقد خطَّأ الفراء أبا عبيدة – في العربية دون التفسير – حيث عدّ (إلا) بمنزلة الواو في قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾[1]، قائلاً: «فهذا صواب في التفسير، خطأ في العربية، إنما تكون إلا بمنزلة الواو إذا عطفتها على استثناء قبلها، فهنالك تصير بمنزلة الواو، كقولك لي على فلان ألف إلا عشرة إلا مئة، تريد بـ (إلا) الثانية أن ترجع على الألف، كأنك أغفلت المئة فاستدركتها فقلت: اللهم إلا مئة، فالمعنى: له عليّ ألف ومئة، كما قال الشاعر:

ما بالمدينة دار غير واحدة　　　دار الخليفة إلا دارُ مروانا

كأنه أراد: ما بالمدينة دار إلا دار الخليفة ودار مروان»[2].

وقد أسلفت بأن الفراء شن على أبي عبيدة حملة شعواء فطعن بما جاء في مجازه، ووصفه بمن لا يعرف العربية.. وإذا نظرنا في موقفه من علماء الكوفة ونحاتها رأيناه يثني على شيخ الكوفيين أبي جعفر الرؤاسي كأن يقول: «وقد قرأها رجل من النحويين – وهو أبو جعفر الرؤاسي وكان رجلاً صالحاً – ﴿ألم أَللهُ﴾[3] بقطع الألف»[4]، أو يقول مشيداً بأمانته: «وزعم لي الرؤاسي

---

(١) سورة البقرة، من الآية: ١٥٠.

(٢) معاني القرآن: ١/٨٩ – ٩٠، وانظر: مذهب الكوفيين أن (إلا) تكون بمعنى الواو، والفراء لا يمانع في ذلك، ولكنه يرفض تفسير أبي عبيدة لأن (إلا) التي بمعنى الواو مشروطة عنده بما ورد في النص المقبوس. ينظر: الإنصاف، المسألة: ٣٥.

(٣) سورة آل عمران، الآيتان: ١-٢، والآيتان: الم، الله لا إله إلا هو الحي القيوم.

(٤) معاني القرآن: ١/٩.

وكان ثقة مأموناً»[1]. ولا يلتزم دائماً بما يذهب إليه أستاذه الكسائي، بل كثيراً ما يخالفه الرأي ليكون له رأي مستقل، أو يجوز ما ذهب إليه ثم يميل إلى وجه آخر، وقد يكون لطيفاً في ذلك كوقوفه على حركة (فيكون) من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[2]، وقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[3] قائلاً: «نصب لأنها – أي فيكون – مردودة على فعل قد نصب بأن، وأكثر القراء على رفعهما، والرفع صواب، وذلك أن تجعل الكلام مكتفياً عند قوله: (إذا أردنا أن نقول له كن) فقد تم الكلام، ثم قال: فسيكون ما أراد الله، وإنه لأحب الوجهين إليّ، وإن كان الكسائي لا يجيز الرفع فيهما ويذهب إلى النَّسَق»[4].

وقد يرد على الكسائي برأي متفرد، ويخالفه ويعلل سبب الخلاف تعليلاً حسناً، مستخدماً الحجة والدليل مما يدل على عمق نظر الفراء، يقول: «وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى﴾[5]، فإن رفع (الصابئين) على أنه عطف على (الذين)، و(الذين) حرف على جهة واحدة في رفعه ونصبه وخفضه، فلما كان إعرابه واحداً وكان نصب (إن) نصباً ضعيفاً... جاز رفع الصابئين، ولا أستحب أن أقول: إن عبد الله وزيد قائمان

---

(١) نفسه: ٣/ ٢٩٢.

(٢) سورة ياسين، الآية: ٨٢.

(٣) سورة النحل، الآية: ٤٠.

(٤) معاني القرآن: ١/ ٧٥. النسق: العطف عند الكوفيين.

(٥) سورة المائدة، من الآية: ٦٩.

لتبين الإعراب في عبد الله، وقد كان الكسائي يجيزه لضعف إن، وقد أنشدونا هذا البيت رفعاً ونصباً:

فمن يـك أمـسى بالمدينـة رحلـه فإنـــي وقيـــاراً بهـــا لغريـــب

وقيارٌ، ليس هذا بحجة للكسائي في إجازته (إن عمراً وزيد قائمان) لأن قياراً قد عطف على اسم مكني عنه، والمكني لا إعراب له فسهل ذلك فيه كما سهل في (الذين) إذا عطفت عليه (الصابئون) وهذا أقوى في الجواز من (الصابئون) لأن المكني لا يتبين فيه الرفع في حال، و (الذين) قد يقال: اللذون فيرفع في حال»[1].

وقد يعنف عليه أكثر من ذلك فيقول: «وليس يدخل على الكسائي ما أدخل على نفسه»[2]. وربما شك في علمه بتفسير بعض الآيات[3]، أو خطأه في رأيه[4] وقد كنت ذكرت طرفاً من انتقاده لبعض القراءات المأثورة والقراء المشهود لهم، ومنهم (حمزة الزيات) قارئ الكوفة الذي انتقده الفراء بقلة البصر بمجاري كلام العرب [5] كما رفض ما قاله نحويو الحجاز لعدم وجود ما يماثله في العربية[6].

---

(١) معاني القرآن: ١/ ٣١١.

(٢) نفسه: ١/ ٣٢.

(٣) معاني القرآن: ١/ ٤١٩.

(٤) نفسه: ١/ ٤٧١، وينظر: في خلافه الكسائي: ١/ ٥٦ – ٥٧ – ٢٦٨ – ٤٢٢ – ٢/ ١٠١ – ١٣٢ – ١٥٢ – ٢٣٦ – ٢٧٧ – ٣٩٨ – ٣/ ٣٩٩.

(٥) معاني القرآن: ٣/ ٢٦٦.

(٦) نفسه: ١/ ٣٥٨.

وهو في أحيان أخرى يرد أقوال النحويين من غير أن يسميهم[1] أو يكتفي بقوله: (وقد زعم قوم)[2].

ويبدو الجانب النحوي أغلب الجوانب في (معاني القرآن) وهذا أمر طبيعي من إمام نحاة الكوفة، وتتجلى قوة شخصيته في إجازته ما لم يجزه النحويون[3]، وتفرده عن النحاة برأي خاص مثل: «الرفع في الأسماء المعرفة أكثر من النصب بعد ضمير العماد»[4]، واتساعه في النحو بعرضه أكثر من وجه نحوي للكلمة الواحدة وإجازتها جميعاً بالدليل والتعليل[5] أو إجازة بعضها وتفضيل أحد الوجوه بقوله: «وهو أحب الوجوه إليَّ»[6]، وهو في كل ذلك ذو رأي دقيق كرأيه في عدم جواز تعريف (كافة) والرد على من رآها مثل (جميع) التي تُعرَّف ولا تُعرَّف بأن (جميع) في مذهبين: مصدر، واسم[7]، وقد أفاده النحو في مناقشة ما ورد في مأثور التفسير فاستخدم علمه به فكانت قواعد النحو مقياسه في قبوله أو رده[8]، وكثيراً ما أفرد الحديث لقضايا النحو لا التفسير[9] ليخرج بقاعدة عامة يقرها.

---

(١) نفسه: ١/ ٨٠ – ١٧١.

(٢) نفسه: ٢/ ٣٩٧.

(٣) معاني القرآن: ١/ ٣٠٧.

(٤) نفسه: ٢/ ٣٥٢.

(٥) نفسه: ١/ ٣٠٩ – ٣٤٨ – ٣١٦ - ٤٢٦.

(٦) نفسه: ٢/ ١٤٠ – ٢٣٠.

(٧) نفسه: ١/ ٤٣٦، وينظر: ٣/ ٢١٥.

(٨) نفسه: ٣/ ٢١٧ – ٢٤٦.

(٩) نفسه: ٣/ ٢٥٨ – ٢٦٤.

جـ - الإعراب بين اللفظ والمعنى:

الإعراب في اللغة إبانة وإفصاح عن معاني الألفاظ، وما الحركات الإعرابية إلا دلائل على تلك المعاني ووسائل إليها، ولم يوجد علم النحو إلا لضبط معاني الكلم التي تتحدد بالحركات من خلال موقع اللفظة في الكلام، ولذلك فإن اهتمام النحوي بالألفاظ وحركاتها دون ما تؤدي إليه من معان، وحكمه عليها وعلى إعرابها من خلال هذا يدل على قصور في الرؤية، وفساد في الحكم، فالنحوي (الذي يخرج وجهاً من وجوه الإعراب غير مراع إصابة المعنى المقصود هو نحوي لم يفهم صنعته، ولم يتمثل الغاية من علمه، يؤيدنا في ذلك عدد من أذكياء النحاة كأبي سعيد السيرافي الذي يثور على متَّى – في المناظرة المشهورة – لأنه قال: إن النحو يبحث عن اللفظ دون المعنى، وإن النحوي إذا مرّ بالمعنى فبالعَرَض، وأنه يكفيه – وهو المنطقي - أن يعرف الاسم والفعل والحرف ليعرف اللغة ونحوها... فيرد أبو سعيد عليه ويسفه رأيه ويقول له: «إنك في هذا الاسم والفعل والحرف فقير إلى وصفها وبنائها على الترتيب الواقع في غرائز أهلها، وكذلك أنت محتاج بعد إلى الحركات فيها لأن الخطأ والتحريف في الحركات كالخطأ والفساد في المتحركات». بل يقول بعبارة أوضح: «إن معاني النحو مقسمة بين حركات اللفظ وسكناته، وبين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها، وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير وتوخي الصواب في ذلك وتجنب الخطأ»)[1].

---

(١) النحو العربي: ١٦٠ – ١٦١.

وأبو زكريا الفراء من أذكياء النحاة، لأنه كان يضع نصب عينيه معنى الألفاظ حين يقدر إعرابها ويحكم به، وقاعدته التي يسير عليها هي أن المعنى أساس توجيه الإعراب، وأن المعنى والإعراب متطابقان، وها هو يبين علة رفع **(أي)** بـ **(أحصى)** على هذا الأساس مع امتناع وقوع الفعل الذي قبلها عليها في قوله تعالى: ﴿**لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى**﴾[1]، قائلاً: «رفعته بأحصى، وتقول إذا كان الفعل واقعاً على أي: ما أدري أيهم ضربت، وإنما امتنعت من أن توقع على أي الفعل الذي قبلها من العلم وأشباهه، لأنك تجد الفعل غير واقع على أي في المعنى، ألا ترى أنك إذا قلت: اذهب فاعلم أيهما قام أنك تسأل غيرهما عن حالهما فتجد الفعل واقعاً على الذي أعلمك، كما أنك تقول: سل أيهم قام، والمعنى: سل الناس أيهم قام... فكذلك **(أي)** إذا أوقعت عليها الفعل خرجت من معنى الاستفهام»[2]. ويبدو ذا حس نحوي مرهف بتمييز معاني الكلام وتشقيق وجوه إعرابها بحسب هذه المعاني، يقول: «وأما قوله: ﴿**وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ**﴾[3] فلا يكون – كل – إلا رفعاً، لأن المعنى – والله أعلم – كل فعلهم في الزبر مكتوب، فهو مرفوع بفي و **(فعلوه)** صلة لشيء، ولو كانت **(في)** صلة لفعلوه في مثل هذا من الكلام جاز رفع كل ونصبها، كما تقول: وكل رجل ضربوه في الدار، فإن أردت ضربوا كل رجل في الدار رفعت ونصبت وإن أردت: وكل من ضربوه هو في الدار رفعت»[4].

---

(١) سورة الكهف، من الآية: ١٢.

(٢) معاني القرآن: ١/ ٤٧.

(٣) سورة القمر، الآية: ٥٢.

(٤) معاني القرآن: ٢/ ٩٥ – ٩٦.

وجواز وجه إعرابي ومنعه قائم على صحة معناه في الموقع الذي هو فيه، يقول: «وقوله: ﴿وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾[1] رفع لا غير، لأن المعنى: وترضى كل واحدة، ولا يجوز أن تجعل (كلهن) نعتاً للهاء في الإيتاء، لأنه لا معنى له ألا ترى أنك تقول: لأكرمن القوم ما أكرموني أجمعين، وليس كقولك (أجمعون) معنى، ولو كان له معنى لجاز نصبه»[2].

ولا غرو، بعد هذا، أن يميز الفراء بين المواقع النحوية للكلام والمواقع الدلالية، مما يمنح اللغة سعة في التعبير، ومن ذلك إدراكه في قول العرب: عجبت من تساقط البيوت بعضها على بعض، أن رفع بعضها جائز لإتباعها البيوت في المعنى، لا اللفظ، لأن معناها الفاعلية، والخفض جائز مراعاة للفظ البيوت يقول: «عجبت من تساقط البيوت بعضُها على بعض، وبعضِها على بعض، فمن رفع رد البعض إلى تأويل البيوت، لأنها رفع ألا ترى أن المعنى: عجبت من أن تساقطت بعضُها على بعض، ومن خفض أجراه على لفظ البيوت، كأنه قال: من تساقط بعضها على بعض»[3].

ومن ذلك تعليله نصب الشمس والقمر عطفاً على الليل المنصوب في المعنى من الآية: ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً﴾[4]، قال:

---

(١) سورة الأحزاب، من الآية: ٥١.

(٢) معاني القرآن: ٢/ ٣٤٦.

(٣) معاني القرآن: ١/ ٩٦.

(٤) سورة الأنعام، من الآية: ٩٦. أتى الفراء بالآية هكذا (وجاعلُ الليل سكناً...) على إحدى القراءات ليدلل على جرَ الليل باللفظ، والنصب بالمعنى على أنه مفعول به لاسم الفاعل حملاً على المعنى، والعطف عليه على النصب.

«الليل في موضع نصب في المعنى، فرد الشمس والقمر على معناه لما فرق بينهما بقولـه: (سكنا) فإذا لم تفرق بينهما بشيء آثروا الخفض، وقد يجوز أن ينصب وإن لم يُحَلْ بينهما بشيء»[1].

ولعل شهادة أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب في الفراء، مما يحسن ذكره في هذا الموضع تأييـداً لهذا الكـلام، قال: «العرب تخرج الإعراب على اللفظ دون المعاني، ولا يفسد الإعراب المعنى، فإذا كان الإعراب يفسد المعنى فليس من كلام العرب، وإنما صح قول الفراء لأنه عمل العربية والنحو على كلام العرب، فقال: كل مسألة وافق إعرابها معناها، ومعناها اعرابها فهو الصحيح، وإنما لحق سيبويه الغلط لأنه عمل كلام العرب على المعاني، وخلى عن الألفاظ، ولم يوجد في كلام العرب ولا أشعار الفحول إلا ما المعنى فيه مطابق للإعراب، والإعراب مطابق للمعنى، وما نقله هشام (بن معاوية الضرير) عن الكسائي فلا مطعن فيه، وما قاسه قد لحظه الغمز، لأنه سلك بعض سبيل سيبويه، فعمل العربية على المعاني، وترك الألفاظ، والفراء حمل العربية على الألفاظ والمعاني فبرع، واستحق التقدمة، وذلك قولك: (مات زيد)، فلو عاملت المعنى لوجب أن تقول: (مات زيداً) لأن الله هو الذي أماته، ولكنك عاملت اللفظ، فأردت: سكنت حركات زيد»[2].

والفراء بمثاله (مات زيد) وبما أوردته قبله من كتابه المعاني ميز –بلا شك– بين الموقع النحوي والموقع الدلالي للكلام، مما يتصل ببعض جوانب علم

---

(١) معاني القرآن: ١/ ٣٤٦.

(٢) طبقات النحويين واللغويين: ١٤٣ – ١٤٤، وإنباه الرواة: ٤/ ٢-٣.

اللسانيات الحديث، وهذا يدل على عمق فكره النحوي، وأنه رجل فذ يضرب بسهم في هذا العلم ويتصل بالجهود التي يصرفها علماء اللغة المعاصرون في هذا الميدان، ومن ثمَّ يستحق أن يسجل له هذا الفضل قبل ابن يعيش المتوفى سنة **(٦٤ هـ)** بما يزيد على أربعة قرون[1]، ويستأهل أن ينال اهتمام دارسي تراثنا اللغوي من أجل بناء نظرية لسانية عربية.

(١) ينظر مقال: **(**أزمة اللسانيات واللسانيين في الوطن العربي**)** للدكتور مازن الوعر، ص: ٦٥ – ٦٧ في مجلة المعرفة السورية العدد: ٢٥١ لعام ١٩٨٣، وفيه إشادة بعبقرية ابن يعيش لتمييزه بين الموقع النحوي والموقع الدلالي للكلام، دون الإشارة إلى فضل الفراء الذي سبقه بأكثر من أربعة قرون.

الفصل الخامس

طريقته في عرض الكتاب

لقد ذكرت من قبل أن طريقة الفراء العامة في كتابه هي تناول ما يراه مشكلاً في القرآن، ولهذا لم يفسر القرآن كله، ولكن الوهم تسرب إلى الدكتور محمد زغلول سلام حين ذكر أن الفراء: **(يتعرض لآيات كل سورة آية آية بالترتيب – فلم يقتصر على الغريب كما فعل أبو عبيدة – شارحاً ومفسراً لغريب الألفاظ)**[1]، ذلك أن الفراء لم يفسر القرآن كاملاً، وإنما فسر ما رآه مشكلاً من آياته بدءاً من الفاتحة وانتهاء بسورة الناس[2]، وحتى في الآية التي يقف عليها قد لا يتناول منها إلا كلمة واحدة يفصِّل فيها القول ويدع بقية الكلمات لأنه لا يرى فيها إشكالاً[3].

---

(١) أثر القرآن في تطور النقد العربي، ص: ٤٩.

(٢) ينظر مثلاً: تجاوز الفراء الآيات ٣ – ٤ – ٥ – ٦ – من سورة البقرة: ١/١٣، والآيات: ٨ – ٩ – ١٠ – ١١ – ١٢ – ١٣ – ١٤ – ١٥ من السورة نفسها ١/١٤، والآيات: ٢٣ – ٢٤ – ٢٥ – ٢٦ – ٢٧ – من سورة الطور: ٣/٩٣ وغيرها كثير.

(٣) ينظر مثلاً سورة البقرة آية ١٥٨ – ١/٩٥، وآل عمران آية: ٩٩ – ١/٢٢٧

وتجدر الإشارة إلى أن الآيات ضمن السورة الواحدة، وفي مواضع كثيرة من كتاب المعاني، لم ترد على ترتيبها في التنزيل كما ورد في نص الدكتور سلام، إذ كثيراً ما نلحظ آية تتقدم على موضعها[1] وأخرى تتأخر عنه[2] وإن كنت أرجح أن هذا التقديم والتأخير في تسلسل الآيات مرده إلى الناسخ، ودليل هذا الترجيح أن آية واحدة قد تأتي في قسمين لتفصل بينهما آية أخرى[3] ولكن هذا لا ينفي أن الفراء كان يقف على الآية الواحدة غير مرة ليتناول في كل موضع جانباً من الآية لم يتناوله في الموضع الآخر، ففي قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾[4] يقف على كلمة (موليها) فيقول: «يعني قبلة هو موليها: مستقبلها، الفعل لكل، يريد: مول وجهه إليها، والتولية في هذا الموضع إقبال، وفي: ﴿يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾[5] ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾[6] انصراف، وهو كقولك في الكلام: اِنصَرِفْ إليَّ، أو أَقبِلْ إليَّ، وانصرف إلى أهلك، أي اذهب إلى أهلك، وقد قرأ ابن عباس وغيره: ﴿هو مولاَّها﴾ وكذلك قرأ أبو جعفر محمد بن علي، فجعل الفعل واقعاً عليه، والمعنى واحد والله أعلم»[7]. ثم لا يلبث أن يعود إلى الآية نفسها، ولكن ليفسر

---

(١) ينظر مثلاً سورة البقرة آية: ٣٦ – ١ / ٣١، وسورة إبراهيم آية: ٨٥ – ٢ / ٩١.

(٢) ينظر مثلاً سورة مريم آية: ٧٧ – ٢ / ١٧٢، وسورة ياسين الآيات: ٣٧ – ٤١ – ٦١ في معاني القرآن: ٢ / ٣٧٨ – ٣٧٩ – ٣٨١.

(٣) ينظر مثلاً: سورة المائدة آية: ٤٥ – ١ / ٣٠٩ – ٣١٠، ثم في الصفحة: ٣١٢ حيث تخللتها الآية: ٦٩ – ١ / ٣١٠ – ٣١١ – ٣١٢.

(٤) سورة البقرة، من الآية: ١٤٨.

(٥) سورة آل عمران، من الآية: ١١١.

(٦) سورة التوبة، من الآية: ٢٥.

(٧) معاني القرآن: ١ / ٨٥.

كلمة (وجهة) قائلاً: «العرب تقول: هذا أمر ليس له وِجْهة، وليس له جهة، وليس له وَجْه، وسمعتهم يقولون: وَجِّه الحجر، جهة ما له، ووجهة ما له، ووجـه ما له. ويقولون: ضعه غير هذه الوضعة، والضِّعَة، والضَّعَة، ومعناه: وجه الحجر فله جهة، وهو مَثَل، أصله في البناء يقولون: إذا رأيت الحجر في البنـاء لم يقع موقعه فأدِرْه فإنك ستقع على جهته، ولـو نصبوا على قوله: وجهه جهة لكان صواباً»[1].

ومن طريقته في العرض أنه قد يعرج على بعض مفردات الشاهد الذي يسوقه، فيشرحها زيادة في الإيضاح[2].

وإذا كنت قد تناولت منهج أبي زكريا في التفسير، والقراءات، واللغة، والصرف، والبلاغة، والنحو كلاً على حدة، فلا يعني ذلك أن حدوداً فاصلة تقوم بين هذه العلوم في كتابه.

وقد بينت أن الدراسات المبكرة، وإن كانت تميز بين الدراسات اللغوية وغير اللغوية، إلا أنها لم تكن تفصل بين ألوان الدراسات اللغوية عامة كما صار عليه الأمر في القرون التالية حيث وصلتنا كتب خاصة باللغة، وأخرى بالنحو، وثالثة بالبلاغة... وكتاب الفراء (معاني القرآن) من الكتب المبكرة نسبياً، ولذا فلا غرابة ألا يختص بنوع واحد من فروع الدراسات اللغوية، شأنه شأن الكتب الأخرى التي ظهرت معه أو تقدمته، «ففيها روايات في القراءات، ومعاني القرآن، ونوادر أدبية، وغرائب ألفاظ، وأقوال نحوية منثورة... وخير مثال لهذا

---

(١) معاني القرآن: ١/ ٩٠.

(٢) سورة المعارج: (سأل سائل) من الآية: ٤٣، ومعاني القرآن: ٣/ ١٨٦. وسورة المزمل، من الآية: ١٤، معاني القرآن: ٣/ ١٩٨.

كتاب معاني القرآن للفراء»[1]، ومن الطبيعي أن تكون هذه العلوم جنباً إلى جنب في مواضع كثيرة من الكتاب.

فهو في بعض الأحيان يقف على آية ليفسرها فيمزج التفسير بالإعراب، ويوجه القراءات توجيهاً نحوياً معللاً وجوهها يقول في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾[2]: «إن شئت رفعت (البر) وجعلت (أن تولوا) في موضع نصب، وإن شئت نصبته وجعلت (أن تولوا) في موضع رفع كما قال: فكان عاقبتهما أنهما في النار[3] في كثير من القرآن، وفي إحدى القراءتين (ليس البر بأن) فلذلك اخترنا الرفع في (البر) والمعنى في قوله: ﴿ليس البر بأن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾، أي ليس البر كله في توجيهكم إلى الصلاة واختلاف القبلتين، ولكن البر من آمن بالله، ثم وصف ما وصف إلى آخر الآية، وهي من صفات الأنبياء لا لغيرهم»[4].

وقد يجتمع عنده في آية واحدة ما يتعلق بالتفسير والصرف معاً كما في قوله تعالى: ﴿تشابهت قلوبهم﴾[5] يقول: «تشابهت قلوبهم في اتفاقهم على الكفر، فجعله اشتباهاً، ولا يجوز تشَّابهت بالتثقيل، لأنه لا يستقيم دخول تاءين زائدتين في تفاعلت ولا في أشباهها، وإنما يجوز الإدغام إذا قلت في الاستقبال: تتشابه، فتدغم التاء الثانية عند الشين»[6].

---

(١) مدرسة الكوفة: ١٦٣.

(٢) سورة البقرة، من الآية: ١٧٧.

(٣) سورة الحشر، من الآية: ١٧.

(٤) معاني القرآن: ١/ ١٠٣ – ١٠٥.

(٥) سورة البقرة، من الآية: ١١٨.

(٦) معاني القرآن: ١/ ٧٥.

ثم نجد اللغة تختلط بالنحو في غير ما موضع من الكتاب من مثل ما يجيء في قولـه تعالى: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾[1]: «يقال للرجل: هو ألد من قومٍ لُدّ، والمرأة لدّاء، ونسوة لُدّ»، وقال الشاعر:

اللُّـــدُّ أقـــرانُ الرجـــالِ اللُّـــدِّ ثـــم أردِّي بهـــم مَـــنْ يَـــرْدي

ويقال: ما كنتَ ألدَّ فقد لَددْتَ، وأنت تَلَدّ.. فإذا غلبت الرجل في الخصومة قلت: (لَددْته) فأنا ألدُّه لَدًّا.

وقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَيُهْلِكَ الْـحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾[2]، نصبت، ومنهم من يرفع (ويهلك) رَفَعَ لا يرده على (ليفسد) ولكنه يجعله مردوداً على قوله: ومن الناس من يعجبك قوله –ويهلك– والوجه الأول أحسن[3].

كما يختلط التفسير بالإعراب واللغة في مواضع أخرى من الكتاب كما في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْـحُرُّ بِالْـحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾[4]، يقول الفراء: (فإنه نزل في حيين من العرب كان لأحدهما طول على الآخر في الكثرة والشرف، فكانوا يتزوجون نساءهم بغير مهور، فقتل الأوضع من الحيين من الشريف قتلى، فأقسم الشريف ليقتلن الذكر بالأنثى والحر بالعبد وأن يضاعفوا الجراحات، فأنزل الله تبارك وتعالى هذا على نبيه، ثم نسخه بقولـه: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾[5] إلى آخر الآية، فالأولى

(١) سورة البقرة، من الآية: ٢٠٤، معاني القرآن: ١/ ٧٥.
(٢) سورة البقرة، من الآية: ٢٠٥.
(٣) معاني القرآن: ١/ ١٢٣ – ١٢٤.
(٤) سورة المائدة، من الآية: ٤٥.
(٥) سورة المائدة، من الآية: ٩٥.

منسوخة لا يحكم بها». وأما قوله: ﴿فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان﴾ فإنه رفع، وهو بمنزلة الأمر في الظاهر، كما تقول: من لقي العدو فصبراً واحتساباً، فهذا نصب، ورفعه جائز، وقوله تبارك وتعالى: (فاتباع بالمعروف) رفع، ونصبه جائز، وإنما كان الرفع فيه وجه الكلام، لأنها عامة فيمن فعل ويراد بها من لم يفعل، فكأنه قال: فالأمر فيها على هذا، فيرفع، وينصب الفعل إذا كان أمراً عند الشيء يقع ليس بدائم، مثل قولك للرجل: إذا أخذت في عملك فجِدّاً جدّاً وسيراً سيراً، نصبت لأنك لم تنو به العموم فيصير كالشيء الواجب على من أتاه وفعله ومثله قوله: (ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم) ومثله: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾[1]، ومثله في القرآن كثير، رفع كله، لأنها عامة فكأنه قال: من فعل هذا فعليه هذا.

وقد يتوسع الأمر أكثر مما مضى عند الفراء، لنرى القراءة واللغة والنحو والبلاغة والتفسير تختلط عنده جميعاً في بعض الآيات كما في قوله تعالى: ﴿الرَّضاعة﴾[2]، قال الفراء: «تقرأ بفتح الراء، وزعم الكسائي أن من العرب من يقول: الرضاعة بالكسر، فإن كانت هي بمنزلة الوِكالة والوَكالة والدِّلالة والدَّلالة، ومهرت الشيء مِهارة، ومَهارة، والرَّضاع والرِّضاع فيه مثل ذلك إلا أن فتح الراء أكثر، ومثله الحِصاد والحَصاد... وقوله: ﴿لا تضارَّ والدة بولدها﴾ يريد: لا تضارَرْ، وهو في موضع جزم[3]. والكسر فيه جائز (لا تضارِّ والدة) ولا

---

(١) سورة البقرة، من الآية: ٢٣٩.

(٢) سورة البقرة، من الآية: ٢٣٣، والآية: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ...﴾.

(٣) يريد بالجزم هنا، النهي، وهو من أغراض الإنشاء.

يجوز رفع الراء على نية الجزم، ولكن ترفعه على الخبر[1]. وأما قوله: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾[2]، فقد يجوز أن يكون رفعاً على نية الجزم، لأن الراء الأولى مرفوعة في الأصل، فجاز رفع الثانية عليها، ولم يجز (لا تضارُّ) بالرفع لأن الراء إن كانت تفاعَل فهي مفتوحة، وإن كانت تفاعِل فهي مكسورة، فليس يأتيها الرفع إلا أن تكون في معنى رفع... وقد قرأ عمر بن الخطاب: ﴿ولا يضارَرْ كاتب ولا شهيد﴾.

ومعنى (لا تضارَّ والدة بولدها) يقول: لا يُنْزَعَنَّ ولدها منها وهي صحيحة لها لبن فيدفع إلى غيرها. (ولا مولود له بولده) يعني الزوج، يقول: «إذا أرضعت صبيَّها وألِفها وعرفها فلا تضارَّنَّ الزوج في دفع ولده إليه»[3].

وقد كنت أشرت إلى أن أسلوب الفراء في عرض الآراء وحشد المعلومات واضح عامة لمن يقرأ كتابه (معاني القرآن)، وأنه كثيراً ما جرى في سرد أفكاره ومذاهبه على طريقة الفنقلة أي: إنْ قلتَ قلتُ، ليسد جميع المنافذ التي يمكن أن يتسلل منها الآخرون، ليطعنوا بما يعرضه ويذهب إليه[4].

والفراء شأنه شأن المتقدمين، عبارته موجزة، ومن وجوه وجازتها حذف جواب شرط الجملة للعلم به كأن يقول: «وقوله: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾[5]،

---

(١) الخبر هنا عكس الإنشاء لا خبر المبتدأ.

(٢) سورة آل عمران، من الآية: ١٢٠.

(٣) معاني القرآن: ١/ ١٤٩ – ١٥٠.

(٤) معاني القرآن: ١/ ٣٦ – ٤١ – ٥٩ – ٦٠ – ٦١ – ١٨٥ – ١٩٤ – ١٩٥.

(٥) سورة البقرة، من الآية: ١٩٦.

(ما) في موضع رفع، لأن أكثر ما جاء من أشباهه في القرآن مرفوع، ولو نصبت على قولك: أهدوا (ما استيسر)[1]، فجواب لو هنا محذوف تقديره لجاز.

غير أن أسلوبه في أحيان أخرى، قد يكون صعباً فهمه حيث يلجأ إلى تكثيف الكلام، واستخدام مصطلح النحو الكوفي فيحتاج القارئ إلى كثير من التأمل وإنعام النظر، والدربة على أساليب القدماء والتمرس بها، والدراية بمعاني مصطلح النحو الكوفي الذي يستعمله، مما عرضت له في موضع سابق[2]، يقول: «وقوله: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ﴾[3]، وهي في قراءة عبد الله: فكان عاقبتهما أنهما خالدان في النار. وفي قراءتنا[4]: (خالدين فيها) نصب، ولا أشتهي الرفع، وإن كان يجوز، وذلك أن الصفة قد عادت على النار مرتين، والمعنى للخلود، فإذا رأيت الفعل بين صفتين قد عادت إحداهما على موضع الأخرى نصبت الفعل، فهذا من ذلك، ومثله في الكلام قولك: مررت برجل على بابه متحملاً به، ومثله قول الشاعر:

والزعفران على ترائبها ... شرقاً به اللباتُ والنَّحْرُ

---

(١) معاني القرآن: ١/ ١١٨.

(٢) ينظر: مذهبه النحوي، من هذا الكتاب.

(٣) سورة الحشر، من الآية: ١٧.

(٤) وجاء في البحر المحيط: ٨/ ٢٥٠: «والجمهور خالدين بالياء حالاً، وفي النار خبر أنّ، وعبد الله وزيد بن علي والأعمش وابن أبي عبلة بالألف، فجاز أن يكون خبر أنّ والظرف ملغى، وإن كان قد أكد بقوله: فيها، وذلك جائز على مذهب سيبويه، ومنع ذلك أهل الكوفة لأنه إذا أكد عندهم لا يُلغى ويجوز أن يكون في النار خبراً لأنّ، وخالدين خبر ثان فلا يكون فيه حجة على مذهب سيبويه».

لأن الترائب هي اللبات ها هنا، فعادت الصفة باسمها الذي وقعت عليه أولاً، فإذا اختلفت الصفتان: جاز الرفع والنصب على حسن، ومن ذلك قولك: عبد الله في الدار راغب فيك، ألا ترى أن (في) التي في الدار مخالفة (لفي) التي تكون في الرغبة والحجة ما يعرف به النصب من الرفع، ألا ترى الصفة الآخرة تتقدم قبل الأولى، إلا أنك تقول: هذا أخوك في يده درهم لم يجز.. وأنت تقول: هذا رجل في يده درهم قائم إلى زيد، ألا ترى أنك تقول: هذا رجل قائم إلى زيد في يده درهم، فهذا يدل على المنصوب إذا امتنع تقديم الآخر، ويدل على الرفع إذا سهل تقديم الآخر»[1].

فلو لم يعرف القارئ أساليب القدماء، وأن الفراء يريد بالفعل الحال وبالصفة الجار أو الجار والمجرور لاستغلق عليه فهم النص، فما درى قصد صاحبه منه.

ولكنه، مع ذلك، قد يطيل في الشرح ويسهب في الوقوف على آية واحدة ليقلب ما فيها من مسائل مختلفة ربما استغرقت منه عدة صفحات[2]، وقد لايتوقف عند شرح المفردة الواردة في الآية فيستطرد إلى معانيها المتنوعة ولغاتها كما وردت في القرآن وكلام العرب، ومن ذلك شرحه لمعنى (أحس) وما تفرع عنها من أفعال في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾[3]، قال: «يقول: وَجَد عيسى، والإحساس: الوجود، تقول في الكلام: هل أحسست أحداً.. فإذا

(١) معاني القرآن: ٣/ ١٤٦ – ١٤٧، وينظر كذلك نفسه: ١/ ١٠٤.

(٢) سورة البقرة، من الآية: ١٧٧ – معاني القرآن: ١/ ١٠٣ – ١٠٨.

(٣) سورة آل عمران، من الآية: ٥٢.

قلت: حَسَسْت، بغير ألف فهي في معنى الإفناء والقتل، من قول الله عز وجل: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾[1] والحَسّ أيضاً: العطف والرقة، كقول الكميت:

هل مَن بكى الدار راج أن تُحِسَّ لـه أو يبكي الدارَ ماءُ العبـرةِ الخَضِلُ

وسمعت بعض العرب يقول: ما رأيت عقيلياً إلا حَسَسْتُ له، وحَسِسْتُ لغة. والعرب تقول: من أين حسَيْتَ هذا الخبر؟ يريدون: من أين تخبَّرَته؟ وربما قالوا: حَسِيتُ بالخبر وأحسيت به، يبدلون من السين ياء، كقول أبي زبيد:

حَسِينَ بـــه فهن إليـــه شـــوس...»[2].

ويكون التوسع أكبر والاستطراد أوسع من ذلك حين يتعلق الأمر بمسألة تتصل بالصرف أو النحو كما في استطراده في شرح أحوال اسم الزمان والمكان والمصدر[3] ووقوفه على أحوال حتى[4] الإعرابية وصلتها بما بعدها.

---

(١) سورة آل عمران، من الآية: ١٥٢.

(٢) معاني القرآن: ١/ ٢١٦ – ٢١٧.

(٣) نفسه: ٢/ ١٤٨ – ١٥٣.

(٤) نفسه: ١/ ١٣٢ – ١٣٨.

الخاتمة

وبعد، فأبو زكريا الفراء عالم فذ من علماء العربية ، وقف حياته على العلم وخدمة العربية، فاختلف إلى حلقات الشيوخ وزود نفسه من علومهم وكان له، فيما بعد، تلامذة نهلوا من معارفه التي غلب عليها التمكن من علوم العربية وعلوم الدين، فكانت مؤلفاته تدور في هذين المحورين، واستطاع أن ينال تقدير العلماء وأولي الأمر من الخلفاء والأمراء، فشُهِد له بسعة العلم، واتصل بالخليفة المأمون الذي جعله مؤدباً لولديه، وهيأ له الجو المناسب للبحث والتأليف.

وقد ألف الفراء كتاب **(معاني القرآن)** كما ألف غيره في هذا الموضوع، بغية تفسير مشكل القرآن، وتوجيه الآيات توجيهاً أدخلها في عداد التفاسير اللغوية، ولكن كتاب أبي زكريا كان أهم الكتب، ففضلها لأسباب عديدة منها أن:

١ – صاحبه يعد الإمام الحقيقي لمدرسة الكوفة، إذ وطد أركانها، وميز ملامحها، وجعل لها هوية خاصة بها، وكان الصوت الأقوى، والعقل الأدق والأخصب بين أعلام المذهب الكوفي، وعلى هذا فكتابه كتاب مدرسة أو مذهب، وهو للكوفيين بمثابة كتاب سيبويه للبصريين.

٢ – الكتب الأخرى ركزت على جانب أو أكثر فبرزت فيها، وأغفلت بعض الجوانب إما لعدم قدرة مؤلفيها على الخوض فيها، أو لأنهم أفردوا لها كتباً أخرى، بينما الفراء خاض في الجوانب جميعاً، وإذا كان قد غلب على كتابه الجانب النحوي فقد احتوى أيضاً: التفسير والأخبار وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ والفقه والقراءات واللغة والصرف والبلاغة، فكان أشبه ما يكون بدائرة معارف الرجل.

وهو في وقوفه على القضايا البلاغية تمكن من الخطو بالبلاغة إلى الأمام، حيث عمق ما مرّ به سابقوه مراً سريعاً، وفصَّل ما أجملوه، وأضاف الكثير مما لم يقولوه، وأدرك ما لم يدركوه، وهذا فضل يجب ألا ينساه للفراء من يقومون بالتأريخ للبلاغة العربية، بما في ذلك وقوفه على الفواصل القرآنية وإدراكه أنها في كثير من القرآن تكون سبباً لتغيرات تطرأ على الكلمات، فحاول أن يضبطها ويقارنها بما عرف عند العرب من أوزان الشعر، فكان بذلك خطوة متقدمة عمن عاصروه أو تقدموه، بل أول من عرض للفاصلة، وقال بنظامها، وإن لم يأخذ بتسميتها حرفياً.

وقد تجلى لنا دور الفراء في تأصيل أصول العربية من سماع، وقياس، وعوامل، وعلل، وأنه سبق ابن جني المتوفى سنة (٣٩٢ هـ) بالقول بالعامل، بنحو قرنين من الزمان حين أدرك أن النحو يخضع للمعنى الذي يريده المتكلم ليعبر عمّا في نفسه، ولكن هذا المتكلم يتخذ من العوامل وسائل أو آلات لإحداث حركات الإعراب التي تدل على مختلف المعاني، ثم بينت أنه كوفي المذهب، بل إمامه الحقيقي لما أوتيه من فكر خصيب، ورأي دقيق، وثقافة واسعة، وشخصية قوية جعلته في أحيان كثيرة يخالف أئمة العربية – وأستاذه الكسائي واحد منهم – في آرائهم ليعرض رأياً خاصاً به، مدللاً عليه بما ورد في القرآن وكلام العرب.

كما بينت أن ما يشاع عن المدرسة الكوفية في أنها تروي عمن لا تعرف أسماؤهم من الرواة وأنها تروي الشاذ والنادر وتقيس عليه، كلام فيه من التجني ما فيه، لأن الفراء لم يخرج في كل ذلك عمن يحتج بهم زمناً وقبائل، كما أنه قد ينص على القليل من كلام العرب وينص على أنه القياس، ولكن هذا لا يمكن أن يكون مطعناً يوجه إلى منهجه لأن القياس لا يشترط فيه الكثرة أولاً، وقد قاس سيبويه على القليل، كما أن الفراء يحبذ القياس على الكثير في الأعم الأغلب ثانياً.

وإذا كان قد نص على كثير من اللغات المسموعة، فذلك منهج سليم يتفق والانتفاع بالوارد المسموع عن العرب لتظل العربية لغة حية لا تنتظم في عداد اللغات الميتة، بل إن ما يسجل لأبي زكريا الفراء ذهابه إلى أن لغة القرآن أقوى وأعرب في الحجة من الشعر، فكثر احتجاجه بالقرآن وكلام العرب النثري حتى أربت شواهده، من ذلك، على الشواهد الشعرية، فنهج بذلك نهجاً سليماً واعياً، لأن تلك الشواهد لا تخضع للضرورات التي يخضع لها الشعر.

وقد كان يراعي المعنى ويرى فيه أساس توجيه الإعراب كما ميز بين المواقع النحوية للكلام والمواقع الدلالية، وهذا ما يمنح اللغة سعة في التعبير، ويجعل الفراء أول من رمى بسهم في بعض الجوانب التي يعالجها علم اللغة الحديث، مما يجب ألا يغفله الباحثون الذين يرغبون في بناء نظرية لسانية عربية.

ثم إن ميل الفراء إلى الاعتزال كان محوراً لمنهجه في جوانب كثيرة من الكتاب مثل كونه مفسراً سلفياً متحرراً جمع بين المنقول والمعقول، وأخذ برأي كثير من أئمة العربية ورفض في الوقت نفسه، كثيراً مما ذهبوا إليه ليدلي بآرائه واجتهاداته الخاصة، وهذا المنهج يتفق ومنهج المعتزلة الذين يميلون إلى تحكيم العقل مع المحافظة على أصل الدين.

وكتابه – شأنه شأن الدراسات اللغوية المبكرة – لم يكن يميز بين ألوان الدراسات اللغوية، فكان فيه النحو واللغة والصرف والبلاغة والقراءات إلى جانب التفسير والفقه والأخبار... وقد تجاورت واختلطت في معظم المواضع، من كتاب اتسم أسلوبه، عامة، بالوضوح، وَبيَّن آفاق البحث اللغوي عنده.

المصادر والمراجع

أ- المصادر

- القرآن الكريم
- الإتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، المطبعة الأزهرية، مصر، ط٢، ١٩٢٥.
- أخبار النحويين البصريين للسيرافي: تحقيق طه محمد الزيني ومحمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة مصطفى البابي الحلبي ط١ – ١٩٥٥.
- أساس البلاغة للزمخشري: تحقيق عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت ١٩٨٢.
- إنباه الرواة للقفطي: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب، القاهرة ١٩٧٣.
- الإنصاف في مسائل الخلاف لابن الأنباري: تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٢.
- الإيضاح في علل النحو للزجاجي: تحقيق د. مازن المبارك، دار الأندلس، ط٢١، ١٩٧٣.
- البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي: مطبعة السعادة بمصر، ط١، ١٣٢٨ هـ.
- بغية الوعاة للسيوطي: دار السعادة، ط١، ١٣٢٦ هـ.
- البلغة في تاريخ أئمة اللغة للفيروز أبادي: تحقيق محمد المصري، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٧٢.
- تاريخ بغداد للخطيب البغدادي: ط١، ١٩٣١.
- تاريخ الخلفاء للسيوطي: إدارة الطباعة المنيرية بمصر، ط١ ١٣٥١ هـ.
- تاريخ الطبري: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ط٢، ١٩٦٧.
- التفاحة في النحو لأبي جعفر النحاس: تحقيق كوركيس عواد بغداد، ١٩٦٥.

- تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن): ط: مصطفى البابي الحلبي، ١٩٥٠.
- الجنى الداني في حروف المعاني: الحسن بن قاسم المرادي، تحقيق د. فخر الدين قباوة، حلب، ١٩٧٣.
- الحجة في القراءات السبع لابن خالويه: تحقيق د. عبد العال سالم مكرم، دار الشروق، بيروت، ١٩٧١.
- خزانة الأدب للبغدادي: المطبعة السلفية، القاهرة،١٣٤٧هـ
- الخصائص لابن جني: تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، ط٢.
- السبعة في القراءات لابن مجاهد: تحقيق د. شوقي ضيف، دار المعارف.
- سر صناعة الإعراب لابن جني: تحقيق مصطفى السقا وآخرين، مكتبة عيسى الحلبي، القاهرة، ١٩٥٤.
- شرح المفصل لابن يعيش: عالم الكتب، بيروت.
- شرح الكافية لرضي الدين الاستراباذي: طبعة إيران، ١٣٠٥ هـ.
- شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي: القاهرة، ١٣٥٠ هـ.
- طبقات القراء (غاية النهاية في طبقات القراء) لابن الجزري: تحقيق برجشتراسر، مصر، ١٣٥١ هـ.
- طبقات النحويين واللغويين للزبيدي: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة الخانجي، ط١، ١٩٥٤.
- الفهرست لابن النديم: المطبعة الرحمانية، مصر، ١٣٤٨ هـ
- القاموس المحيط للفيروز أبادي: ط، دار النوري، دمشق.
- الكامل في التاريخ لابن الأثير: الطبعة الثانية.
- كتاب سيبويه: تحقيق عبد السلام هارون، عالم الكتب، بيروت، ط٦.
- كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي: شركة خياط للكتب والنشر، بيروت.
- كشف الظنون لحاجي خليفة: المكتبة الإسلامية بطهران، ط٣، ١٣٧٨ هـ.

- الكليات لأبي البقاء الكفوي: تحقيق د. عدنان درويش ومحمد المصري، ط٢، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨١.
- لسان العرب لابن منظور المصري: ط، دار صادر، بيروت.
- لمع الأدلة في أصول النحو لابن الأنباري: تحقيق سعيد الأفغاني، ط، جامعة دمشق، ١٩٥٧.
- مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى: تحقيق د. فؤاد سزكين، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٩٨١.
- مراتب النحويين واللغويين لأبي الطيب اللغوي: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٥.
- المرتجل لابن الخشاب: تحقيق علي حيدر، دمشق ١٣٩٢هـ.
- المزهـر في علوم اللغـة للسيوطي: المطبعة الأميرية، ١٢٨٢ هـ.
- معاني القرآن للأخفش الأوسط: تحقيق د. فائز فارس، ط٢ الكويت، ١٩٨١.
- معاني القرآن للزجاج: مخطوط، دار الكتب المصرية رقم (١١١) م تفسير. وقد حققه عبد الجليل شلبي – عالم الكتب – القاهرة ١٩٨٨
- معاني القرآن للفراء: تحقيق محمد علي النجار، وأحمد يوسف نجاتي وعبد الفتاح شلبي، ط٢، عالم الكتب، بيروت ١٩٨٠.
- معاني القرآن للنحاس: مخطوط، دار الكتـب المصرية رقم (٣٨٥) تفسير. وقد حققه محمد علي الصابوني – جامعة أم القرى ١٩٨٨.
- معجم الأدباء لياقوت الحموي: دار المأمون، ١٩٣٦ م.
- معجم الشعراء للمرزباني: مكتبة القدسي، ١٣٥٤ هـ.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس: تحقيق عبد السلام هارون، ط١، القاهرة، ١٣٦ هـ.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام: تحقيق د. مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، ط٥، دار الفكر، بيروت ١٩٧٩.

- نزهة الألباء لابن الأنباري، بلا مكان أو تاريخ.
- النشر في القراءات العشر لابن الجزري: صححه محمد أحمد دهمان، دمشق، ط١، مطبعة التوفيق، ١٣٤٥ هـ.
- وفيات الأعيان لابن خلكان، دار الطباعة المصرية، بلا تاريخ.

ب – المراجع:

- أبو زكريا الفراء ومذهبه في النحو واللغة: د. أحمد مكي الأنصاري، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بمصر ١٩٦٤.
- أبو علي الفارسي: د. عبد الفتاح شلبي، مطبعة نهضة مصر ١٩٥٨.
- الاتجاه العقلي في التفسير: د. نصر حامد أبو زيد، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٢.
- أثر القراءات القرآنية في تطور الدرس النحوي: د. عفيف دمشقية، معهد الإنماء العربي، ط١، ١٩٧٨.
- أثر القرآن في تطور النقد العربي: د. محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، ط٣، ١٩٥٢.
- إحياء النحو: إبراهيم مصطفى، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٩.
- الأصول: د. تمام حسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢.
- أصول التفكير النحوي: د. علي أبو المكارم، القاهرة، ١٩٧٣.
- أصول الفقه: بدران أبو العينين، دار المعارف، ١٩٦٥.
- أصول النحو العربي: د. محمد خير حلواني، مطبعة أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ١٩٨٣.
- أصول النحو العربي: د. محمد عيد، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧٣.
- الأعلام: خير الدين الزركلي.
- البلاغة تطور وتاريخ: د. شوقي ضيف، دار المعارف، ط٢، ١٩٦٥.
- البلاغة العربية في دور نشأتها: د. سيد نوفل، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة: ١٩٤٨.
- تاريخ الأدب العربي: كارل بروكلمان، ترجمة د. عبد الحليم نجار، دار المعارف، ط٢، ١٩٥٩.

- تاريخ الأدب العربي: عمر فروخ، بيروت، ط١، ١٩٦٨.
- تاريخ التراث العربي: د. محمد فؤاد سزكين، ترجمة د. فهمي أبو الفضل، المجلد الأول، الجزء الأول، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة: ١٩٧١.
- تاريخ علوم البلاغة العربية: أحمد مصطفى المراغي، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ط١، ١٩٥٠.
- تاريخ القرآن والتفسير: د. عبد الله محمود شحاتة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢.
- تجديد النحو العربي: د. عفيف دمشقية، معهد الإنماء العربي، بيروت ١٩٧٦.
- التفسير البياني للقرآن الكريم: عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، دار المعارف، ط٣، ١٩٦٨.
- جواهر البلاغة: أحمد الهاشمي، مطبعة السعادة بمصر، ١٩٣١.
- خطا متعثرة على طريق تجديد النحو العربي: د. عفيف دمشقية، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٠.
- دائرة المعارف الإسلامية: مادة تفسير للأستاذ أمين الخولي.
- دراسات في العربية وتاريخها: محمد الخضر حسين، مكتبة دار الفتح، دمشق، ط٢، ١٩٦٠.
- رواية اللغة: د. عبد الحميد الشلقاني، دار المعارف، ١٩٧١.
- سيبويه إمام النحاة: علي النجدي ناصف، مطبعة نهضة مصر، ١٩٥٣.
- ضحى الإسلام: أحمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١٠.
- العربية، يوهان فك: ترجمة د. عبد الحليم نجار، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٥١.
- علوم البلاغة العربية: أحمد مصطفى المراغي، المطبعة العربية، ط٣.
- الفاصلة في القرآن: محمد الحسناوي، دار الأصيل، حلب، ١٩٧٧.

فهرس

الصفحة

مقدمة ٥

الباب الأول

(معاني القرآن) ١١

الفصل الأول: صاحب الكتاب ١٣

آ – اسمه ولقبه ونسبه ١٤

ب– مولده ونشأته ورحلاته ١٥

جـ- ثقافته ومنزلته العلمية ١٦

د - آثاره ٢٢

الفصل الثاني: محتوى الكتاب، وتصنيفه بين الدراسات القرآنية ٢٥

الفصل الثالث: ما ألف في معاني القرآن قبل معاني الفراء ٣٧

أولاً: مجاز القرآن لأبي عبيدة التيمي ٣٩

١ - أبو عبيدة اللغوي ٤٧

٢ - أبو عبيدة البلاغي ٤٨

٣ - أبو عبيدة النحوي ٥٣

ثانياً: معاني القرآن للأخفش الأوسط ٥٥

• منهج الأخفش في المعاني ٦٤

الصفحة

الفصل الرابع : ما ألف في معاني القرآن بعد معاني الفراء ٦٩

أولاً: معاني القرآن لأبي إسحاق الزجاج..... ٧١

- منهج الزجاج في التفسير ٧٢
- الزجاج والمذاهب النحوية ٧٩

ثانياً: معاني القرآن لأبي جعفر النحاس..... ٨٣

أولاً- النحاس والتفسير ٨٦

ثانياً- النحاس واللغة ٩٠

الفصل الخامس: موقع كتاب الفراء بين كتب المعاني ٩٧

- أبو عبيدة في مجاز القرآن ٩٨
- الأخفش الأوسط في المعاني ٩٩
- الزجاج في (معاني القرآن)..... ١٠٠
- أبو جعفر النحاس في (معاني القرآن) ١٠٠

دراسات موازنة ١٠٢

١ - بين مجاز أبي عبيدة ومعاني الفراء ١٠٢

- هل تأثر الفراء بأبي عبيدة في كتابه ١٠٨

٢ - بين معاني الأخفش الأوسط ومعاني الفراء ... ١٠٩

- هل تأثر الفراء بالأخفش في كتابه معاني القرآن . ١١٠

٣- بين معاني الفراء ومعاني الزجاج ١١٥

- هل تأثر الزجاج بالفراء في معاني القرآن ... ١١٧

٤ - بين معاني الفراء ومعاني النحاس ١١٨

الباب الثاني

منهج الفراء في معاني القرآن ١٢١

تمهيد في المنهج ١٢٣

الفصل الأول: التفسير والقراءات ١٢٧

أ – الفراء والتفسير ١٢٧

ب – الفراء والقراءات ١٤٠

الفصل الثاني: اللغة والصرف ١٥٧

أ – الفراء واللغة ١٥٧

ب – الفراء والصرف ١٦٦

الفصل الثالث: في البلاغة ومصطلحاتها ١٧٩

• الفراء والفاصلة القرآنية ١٩٢

الفصل الرابع: منهجه في النحو ١٩٧

أولاً: أصوله ومقاييسه ١٩٧

أ – السماع والقياس ٢٠٠

١ – السماع ٢٠١

• مصادر الفراء في السماع ٢٠٦

أ - القرآن الكريم وقراءاته ٢٠٧

ب- الحديث الشريف ٢١١

جـ- كلام العرب ٢١٣

الصفحة

٢ – القياس ٢٢٠
ب – العوامل والعلل ٢٣١
١ – العوامل ٢٣٢
٢ – العلل ٢٤٢
ثانياً: مذهبه النحوي ٢٥٠
أ – المصطلحات الكوفية ٢٥٦
ب – موقفه من النحاة ٢٦٢
جـ - الإعراب بين اللفظ والمعنى ٢٦٨
الفصل الخامس: طريقته في عرض الكتاب ٢٧٣
الخاتمة ٢٨٣
المصادر والمراجع ٢٨٦

د. موفق السراج

- تولد / ١٩٥٥ / حماة.
- دكتوراة في اللغة العربية وآدابها (اختصاص نحو وصرف وبلاغة).
- رئيس القسم الثقافي بجريدة الفداء (١٩٨٤– ١٩٨٩).
- عضو هيئة تدريسية في جامعة الفاتح والمعاهد العليا بطرابلس الغرب (١٩٩٠–٢٠٠٦).
- مدرس النحو والصرف في معهد الشام العالي بدمشق (مجمع الفتح الإسلامي سابقاً) (٢٠٠٧–٢٠١٠).
- مدرس في كليات جامعة حماة (٢٠٠٧–٢٠١٠).
- عضو هيئة تدريس في الجامعة الوطنية الخاصة بحماة منذ عام (٢٠١١).

٢٠٢١م